



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة مولود معمري تيزي وزو

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

تحت عنوان:

مبادئ المسيحية بين المنصوص و الظاهر في بلاد المغرب القديم

مذكرة لنيل شهادة الماستر في تاريخ و حضارة المغرب القديم

تحت إشراف الأستاذة:

إعداد الطالبة:

\* فراح فازية

- أونسلي مسيليا

أعضاء اللجنة المكونة من:

الصفة	الرتبة	الإسم و اللقب
رئيسا	أستاذ محاضر _ أ _	أ. أقوني الياسمين
مشرفا و مقورا	أستاذ محاضر _ ب _	أ. فراح فازية
مناقشا	أستاذ محاضر _ أ _	أ. علي أحمد شعبان

السنة الجامعية 2024-2025

## كلمة شكر وعرّفان

نحمد الله حمد الشاكرين ونثني عليه ثناء الذاكرين أن وفقنا وسدد خطانا  
لإتمام هذا الجهد المتواضع.

وعملا بقوله صلى الله عليه وسلم : من لم يشكر الناس لم يشكر الله  
نتقدم بالشكر والعرّفان للأستاذة الفاضلة الدكتورة فراح فاذية المشرفة

على بحثنا والتي لم تتوانى بتقديم توجيهاتها القيمة وإرشاداتها  
ونصائحها الهامة.

كما لا ننسى أن نشكر لجنة المناقشة و كل من ساعدنا من قريب أو  
من بعيد من أهل زملاء ، وخاصة أساتذة قسم العلوم الإنسانية الذين  
زودونا بما نحتاجه من رصيد وهذا خلال الفترة الجامعية.

# اهداء

إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك ولا يطيب النهار إلا بطاعتك.. ولا تطيب اللحظات إلا بذكرك.. ولا تطيب الآخرة إلا بعفوك.. ولا تطيب الجنة إلا برؤيتك.

الله جل جلاله

.. إلى من بلغ الرسالة وأدى الأمانة.. ونصح الأمة.. إلى نبي الرحمة ونور العالمين.

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

إلى من جرع الكأس فارغا ليسيني قطرة حب.. إلى من كلت أنامله ليقدم لنا لحظة سعادة

إلى من حصد الأشواك عن دربي ليمهد لي طريق العلم.. إلى القلب الكبير

والدي العزيز.

إلى من أرضعتني الحب والحنان.. إلى رمز الحب وبلسم الشفاء.. إلى القلب الناصع

بالبياض

والدتي الحبيبة.

إلى القلوب الطاهرة الرقيقة والنفوس البريئة إلى الإخوة وإخوتي.

إلى أساتذتي الكرام فبفضل جهودهم وتوجيهاتهم وصلنا إلى هذه المرتبة.

مسيليا

# فهرس المحتويات

---

## فهرس المحتويات

	شكر و عرفان
	اهداء
	فهرس المحتويات
	مقدمة
<b>الفصل الأول: الإطار المفاهيمي والتاريخي للعقيدة المسيحية ومصادرها المقدسة</b>	
12	أولاً: تعريف المصدر و العقيدة
12	1-تعريف المصدر
13	2-تعريف العقيدة
17	ثانياً: نشأة و تطور المسيحية
17	1-مفهوم المسيحية
22	2-ظهورها
23	2-1-تبشير مريم بعيسى (عليه السلام)
27	2-2-ميلاد عيسى (عليه السلام)
30	2-3-معجزات عيسى (عليه السلام)
35	ثالثاً: الكتاب المقدس و العهد الجديد
35	1-تعريف الكتاب المقدس
36	2-العهد الجديد
36	2-1-تعريف العهد الجديد
36	2-2-أقسام العهد الجديد
<b>الفصل الثاني: المسيحية في بلاد المغرب القديم بين المبادئ الإنجيلية والواقع التاريخي</b>	
51	أولاً-نشأة المسيحية في بلاد المغرب القديم
54	1-طرق دخول المسيحية في بلاد المغرب القديم
68	ثانياً: الأسباب التي ساعدت على إنتشار المسيحية في بلاد المغرب القديم
70	1-أسباب إجتماعية

## فهرس المحتويات

77	2-أسباب إقتصادية
85	ثالثا: الصراعات و التحديات التي واجهتها المسيحية في بلاد المغرب القديم
85	1-التأثيرات المحلية على الممارسات المسيحية
88	2-سياسة الإمبراطورية الرومانية المسيحية
104	3-نتائج إحتواء المسيحية من طرف السلطة الرومانية على بلاد المغرب القديم
<b>الفصل الثالث: الانشقاق الكنسي في بلاد المغرب القديم.</b>	
110	1-النشأة والظهور (305-316م)
120	2-مرحلة الاضطهاد والقمع (317-392م)
143	3-مرحلة الانشقاق زمن أوغسطين (392-430م)
146	4-مرحلة الضعف والزوال (430-533م)
150	خاتمة
157	قائمة المصادر و المراجع

## قائمة المختصرات Abréviations

### 1-المختصرات باللغة العربية:

- تع. - تعليق
- تح. - تحقيق
- تر. - ترجمة
- ج. - جزء
- د. ت. - دون تاريخ
- ط. - طبعة
- ق. م. - قبل الميلاد
- مج. - مجلد
- ه. = هامش

### 2-المختصرات باللغة الأجنبية:

#### أ - الحوليات:

- B.A.= bibliothèque Augustinienne.
- B.C.T.H. = Bulletin archéologique, Comité des travaux historiques et scientifiques.
- C.R.A.I.= Comptes Rendus de l'académie des Inscriptions et Belles-Lettres
- M.E.F.R. = Mélanges de l'Ecole Française de Rome.
- Rev.Afri.= Revue Africaine.
- R.E.A.= Revue des Etudes Anciennes.
- R.H.R.= Revue de l'Histoire des Religions.
- R.Q.H. = Revue des Questions Historiques.
- S.A.C. =Société Archéologique de Constantine.

#### ب-الكتب:

- A.A.A.= Atlas Archéologique de l'Algérie .
- A.A.T. = Atlas Archéologique de Tunisie.
- Cod. Theod. = Code de Théodose.
- Dic. Univ. Hist. Géo.= Dictionnaire Universel d'Histoire et Géographie.
- H.G.E.R.= Histoire Générale de l'empire Romain.
- H.L.A.C. = Histoire Littéraire de l'Afrique chrétienne des origines à l'invasion arabe, 7 vol., Paris, 1901-1923.

#### ج-الكتب باللاتينية:

- C.S.E.L.=Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum.
- C.I.L.=Corpus Inscriptionum Latinarum.
- Cont.Cresc.=Contra Cresconium.
- Cont. Litter. Petil.= Contra Litteras Pétilianii.
- Epist. = Epistolae.

## ملخص :

تدرس هذه المذكرة التفاعل بين المبادئ المسيحية النظرية والممارسات الواقعية في بلاد المغرب القديم (شمال إفريقيا) خلال الفترة من القرن الثاني إلى السابع الميلادي. تنطلق من إشكالية أساسية تتمثل في وجود فجوة بين ما تنص عليه المصادر الدينية المسيحية (الكتاب المقدس، كتابات الآباء، وقرارات المجامع) وبين الممارسات الفعلية في المجتمع المغاربي القديم. اعتمد البحث على منهجية تاريخية تحليلية تراوح بين دراسة المصادر النصية (أعمال ترتليان، سيريان، وأوغسطين) والشواهد الأثرية (النقوش، الكنائس، واللقى الأثرية)، مع التركيز على السياق الاجتماعي والثقافي للمنطقة. كشفت الدراسة عن وجود تباين واضح بين المبادئ المسيحية العالمية والممارسات المحلية، خاصة في مجال التنظيم الكنسي والطقوس الدينية. كما أظهرت كيف تأثرت المسيحية المغاربية بالبيئة المحلية الأمازيغية-البونيقية، مما أدى إلى ظهور تيارات لاهوتية محلية مثل الدوناتية، وطقوس عبادة مميزة. توصلت المذكرة إلى أن المسيحية في المغرب القديم تشكلت عبر تفاعل معقد بين المبادئ الدينية المنقولة والخصوصيات المحلية، مما أسفر عن هوية دينية مغاربية مميزة ساهمت بدورها في تطور المسيحية الغربية.

**الكلمات المفتاحية:** المسيحية المغاربية، بلاد المغرب القديم، الآباء اللاتين، الدوناتية، التاريخ الديني

## Résumé :

Ce mémoire étudie l'interaction entre les principes théoriques du christianisme et les pratiques concrètes dans l'Afrique du Nord ancienne (le Maghreb) durant la période allant du II<sup>e</sup> au VII<sup>e</sup> siècle après J.-C. Il part d'une problématique centrale : l'existence d'un écart entre ce que prescrivent les sources religieuses chrétiennes (la Bible, les écrits des Pères de l'Église et les décisions conciliaires) et les pratiques réelles au sein de la société maghrébine antique.

La recherche adopte une méthodologie historique et analytique, combinant l'étude des sources textuelles (les œuvres de Tertullien, Cyprien et Augustin) aux témoignages archéologiques (inscriptions, églises, objets trouvés), tout en mettant l'accent sur le contexte social et culturel de la région.

L'étude révèle un contraste marqué entre les principes universels du christianisme et les pratiques locales, en particulier dans l'organisation ecclésiastique et les rites religieux. Elle montre aussi comment le christianisme maghrébin s'est imprégné de l'environnement local berbéro-punique, donnant naissance à des courants théologiques spécifiques, comme le donatisme, ainsi qu'à des formes rituelles propres.

Le mémoire conclut que le christianisme dans le Maghreb antique s'est constitué à travers une interaction complexe entre les dogmes importés et les particularités locales, aboutissant à une identité religieuse maghrébine originale qui a, à son tour, influencé l'évolution du christianisme occidental.

**Mots-clés :** christianisme maghrébin, Afrique du Nord ancienne, Pères latins, donatisme, histoire religieuse.

# مقدمة

---

**التعريف بموضوع البحث:** شكّلت المسيحية في بلاد المغرب القديم ظاهرة دينية واجتماعية فريدة، تجلّى فيها التفاعل الحيّ بين المبادئ العقائدية المنصوص عليها في النصوص الكنسية والواقع الثقافي المحلي. فقد أدى انتشار المسيحية بين القرنين الثاني والسابع الميلادي في شمال أفريقيا إلى نشوء أنماط دينية مميزة، تباينت فيها الممارسات الشعائرية الظاهرة عن الأصول اللاهوتية الرسمية. تبرز هذه الثنائية إشكالية منهجية عميقة تتطلب تحليلاً دقيقاً للعوامل التاريخية والثقافية التي أسهمت في تشكيل هذه الخصوصية المغاربية.

لقد أنتج هذا التفاعل الديني-الثقافي ظواهر لافتة كالحركة الدوناتيّة التي مثّلت احتجاجاً محلياً على السلطة الكنسية، وتمازج الرموز الدينية المسيحية مع الموروث الأمازيغي في النقوش والآثار، فضلاً عن ظهور تفسيرات محلية للعقائد الأساسية كالتثليث والتجسد. كما تجسّد هذا التمايز في الطقوس الدينية، والممارسات اليومية، والتنظيم الكنسي، مما يدعو إلى التساؤل عن طبيعة العلاقة الجدلية بين الثوابت العقائدية والمتغيرات الاجتماعية في تشكيل الهوية الدينية للمسيحية المغاربية.

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من سعيها إلى الكشف عن الديناميكيات الخفية التي حكمت التحولات الدينية في المنطقة، عبر تحليل متكامل يجمع بين النصوص اللاهوتية والشواهد الأثرية والمصادر التاريخية. كما تهدف إلى إلقاء الضوء على آليات التكيّف الثقافي للديانات العالمية في البيئات المحلية، مما يقدّم نموذجاً تطبيقياً لفهم التفاعلات الدينية-الثقافية في التاريخ القديم.

انطلاقاً من الأهمية التاريخية والدينية لبلاد المغرب القديم كحاضنة للحضارات وملتقى للثقافات، اخترت دراسة موضوع "مبادئ المسيحية بين المنصوص و الظاهر في بلاد المغرب القديم" لما يثيره من إشكاليات علمية عميقة. يأتي هذا الاختيار انطلاقاً من حقيقة أن المسيحية المغاربية قد شكّلت نموذجاً فريداً للتفاعل بين النص الديني والواقع الاجتماعي، حيث تجلّت خصوصية هذه المنطقة في صياغة هوية مسيحية مميزة تختلف في بعض تجلياتها عن المسيحية المتوسطية.

**دوافع اختيار الموضوع:** تأتي أهمية هذه الدراسة من كونها تُقدّم قراءةً شاملةً لجذور المسيحية في المغرب القدي وتوسعي إلى تحليل العوامل التاريخية والدينية والاجتماعية التي أدت إلى ظهور الانقسامات داخل الكنيسة الإفريقية، ولا سيما الصراع بين الدوناتيين والكاثوليك. كما تحاول الكشف عن طبيعة هذا الصراع وآثاره على المشهد الديني والسياسي في المنطقة، من خلال رصد تداخلاته العقائدية والسلطوية، وتأثيره في تشكيل الهوية

الدينية المحلية .وبهذا، تساهم الدراسة في إغناء البحث الأكاديمي حول تاريخ المسيحية المغاربية، عبر مقارنة تحليلية تربط بين البعد النظري والواقع التاريخي وانطلاقاً من هذه الأهمية فقد دفعتني عدة أسباب إلى اختيار هذا الموضوع منه :

- 1- يحاول رصد مظاهر هذا التفاعل الديني-الثقافي عبر دراسة جذور الاختلافات بين المبادئ العقائدية كما وردت في النصوص الكنسية من جهة، والممارسات الدينية كما تجسّدت في الواقع المغاربي من جهة أخرى.
- 2- كما يهدف إلى تحليل العوامل التاريخية والاجتماعية التي أسهمت في تشكيل هذه الخصوصية الدينية، من خلال منهجية تعتمد على المقارنة بين المصادر اللاهوتية والشواهد الأثرية.
- 3- إن دراسة هذا الموضوع تفتح آفاقاً جديدة لفهم آليات انتقال الأديان العالمية وتكيفها مع البيئات المحلية.
- 4- كما تقدّم نموذجاً تطبيقياً لفهم الديناميكيات الخفية التي تحكم العلاقة بين النص الديني والممارسة الواقعية.

وهذا ما دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع، سعياً لإثراء الدراسات التاريخية والدينية المتعلقة بمرحلة حاسمة من تاريخ المنطقة.

#### أهداف البحث: يسعى هذا البحث إلى:

- 1- دراسة السمات المميزة للمسيحية المغاربية التي جعلتها تختلف عن غيرها من التجارب المسيحية في حوض المتوسط.
- 2- رصد الفجوة بين المبادئ العقائدية كما وردت في النصوص الكنسية، والممارسات الواقعية كما تجلت في الحياة الدينية اليومية.
- 3- تحديد العوامل التاريخية والاجتماعية والثقافية التي أسهمت في تشكيل هذه الخصوصية الدينية.
- 4- تحليل كيفية تفاعل المسيحية مع البيئة الثقافية الأمازيغية والتراث البونريقي-الروماني.
- 5- تقديم قراءة نقدية متكاملة تجمع بين المصادر الكتابية واللقى الأثرية والشواهد التاريخية.
- 6- المساهمة في فهم أعمق لآليات انتقال الأديان وتكيفها مع المجتمعات المحلية.
- 7- توثيق المكون المسيحي كجزء من الهوية الدينية المتعددة لشمال أفريقيا.

إشكالية البحث:

لا ريب أن تحقيق أهداف هذه الدراسة والوصول إلى نتائج دقيقة يقتضي صياغة جملة من التساؤلات البحثية والفرضيات العلمية، والتي سأحاول معالجتها انطلاقاً من المنهجية الأكاديمية المعتمدة في هذا البحث. وتنبثق هذه التساؤلات من الإشكالية الرئيسية التالية : كيف تجلّت مبادئ المسيحية بين ما هو معاشٌ ظاهرياً وما هو مقرّرٌ نصياً في بلاد المغرب القديم؟ ومن أبرز هذه التساؤلات التي تسعى الدراسة للإجابة عنها:

- 1- ما المقصود بمصادر العقيدة؟
- 2- ماهي الديانة المسيحية و كيف ظهرت و تطورت؟ و ما هي التعاليم التي تقوم عليها الديانة المسيحية؟ وما هي أهم مصادر العقيدة المسيحية؟
- 3- كيف وصلت المسيحية الى الشمال الإفريقي؟ و ما العوامل التي ساعدتها في الانتشار؟
- 4- كيف تجلّت مبادئ المسيحية في الواقع المغربي القديم؟
- 5- ما مدى انتشار المسيحية؟ وهل اعتنقها الجميع؟
- 6- ما هو موقف الذي اتخذته الإمبراطورية الرومانية من هذه الديانة؟
- 7- هل الالتزامات المسيحية بالمبادئ الإنجيلية: بين النظرية والتطبيق في بلاد المغرب القديم؟
- 8- كيف ظهر الانشقاق الكنسي؟ و كيف كان رد فعل السلطة الزمانية على هذا الانشقاق؟
- 9- كيف ساهم تطور المسيحية في المغرب القديم في هذه الديناميكيات (الظروف السياسية والاجتماعية)؟

**نقد المصادر و المراجع :** على الرغم من توفر عدد لا بأس به من المصادر الأدبية والمادية التي تناولت تاريخ المسيحية في المغرب القديم، إلا أن الملاحظ أن هذه المصادر - وللأسف - تكاد تكون حصراً بلغات أجنبية، ولاسيما اللاتينية. ومن أبرز هذه المصادر كتابات آباء الكنيسة الأفارقة العظام مثل ترتوليان (Tertullianus)، والقديس قريانوس (St. Cyprianus)، وأوبطاميليفي (Optat de Milev)، والقديس أوغسطين (St. Augustin)، و هذه المصادر تبدأ من القرن الثاني الميلادي فصاعداً، وهي تتكلم عن فترة الحوارين بشكل دليلاً واضحاً على أن المسيحية لم تصل إلى المغرب القديم في العصر الرسولي. لكن لعبت الكنيسة الأفريقية لاحقاً دوراً محورياً في انتشار وتطور المسيحية عبر الإمبراطورية الرومانية، وخاصة في غرب المتوسط. كما أنجبت هذه المنطقة عمالقة الفكر اللاهوتي المسيحي، مثل ترتوليان وأوغسطين، الذين يعدون من مؤسسي الأدب اللاتيني المسيحي وأبرز المدافعين عن العقيدة المسيحية (Apologistes). و للتعامل مع هذه

الإشكاليات البحثية، اعتمدت في هذه الدراسة على منهجية علمية متكاملة تعتمد على مجموعة متنوعة من المصادر والمراجع، يمكن تصنيفها كما يلي:

### أولاً: المصادر الأولية

#### 1. المصادر الكلاسيكية: و تتمثل في كتابات آباء الكنيسة الأفارقة :

\_\_ترتوليانوس, Tertillianus (160-240م) ، يُعدُّ أحد أبرز رواد الفكر المسيحي في شمال أفريقيا، حيث مثل حلقة وصل بين التراث الكلاسيكي واللاهوت المسيحي المبكر. اشتهر هذا المفكر، الذي يُعتبر مؤسس الأدب المسيحي اللاتيني، بدوره المحوري في الدفاع عن العقيدة المسيحية (Apologetics)، حيث قدّم في مؤلفه "الدفاع عن المسيحية" (Apologeticum) - الذي ألفه حوالي عام 197م - وصفاً دقيقاً لعمليات اضطهاد المسيحيين، كما صاغ أول خطاب دفاعي منهجي عن العقيدة المسيحية باللغة اللاتينية. وتكمن أهمية هذا المصدر في الدراسة الحالية من عدة جوانب: أولاً: القيمة التاريخية: كوثيقة تعكس الواقع الديني والاجتماعي في المغرب القديم، ثانياً الأهمية الأدبية: بوصفه نصاً تأسيسياً في الأدب المسيحي اللاتيني، ثالثاً البعد الحضاري: كمثال على تفاعل الثقافة الأفريقية مع الفكر المسيحي

\_\_أوبطاميلي, Optatus de Milev (320-385م)، و هو أحد أسقف مدينة ميلاف (ميلة حالياً بالجزائر)، أحد أبرز المدافعين عن المذهب الكاثوليكي في مواجهة الانشقاق الدوناتي خلال القرن الرابع الميلادي. ويُمثّل مؤلفه الرئيس "ضد الانشقاق الدوناتي" (De Schismate Donatarum)، الذي ألفه حوالي عام 366م ردّاً على كتاب "ضد كنيسة المتخاذلين" (Adversus Ecclesiam Traditorum) للأسقف الدوناتي بارميناوس، مصدرًا تاريخيًا بالغ الأهمية لفهم الصراع المذهبي الذي شهدته الكنيسة الأفريقية. تتمثل القيمة العلمية لهذا المصدر في كونه يُقدّم: تحليلاً دقيقاً لجذور الانقسام الدوناتي وأسبابه، وصفاً تفصيلياً للممارسات والطقوس الدوناتية، توثيقاً لأبرز نقاط الخلاف بين الطرفين، لاسيما مسألة إعادة تعميد "المتخاذلين" (Traditores) التي شكّلت محور الصراع اللاهوتي ، رؤية عميقة للسياق التاريخي والاجتماعي الذي أحاط بهذا الصدام المذهبي.

\_\_القديس أوغسطين, Saint Augustin (354-430م)، يُعتبر أحد أبرز أعلام الفكر المسيحي في شمال أفريقيا، حيث شغل منصب أسقف هيبو ريجيوس لمدة خمسة وثلاثين عاماً، وخلال هذه الفترة قاد حملة فكرية

و دينية مضمينة ضد الحركة الدوناتيية. تمثلت إسهاماته الرئيسية في هذا المجال من خلال ثلاث محاور أساسية: أولاً، على الصعيد الحوارى حيث بذل جهوداً حثيثة لعقد مجالس حوارية ومناظرات مع القادة الدوناتييين، وإن لم تكفل كل محاولاته بالنجاح. ثانياً، على المستوى الفكرى حيث أَلّف العديد من الأعمال التي تصدت للفكر الدوناتي، أبرزها "نشيد ضد حزب دوناتوس" عام 392م، كما كان له تأثير في مجمع هيبو ريجيوس عام 393م. ثالثاً، على المستوى الكنسى حيث ظل متمسكاً بفكرة وحدة الكنيسة الكاثوليكية وسعى جاهداً لإعادة الدوناتييين إلى حظيرتها. أما كتابه الشهير "الاعترافات" فيقدم لنا رؤية ثاقبة عن سيرته الذاتية وتطور فكره اللاهوتى، ويكشف عن عمق الصراعات الدينية التي عاشتها المنطقة في تلك الحقبة. تظل كتابات أوغسطين وثائق تاريخية لا غنى عنها لفهم طبيعة الانقسامات الكنسية وتطور المسيحية في شمال أفريقيا خلال القرن الرابع الميلادى.

يُعدّ فيكتور دي فيتا, victor de Vita (440م؟) أحد أهم الشهود المعاصرين على الحقبة الوندالية في شمال أفريقيا، حيث ترك لنا مؤلفه القيم "تاريخ الاضطهاد الوندالى" (486م) وثيقة تاريخية فريدة تسلط الضوء على أحد أخطر الفترات التي مرت بها المسيحية في المنطقة. كمطران كاثوليكي لمدينة فيتا (المهدية الحالية)، عايش دي فيتا بنفسه موجات الاضطهاد التي شنّها الملك هونيريك (477-484م) ضد المسيحيين غير الأريوسيين، مما اضطره في النهاية إلى اللجوء إلى القسطنطينية عام 483م. يقدم كتابه، الذي كتبه في المنفى، رواية حية ومفصلة عن السياسات القمعية التي انتهجها الوندال الأريوسيون ضد كل من الكاثوليك والدوناتييين على حد سواء، مع تركيز خاص على مصير رجال الدين ومصادرة الممتلكات الكنسية. لا يقتصر قيمة هذا المصدر على كونه شهادة معاصرة فحسب، بل يمثل أيضاً وثيقة أساسية لفهم الديناميكيات الدينية والسياسية المعقدة التي طبعت العلاقة بين الوندال والسكان المحليين خلال القرن الخامس الميلادى، كما يكشف عن طبيعة الصراعات المذهبية بين الأريوسية والمسيحية التقليدية في شمال أفريقيا.

## 2- المصادر الرومانية : و نذكر منها :

تاسيتوس Tacituc (54-134م) و هو من أبرز مؤرخى العصر الإمبراطورى الرومانى، حيث تميّز بكتاباته التحليلية الناقدة التي اعتمدت على وثائق مجلس الشيوخ الرومانى (أكتا سيناتوس). تنتمي أعماله الرئيسية مثل "الحوليات" (Annales) التي تغطي حقبة ما بعد أغسطس حتى نيرون، و"التواريخ" (Historiae) التي تتناول الفترة من 69م حتى عهد دوميتيان، إلى أهم المصادر الكلاسيكية لدراسة التاريخ الرومانى. وقد استفدت بشكل خاص من تحليلاته الدقيقة لسياسات الأباطرة، حيث قدم وثائق ثمينة عن

اضطهادات المسيحيين في عهد نيرون وتراجانوس، مما يجعل كتاباته مرجعاً أساسياً لفهم الأجواء السياسية والاجتماعية لتلك الحقبة الحرجة من التاريخ الروماني.

—سويتونيوس, Suétionius (69-150م) هو مؤرخ روماني اشتهر بكتابه "حياة الاثني عشر قيصرًا" (Vitae Duodecem Caesarum)، الذي يُعد من أهم المصادر في الكتابة السير الذاتية. عمل كاتبًا في القصر الإمبراطوري، مما أتاح له الوصول إلى وثائق مهمة وساعده على تطوير منهجه في كتابة السير. يتناول الكتاب سير الأباطرة الرومان بدءًا من "يوليوس قيصر" (Divus Julius) حتى "دوميتيانوس" (Domitianus) عام 96م. وقد أفاد هذا المصدر في دراسة اضطهاد دوميتيانوس للمسيحيين، كما قدم معلومات قيمة عن تراجم عدد من الأباطرة.

—لاكتانتوس, Lactantius (250-325م) : هو مؤرخ مسيحي من أصول أفريقية، عاصر الإمبراطور "ديوكليتيانوس" (Diocletianus)، الذي عيّنه أستاذًا للآداب في نيقوميديا عام 290م. يُعدّ كتابه "حول موت المضطهدين" (De Mortibus Persecutorum /De la mort des persécuteurs) من أهم مؤلفاته، حيث اطلّعت على النسخة المترجمة إلى الفرنسية. اكتُشف هذا العمل في نهاية القرن السابع عشر، ونُشر لأول مرة عام 1679م. يتناول الكتاب الأوضاع الاقتصادية في المغرب القديم خلال القرن الرابع، خاصةً تفاقم الضرائب المفروضة على السكان، والتي تعكس الأزمات السياسية والاقتصادية للإمبراطورية الرومانية. كما يُوثّق الاضطهادات العنيفة التي تعرّض لها المسيحيون في عهد ديوكليتيانوس، مما يجعله مصدرًا قيمًا لدراسة تلك الفترة.

—يوسابيوس القيصري, Eusébe de Césarée (270-338م) الملقب بأبي التاريخ الكنسي يُعدّ من أبرز المؤرخين المسيحيين في العصور القديمة. وقد استفدت بشكل خاص من كتابه "التاريخ الكنسي" (Histoire Ecclésiastique) الذي يُعتبر مصدرًا أساسياً لفهم تطور الكنيسة المسيحية خلال أوائل القرن الرابع الميلادي. كما أفادني كتابه الآخر "حياة قسطنطين" (Histoire de la vie de Constantin) في تتبع مسيرة الإمبراطور قسطنطين العظيم، حيث يسلط الضوء على ظروف اعتناقه للمسيحية عام 313م، وسياسته الدينية تجاه القضايا الخلافية مثل الصراع الدوناتي الكاثوليكي. يُقدم هذا العمل رؤيةً شاملةً لتحولات الإمبراطورية الرومانية نحو المسيحية، مما يجعله مرجعاً لا غنى عنه لدراسة هذه الفترة المحورية.

أميانوس مارسيليانوس , Marcellinus Ammianus (320-390م) يتحدث في كتابه الرئيسي «Res Gestae» (الأعمال التاريخية) عن التاريخ الروماني المتأخر (القرن الرابع الميلادي)، مع تركيز خاص على الجوانب العسكرية والسياسية والاجتماعية، حيث عاش في فترة التحول الحاسمة من الوثنية إلى المسيحية، وظلّ مخلصاً لمعتقداته الوثنية رغم انتشار المسيحية. تميّز ب ملكة تاريخية فذة وقدرة نادرة على النقد والتحليل الموضوعي، مما جعله نموذجاً للروح العلمية في الكتابة التاريخية. ويتجلى منهجه المتزن في كتاباته عن الإمبراطور جوليان المرتد، الذي أثار الجدل بمحارنته للمسيحية وإحيائه الوثنية ومنحه الحرية الدينية، ورغم إعجاب أميان الواضح بشخصية جوليان، إلا أنه لم يقع في فخ المبالغة أو التحيز، بل حافظ على الحياد والنزاهة، فانتقده حينما استحق النقد، وسجّل إخفاقاته إلى جانب نجاحاته

3-المصادر العربية: وقد استعنت بعدد من النصوص الجغرافية أبرزها: "الروض المعطار في خبر الأقطار" لعبد المنعم الحميري (ت. /1495 م) يذكر بعض المعلومات عن بلاد المغرب القديم لكن لايعتبر مصدرًا مفصلاً عن المغرب القديم (ما قبل الإسلام أو الفترة المسيحية المبكرة)، لأنه كُتب في العصر الإسلامي المتأخر، وأغلب معلوماته تعتمد على مصادر سابقة. و"لسان العرب" لابن منظور(ت. /1311 م) استعنت به لشرح بعض المصطلحات ،أما "معجم البلدان" لياقوت الحموي ذكر مدناً رومانية مثل قرطاج وهيون. كما استخدمت "الكامل في التاريخ" لابن الأثير(ت./1233 م) ذكر في كتابه بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي و بعده . كما أن "نصوص ابن خلدون"، رغم تأخرها زمنياً عن الحقبة المدروسة، تضمنت إشارات تاريخية بالغة الأهمية عن عصر الحواريين ودورهم في نشر المسيحية في بلاد المغرب القديم.

#### ثانيا : المراجع الثانوية

1-Monceaux (P.), Histoire Littéraire de l'Afrique chrétienne depuis les origines Jusqu'a l'invasion Vandale, Ernest Leroux, Paris, 7 tomes, 1901-1923.

كتاب (التاريخ الأدبي لأفريقيا المسيحية من الأصول حتى الغزو الوندالي) للمؤرخ بول مونسو هو عمل ضخم ومرجعي يتألف من 7 مجلدات، صدر بين عامي 1901 و1923. يُعتبر من أهم الدراسات الغربية التي تتناول

تاريخ المسيحية في شمال أفريقيا خلال الفترة الرومانية، قبل الغزو الوندالي (القرن 5 الميلادي). ومن الأجزاء التي اطلعت عليها الجزء الرابع الذي خصصه للدوناتية :

Monceaux (P.), le Donatisme, t. IV, 1912

والجزء السادس الذي تناول فيه الأدب الدوناتي في زمن "أوغسطين"

.Monceaux (P.), la littérature donatiste au temps de Saint-Augustin, t. VI, 1922

والجزء السابع الذي عالج مواقف القديس "أوغسطين" من الدوناتية.

Saint-Augustin le Donatiste. t. VII, 1923.

2-Mesnage, (J.P.), l'Afrique chrétienne, Évêchés et ruines antiques, d'après les manuscrits de Mgr.Toulote et les découvertes Archéologiques les plus récentes, Paris, Ernest Leroux, 1912.

كتاب المسيحية في افريقيا : الاسسقفيات و الآثار القديمة لجوزيف ميسناج بالتعاون مع المخطوطات المونسنيور تولوت و الأكتشافات الأثرية الحديثة، الناشر: لورو، باريس، 1912. يُعد هذا الكتاب مرجعاً أساسياً في دراسة التنظيم الكنسي والآثار المسيحية في شمال أفريقيا خلال العصر الروماني والبيزنطي، اعتمدت عليه لدراسة الجغرافية التاريخية للمسيحية في شمال إفريقيا خلال العصور القديمة ثلاثة محاور رئيسية أولاً: تحديد المواقع الكنسية والأثرية، ثانياً: الأبرشيات والتنظيم الكنسي، ثالثاً: المعجم الجغرافي التاريخي.

-3-Brisson J. P.), Autonomisme et Christianisme dans l'Afrique Romaine : de Septime sévère à l'invasion Vandale, Paris, édit. E. de Boccard, 1958

يدرس هذا الكتاب التفاعل بين الهوية المحلية الأفريقية والمسيحية في شمال إفريقيا خلال الفترة الرومانية (من القرن الثاني إلى القرن الخامس الميلادي)، مع التركيز على: الصراع بين التقاليد المحلية (البربرية-البونيقية) والمسيحية كدين جديد. دور العوامل السياسية والاجتماعية في تشكيل المسيحية الأفريقية. الفترة الزمنية المغطاة : من حكم الإمبراطور سيبتيموس سيفيروس (193-211 م) - وهو من أصول أفريقية (ليبيا/لبدة الكبرى) - حتى الغزو الوندالي (429 م)

4-Martrove (F.), « une tentative de révolution sociale en Afrique, Donatistes et circoncillions », R.Q.H., T.32, 1904, (pp.353-4)

يدرس المقال الحركة الدوناتية والحركة القيرقندية (Circoncillions) في شمال إفريقيا الرومانية (القرن 4-5 الميلادي)، وي طرحها ك أول ثورة اجتماعية مسيحية ضد النظام الروماني والكنيسة الكاثوليكية.

### منهجية البحث:

تعتمد هذه الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي لرصد تطور المسيحية في المغرب القديم، كما تستعين بالمنهج المقارن لموازنة النصوص الدينية المسيحية (كالكتاب المقدس وكتابات الآباء) مع الشواهد الأثرية والنقوش والمصادر التاريخية التي تعكس الممارسات الدينية الفعلية.

### خطة البحث :

يتمحور الفصل الأول حول دراسة الأسس العقائدية للمسيحية ومصادرها الرئيسية، وينقسم إلى ثلاثة محاور أساسية: أولاً، التعريف بالمصدر والعقيدة حيث نتناول المفهوم اللاهوتي للعقيدة المسيحية وطبيعة مصادرها التأسيسية. ثانياً، نشأة المسيحية وتطورها عبر تحليل الظروف التاريخية لظهور الديانة المسيحية ومراحل انتشارها الأولى، مع التركيز على العوامل الاجتماعية والسياسية التي أثرت في تطورها. ثالثاً، الكتاب المقدس كمصدر مركزي للعقيدة المسيحية، حيث نبحث في تكوينه، وهيكله، وأهميته كمرجعية دينية، مع إبراز الفروق بين العهدين القديم والجديد. يُقدّم هذا الفصل الإطار النظري الأساسي لفهم المنظومة العقائدية المسيحية التي سُدّرس تجلياتها في المغرب القديم في الفصول اللاحقة.

تناولت في الفصل الثاني دراسة حول التفاعل بين المبادئ المسيحية والتطبيق الواقعي في المغرب القديم من خلال أربعة محاور رئيسية: أولاً، نشأة المسيحية في المنطقة وتحليل الظروف التاريخية لظهورها. ثانياً، طرق ومسارات دخول المسيحية إلى شمال أفريقيا سواء عبر التجار أو الجيش الروماني أو المبشرين. ثالثاً، العوامل المساعدة على الانتشار مثل البيئة الحضرية واللغة المشتركة ودور النخب المحلية. رابعاً، الصراعات والتحديات التي واجهتها المسيحية سواء على المستوى الداخلي (الانشقاقات المذهبية) أو الخارجي (الاضطهاد الرومانية). يكشف هذا الفصل عن التفاعل الديناميكي بين المثالية الإنجيلية والواقع الاجتماعي والسياسي للمغرب القديم.

ركزت في الفصل الثالث و الأخير على تحليل ظاهرة الانشقاق الكنسي عبر أربع مراحل زمنية رئيسية: أولاً،  
\*\*مرحلة النشأة والظهور (305-316م)\*\* التي شهدت بدايات التمايز المذهبي وتكوّن الهوية الدوناتيية. ثانياً،  
\*\*مرحلة الاضطهاد والقمع (317-392م)\*\* حيث تصاعدت المواجهات بين الكنيسة الرسمية والحركة المنشقة.  
ثالثاً، \*\*مرحلة الدرورة زمن أوغسطين (392-430م)\*\* التي تميزت بالحوارات اللاهوتية والمحاولات الإصلاحية.  
رابعاً، \*\*مرحلة الأفول والزوال (430-533م)\*\* مع تراجع الحركة تدريجياً تحت ضغوط الوندال ثم البيزنطيين.  
يقدم هذا الفصل قراءة تحليلية لأهم التحولات التاريخية التي شكلت مسار الصراع المذهبي في المنطقة.

### صعوبات البحث :

- صعوبة التعامل مع النصوص اللاتينية واليونانية القديمة.
- مشاكل الترجمة الدقيقة للمصطلحات اللاهوتية المتخصصة.
- صعوبة فصل الحقائق التاريخية عن الدعاية الكنسية.
- السياق التاريخي المعقد بتشابك العوامل الدينية مع السياسية والاجتماعية.
- قلة الدراسات الحديثة المتخصصة في هذا المجال.
- اعتماد معظم الأبحاث على إطار نظري قديم يحتاج لإعادة نظر.

# الفصل الأول:

## الإطار المفاهيمي والتاريخي للعتقة

### المسحقة ومصادرها المقدسة

أولاً: تعريف المصدر و العتقة

• 1-تعريف المصدر

• 2-تعريف العتقة

ثانياً: نشأة و تطور المسحقة

• 1- مفهوم المسحقة

• 2- ظهورها

• 1-2-تبشير مريم بعيسى (عليه السلام)

• 2-2-ميلاد عيسى (عليه السلام)

• 2-3-معجرات عيسى (عليه السلام)

ثالثاً: الكتاب المقدس و العهد الجديد

• 1-تعريف الكتاب المقدس

• 2-العهد الجديد

• 1-2-تعريف العهد الجديد

• 2-2-أقسام العهد الجديد

أولاً: تعريف المصدر و العقيدة:

تمهيد:

بين يدي هذا البحث، وقبل الغوص في أعماق المصادر التأسيسية للعقيدة المسيحية، يحسن بنا أن نضع علامات استرشادية تمهد الطريق لفهم أعمق.

### 1- تعريف المصدر:

كلمة "صَدَرَ" في اللغة العربية: هي كلمة مشتقة من الجذر "ص د ر"، الذي يحمل معاني البداية، الخروج، والاستمداد، ويُستخدم في عدة معاني منها:

المعنى الأساسي لكلمة "صَدَرَ" يدور حو

ل الخروج والابتداء، حيث يُستخدم هذا الفعل في عدة سياقات تدل على معاني مختلفة مرتبطة بهذا الأصل. فمثلاً، يُقال: "صَدَرَ الأَمْرُ" بمعنى وَقَعَ وتَقَرَّرَ، كما في جملة "صَدَرَ القرارُ عن المحكمة". كما يمكن أن يُقال: "صَدَرَ عن المكان" أي خَرَجَ منه أو وَرَدَ عنه، مثل "صَدَرَ الماءُ من العين". بالإضافة إلى ذلك، يُستخدم الفعل "صَدَرَ" ليدل على الاستمداد أو التأثير، كما في عبارة "يَصْدُرُ كلامه عن علم"<sup>1</sup>. ومن الجدير بالذكر أن المصْدَرَ هو أصل الكلمة التي تُشتق منها الأفعال<sup>2</sup>، مثل "كِتَابَةٌ" التي يُصَدَّرُ منها الفعل "كَتَبَ"، أو "قِرَاءَةٌ" التي يُشتق منها الفعل "قَرَأَ".

يُعدُّ المصْدَرُ (بفتح الدال) من الألفاظ التي تحمل دلالات عميقة في اللغة العربية، حيث ورد في الحديث النبوي: "يَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا، وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى"<sup>3</sup>، أي أنهم يبدأون من منطلق واحد، لكنهم ينتهون إلى نتائج مختلفة. وفي النحو والصرف، يُشير المصْدَرُ إلى الأصل الذي

<sup>1</sup> - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 1425هـ/2004م، كلمة "الصدر"، ص 509

<sup>2</sup> - لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تهذيب اللغة، تحق: أحمد عبد العليم البردوني، لا.ط، دار المصرية، مصر، د.ت، ج12، ص135

<sup>3</sup> - محمد مرتضى الحسني الزبيدي، تاج العروس من جوهر القاموس، ت مصطفى حجازي، لا.ط، مطبعة حكومة الكويت، 1393هـ/1973م، ج12، ص293..

تُشتق منه الأفعال، مثل "كِتَابَةٌ" بالنسبة للفعل "كَتَبَ". أما لفظ الصَّدْرُ (بسكون الدال) فيعني المقدمة أو أعلى الشيء، كقولنا "صَدْرُ الجبل" أي قمته، أو "صَدْرُ الأمر"<sup>1</sup> أي بدايته. يُطلق مصطلح "المصدر" على كل ما يصدر عنه الشيء أو ينبثق من<sup>2</sup>، سواء أكان أمرًا ماديًا أم معنويًا. ففي المجال الإداري مثلاً، يُستخدم تعبير "الصادر والوارد" للإشارة إلى الوثائق أو المراسلات التي تُخْرَج من جهة معينة أو تُرَد إليها. أما في المجال الديني والبحثي، فإن "المصادر" تُشير إلى النصوص الأساسية التي تستند إليها المعتقدات والتشريعات. وفي هذه الدراسة، يُقصد بـ"المصادر المسيحية" تلك الكتب والوثائق المقدسة التي يعتمد عليها المسيحيون في صياغة عقائدهم وتحديد شرائعهم، مثل الكتاب المقدس (الإنجيل)، وقرارات المجامع الكنسية، وكتابات الآباء المؤسسين. فهذه المصادر تُعتبر المرجعية الأساسية التي تُستقى منها التعاليم الدينية، وتُفسر من خلالها المفاهيم اللاهوتية في المسيحية.

### 2-تعريف العقيدة :

كلمة "عقيدة" في اللغة العربية مشتقة من الجذر "ع ق د"، الذي يحمل معنى الشدّ والربط بقوة. وهذا ما يوضحه ابن فارس في معجمه مقاييس اللغة بقوله : "عقد العين والقاء والدال أصل واحد يدل على شد وشدة وثوق، وإليه ترجع فروع الباب كلها ومن ذلك، وَعَقْدُ البناء"، والجمع أَعْقَادٌ وَعَقُودٌ، ويقال عَقَدَ قلبه على كذا، فلا ينزع عنه و إعتقد الشيء"<sup>3</sup> يُشير هذا القول إلى معاني متعددة تدور حول فكرة "الربط القوي والثبات". فـ"عَقْدُ البناء" يعني ربط أجزائه بقوة ومتانة، مما يُضفي عليه متانةً وثباتاً. أما "عَقَدَ قلبه على شيء"، فيعني التمسك به بعزيمة راسخة وإصرارٍ لا يتزعزع ويأتي "اعتقاد الشيء" ليدل على الإيمان الراسخ به دون شك أو تردد، مما يُظهر مدى قوة التصديق والثقة و بمعنى آخر: "العقيدة" تأتي من معنى "العقد" (الربط المحكم)، فكان

<sup>1</sup> - لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى، المرجع السابق، 133.

<sup>2</sup> - مجمع اللغة العربية، المرجع السابق، 109-110.

<sup>3</sup> - أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحق: عبد السلام محمد هارون،

المعتقد "معتقودٌ في القلب" بقوة، فلا يُنزع بسهولة. وهذا ينطبق على اليقين الديني أو الفكري الذي لا يتزعزع.

وعَقْدٌ: يعقد عقدان صف رجله فوثب من غير عدو<sup>1</sup>، وعقدت الحبل عقداً وعقدت اليمين وعقدتها بالتشديد تؤكد وعاقدته على كذا، وعقدته عليه معنى عاهدته قال تعالى: «أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» [المائدة: 01]، ومعقد الشيء مثل مجلس موضع عقده وعقدة النكاح وغيره إحكامه وإبرامه، والعقد بالكسرة القلادة والجمع عقود مثل حمل حمل، واعتقدت كذا عقدت عليه القلب والضمير حتى قيل العقيدة ما يدين الإنسان به وله عقيدة حسنة وسالمة من الشك<sup>2</sup>. و المقصود من هذا:

و المقصود من هذا: يُجمل مصطلح "العقد" في اللغة العربية دلالاتٍ متعددة تتراوح بين المادي والمعنوي، مما يعكس ثراء هذه اللغة ودقة تعبيرها. فمن الناحية المادية، يُشير العقد إلى الربط المحكم، كـ"عقد الحبل" (ربطه بعقدة متينة)، أو "العقد" (القلادة المحكمة) التي تجمع حباتها في تناسق، وجمعها "عُقُود". أما في الجانب المعنوي، فيأخذ "العقد" معنى الالتزام والعهد، مثل "عقد اليمين" (تأكيدا وتوثيقها)، و"المعاقدة (المعاهدة والتعاهد)، كما في قوله تعالى: «أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» [المائدة: 1]، وكذلك "عقدة النكاح" التي تُمثل إبرام عقد الزواج. يصل مدلول "العقد" إلى المجال الفكري والديني، حيث "الاعتقاد" يعني التصديق الجازم والإيمان الراسخ دون شك، فـ"العقيدة" هي ما يدين به الإنسان، سواء كانت صحيحةً أو مشوبةً بالخلل. كما أن العقد يقابل الحل، سواء في الأمور الملموسة (كحل العقدة في الحبل) أو المعنوية (كحل العهد أو زوال اليقين)..

<sup>1</sup> -"مادة عقد" دار الفكر، 1399 هـ / 1979م، ج4، ص86.

<sup>2</sup> - أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير في غريب شرح الكبير، "مادة عقد"، ص160.

العقيدة هي الإيمان الراسخ الذي يعتنقه الإنسان في علاقته بربه، وجمعها عقائد، وهي تشمل جميع المبادئ الدينية التي يجب على المسلم أن يؤمن بها إيماناً جازماً بقلبه، فتسكن إليها نفسه ويصبح لديها يقيناً ثابتاً لا يخالطه شك أو تردد. فإذا دخلها ريبة أو تردد أصبحت ظناً وليست عقيدة<sup>1</sup>. قال تعالى: « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » [البقرة: 02]. أما في الاصطلاح العام، فالعقيدة هي حكمٌ نهائي لا يقبل التشكيك، دون اشتراط أن يكون مبنياً على أساس عقلي أو منطقي بالضرورة<sup>2</sup> وفي المعنى المشهور، العقيدة هي الحكم الجازم الذي لا يتزعزع أمام الشكوك، على عكس اليقين الذي قد يكون قائماً على أدلة عقلية أو براهين واضحة<sup>3</sup>. بناءً على ذلك، فإن العقيدة ليست أعمالاً عملية، بل هي حقائق دينية وعلمية يجب على المسلم أن يؤمن بها في قلبه، استناداً إلى ما أخبر به الله تعالى في كتابه أو ما جاء في سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

والعقيدة في الدين تُعنى بالجوانب الاعتقادية دون العملية، كالإيمان بوجود الله، وصدق رسالة الرسل، وجمعها عقائد. وهي مبادئ سامية يُضحّي الإنسان من أجلها بالمال والنفس؛ لأنها في نظره أثن من كل متاع الدنيا<sup>4</sup> و قد ورد في كتاب عقيدة المؤمن : لعقيدة هي جملة من الحقائق اليقينية الثابتة، التي تُدرك بالبداهة والعقل والوحي والفترة السليمة، فيؤمن بها الإنسان إيماناً راسخاً، ويُتبرّ بها بكل جوارحه، مُوقناً بصحتها، ومتيقناً من وجودها، لا يتطرق إلى ذهنه احتمال بطلانها أو مخالفتها للحقيقة أبداً<sup>5</sup>.

1

<sup>1</sup> - ابن منظور، المصدر السابق، ج3، ص413.

<sup>2</sup> - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، لا.ط، دار التوفيق، بيروت، د.ت، ج1، ص105.

<sup>3</sup> - أبو البقاء الحنفي، الكليات في المصطلحات والفروق اللغوية، لا.ط، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت، ص151.

<sup>4</sup> - محمود شيت خطاب، بين العقيدة والقيادة، لا.ط، دار القلم، دمشق، 1419هـ/ 1998م، ص33

<sup>5</sup> - أبو بكر جابر الجزائري، عقيدة المؤمن، ط4، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، 1419/1998م، ص23.

تكمن أهمية العقيدة في كونها حاجةً فطريةً ملحةً في حياة الإنسان، فهو بطبيعته لا يستغني عن الإيمان والتدين، إذ يظل القلبُ مشدودًا إلى الاعتقاد والعبادة. فالدين ضرورةٌ إنسانيةٌ لا غنى عنها، فلا يوجد فردٌ أو أمةٌ إلا ولها عقيدةٌ تُؤمن به<sup>11</sup>، وهذا ما أكّده القرآن الكريم في قوله تعالى: «وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ» [فاطر: 24]. وتؤكد آية الميثاق هذه الحقيقة الفطرية، حيث أخذ الله تعالى من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، فاعترفوا بربوبيته سبحانه، فقال تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ۗ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ ۗ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ» [الأعراف: 172-173] وجاءت الأحاديث النبوية مفسرة لهذه الآية ومؤكدة لمعناها<sup>2</sup> ومن البراهين الواضحة على أن الله تعالى خلق البشر بفطرة تقوم على معرفته وعبادته، حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يُولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟" وهذا يؤكد أن الخروج عن المعتقدات الدينية الصحيحة يأتي نتيجة سوء التربية والبيئة، بينما الأصل في الإنسان هو التوحيد<sup>3</sup>.

ويدعم هذه الحقيقة الفيلسوف هنري برجسون بقوله: "لقد وُجدت وتوجد مجتمعات بعلم وفنون وفلسفات، ولكن لم توجد أبدًا جماعة بلا دين". مما يدل على أن التدين غريزةٌ موجودة بالفطرة في النفس البشرية<sup>4</sup> وباختصار، فإن العقائد والأديان هي بمثابة القلب للجسد، لا تقوم حياة الأمم بدونها. فمن يدرس تاريخ الأديان كأنما يدرس تاريخ الشعوب وحضاراتها، لأن العقيدة هي المحرك الأساسي لتطور و نهضة الأمم<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - سيد سابق، العقائد الإسلامية، لا.ط، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ص8.

<sup>2</sup> - محمد عبدالله دراز، الدين، بحوث ممهدة لدراسة الأديان، لا.ط، دار القلم، الكويت، د.ت، ص20

<sup>3</sup> - البخاري، كتاب الجنائز، باب إذ أسلم الصبي فمات ...، 1359، لا.ط، لا.ن، د.ت، ج2، ص92.

<sup>4</sup> - محمد عبدالله دراز، المرجع السابق، ص83.

<sup>5</sup> - المرجع نفسه، ص102.

## ثانياً: نشأة و تطور المسيحية:

تُعد المسيحية الديانة السماوية التوحيدية الثالثة من الناحية التاريخية، حيث جاءت بعد الديانة الحنيفية واليهودية. وقد نشأت هذه الديانة في قلب الشرق الأدنى القديم، وتحديداً في أرض فلسطين خلال عهد السيد المسيح عليه السلام. وبعد ظهورها، بدأت المسيحية تزاخم اليهودية في نطاق بلاد الشام، قبل أن تمتد وتنتشر نحو أرجاء المغرب القديم. سألحول في هذا الجزء تحديد المفهوم الجوهري للمسيحية، مستعرضاً تطورها التاريخي من خلال تتبُّع مسار مبادئها الأساسية وطقوسها التعبديّة، ودراسة كتبها المقدسة.

### 1- مفهوم المسيحية:

يأتي الفعل "مَسَحَ" بمعنى إزالة الأثر وإمرار اليد على الشيء، فيقال في الدعاء للمريض: "مَسَحَ اللهُ ما بِكَ مِنْ عِلَّةٍ" أي أزالها وشفاك. كما يُستعمل في سياق الدهن فيقال: "مَسَحَهُ بِالذُّهْنِ" أي أَمَرَ يَدَهُ عَلَيْهِ بِهِ.<sup>1</sup> أما المصدر "المَسْحُ" فيدل على عملية إمرار اليد على الشيء، ويُشتق منه "التَّمَسُّحُ" الذي يعني القول الحسن اللين. وتأتي صيغة "المَمْسُوحُ" للدلالة على ما يُمسح بالدهن أو بالبركة أو حتى بالشؤم. كما يُطلق على كثير السياحة لفظ "المَسِيح"<sup>2</sup>.

يورد "ابن منظور" في لسان العرب<sup>3</sup> أن لفظ "المسيح" يُطلق على الصديق، وقد سُمي السيد عيسى عليه السلام بهذا الاسم لصدقه. بينما تذكر الموسوعة اللاهوتية أن تسميته بالمسيح تعود

<sup>1</sup> - الزبيدي، تاج العروس، دار صادر، بيروت، د. ت، ج2، ص 226.

<sup>2</sup> - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار العلم للجميع، بيروت، د. ت، ج1، ص 249، الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، 1986م، ص 260.

<sup>3</sup> - لسان العرب، ج2، دار صادر، بيروت، د. ت، ص 594.

لأسباب ثلاثة: أولاً لأنه كان يسوح في الأرض لا يستقر في مكان، وثانياً لأنه مُسح بالبركة الإلهية، وثالثاً لأن المسيح في اللغة هو الذي يسح في الأرض ويقطعها<sup>1</sup>.

يذكر الإمام "الشهرستاني"<sup>2</sup> أن السيد المسيح عليه السلام كان يسح بيده المباركة على المرضى - كالأعمى والأبرص - فيشفئهم بإذن الله تعالى. وقد وردت هذه الصفة في القرآن الكريم بصيغة الفعل "مسح" التي تعكس هذه المعجزة الإلهية. أما في الكتاب المقدس (التوراة)، فقد ورد الاسم بصيغة "مشياحا" العبرية التي عُرِّيت إلى "مسيح". وتجدر الإشارة إلى أن هذه الظاهرة اللغوية ليست فريدة، إذ نجد أن اسم النبي موسى عليه السلام يعود لأصل عبري هو "موشيه"<sup>3</sup>.

يُذكر في المصادر الدينية والتاريخية أن تسمية "المسيح" تحمل دلالات طقسية عميقة، حيث يشير بعض المفسرين إلى أنه سُمي بذلك لكونه مُمسحاً بالزيت المقدس (دهن الكهنوت)، ممتلئاً بروح القداسة منذ الولادة، حائزاً على مسحة الملوكية والنبوة. ويستند هذا التفسير إلى روايات تفيد بأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن الإلهي وُصف بأنه ممسوح الرأس (علامة التكريس) و خضع لطقس المسح بالزيت عند ولادته<sup>4</sup>. كما تؤكد النصوص القرآنية هذه المكانة، حيث يقول تعالى: «وَجَعَلْنِي مُبَارِكًا أَيَّنَّ مَا كُنْتُ» [سورة مريم: 05]، مما يشير إلى أن جبريل عليه السلام قد مسحه بجناحيه عند ولادته<sup>5</sup>.

المسيحية هي الديانة السماوية التوحيدية التي أنزلها الله تعالى على عبده ورسوله عيسى<sup>6</sup> بن مريم عليه السلام. وقد عُرِّفت في التراث العربي الإسلامي باسم "النصرانية"، وهي تسمية مشتقة من

<sup>1</sup> - M. Bergier (l'abbé), Encyclopédie Méthodique Théologie, t. 2, Paris, Panckoucke, 1789, p.768.

<sup>2</sup> - ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر، دار لجل، بيروت، 1985م، ج1، ص220.

<sup>3</sup> - رفائيل نخلة اليسوعي، غرائب اللغة العربية، ط3، دار المشرق، بيروت، 1984م، ص206.

<sup>4</sup> - أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، تع. محمود ليوب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ج1، ص62.

<sup>5</sup> - المقرئزي، الخطط المقرئزية، تح. خليل المنصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ج2، ص482.

<sup>6</sup> - عيسى، "Jésus-Christ" ولد في بيت لحم سنة أربع (4) ق.م. على الأرجح، عاش في بلدة الناصرة الى سن الثلاثين لذا سمي الناصري، هو عبد الله ورسوله وكلمة ألقاها إلى مريم وروح منه.

## الفصل الأول: الإطار المفاهيمي والتاريخي للعقيدة المسيحية ومصادرها المقدسة

مدينة الناصرة<sup>1</sup>\* - الموطن الذي نشأ فيه السيد المسيح وقضى فيه سنوات حياته الأولى حتى بلوغه الثلاثين من عمره<sup>2</sup>.

يُعد مصطلح "النصرانية" من المصطلحات ذات الأبعاد التاريخية واللغوية العميقة في دراسة المسيحية. فمن الناحية التاريخية، يرى "الشهرستاني"<sup>3</sup> أن هذه التسمية تعود إلى أنصار السيد المسيح عيسى عليه السلام، الذين آمنوا بنبوته واعتنقوا عقيدة الأقانيم الثلاثة<sup>4</sup> (الأب والابن والروح القدس)، معتقدين أنه المبعوث الحق بعد النبي موسى عليه السلام والمبشر به في التوراة. أما من الناحية اللغوية، فيشير الأب "رفائيل نخلة اليسوعي" إلى الأصل السرياني لهذه الكلمة، حيث تعود إلى مفردتي "نصراني-Nosroyo" و"نصرايا-Nasraya" في اللغة السريانية<sup>5</sup>، وهي التسميات التي استخدمها اليهود للإشارة إلى أتباع الديانة المسيحية<sup>6</sup>.

أما "المقريري" فيرى أن تسمية "النصاري" تعود إلى قرية الناصرة، ويشير إلى أن كلمة "نصران" من أبنية المبالغة في اللغة، بمعنى أن هذا الدين يقوم على النصر والتأييد<sup>7</sup>. وقد وردت لفظة "النصاري" في القرآن الكريم في عدة مواضع، منها قوله تعالى: « فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ »

<sup>1</sup>- الناصرة، قرية الشام بدنها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا، وقد ذكر الإنجيل يسوع بالنصاري كثيرا لأنه نزل أرضا يقال لها ناصرة "Nazareth"، ياقوت الحموي، معجم البلدان، تح. عبد العزيز الجندي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، ج5، ص ص 292-291، ابن منظور،

المصدر السابق، ج5، ص 212، البهوتي، كشاف القناع عن متن الإقناع، تح. هلال

<sup>2</sup>- أبو الفداء، المصدر السابق، ص 62.

<sup>3</sup>- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، المرجع السابق، ص 220.

<sup>4</sup>- الأقانيم، كلمة سريانية الأصل مفردتها أقنوم Qnolno، وهو الشخص الكائن المستقل بذاته، والأقانيم الثلاثة هي الأب، الابن، والروح القدس، رفائيل نخلة اليسوعي، المرجع السابق، ص 173، محمد أحمد الحاج، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ط/، دار القلم، دمشق، 1992، ص 209.

<sup>5</sup>- السريانية، Syriac لغة الأراميين من الفصيلة الفرعية السامية للغات الأفرو-آسيوية، وهي من اللغات الشمالية الغربية، وصارت اللغة الرسمية منذ حوالي 500 ق.م في كل بلاد الشرق الأدنى القديم، محمود محمد محفوظ، الموسوعة العربية الميسرة، دار الجيل، بيروت، 2001م، ج3، ص 1400.

<sup>6</sup>- رفائيل نخلة اليسوعي، المرجع السابق، ص 207.

<sup>7</sup>- المقريري، الخطط المقريرية، المرجع السابق، ص 482.

[سورة آل عمران: الآية: 52] ، وفي سورة أخرى يقول سبحانه وتعالى: « (يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ » [سورة الصف: الآية: 14] وبهذا صارت تسمية "النصارى" مصطلحاً خاصاً يُراد به أتباع الديانة المسيحية في التراث الإسلامي.

تعددت آراء علماء اللغة حول أصل كلمة "النصارى"، حيث يذهب "الزبيدي"<sup>1</sup> إلى أنها مشتقة من اسم قرية الناصرة أو "نصران" التي ينسب إليها المسيح عيسى عليه السلام، ومنها اشتق لقبه "الناصري" (Nazaréen)، فيما أصبح جمعها "النصارى" مصطلحاً يدل على أتباع المسيح وأئمة<sup>2</sup>.

يمكن تلخيص آراء المؤرخين والمفسرين وعلماء اللغة حول مفهوم النصرانية بالقول إنها تنسب إلى مدينة الناصرة التي عاش فيها المسيح حتى بلوغه الثلاثين من عمره، ومنها انطلق بدعوته. كما أطلقت هذه التسمية على أتباعه الذين آمنوا به وناصروه. أما فيما يخص التسميات التي عرف بها المسيحيون الأوائل، فقد استخدموا عدة مصطلحات منها لفظة "التلاميذ" (Disciples) والتي تعني في أصلها اللاتيني (Discipulus) أي تلاميذ المسيح<sup>3</sup>. أما مصطلح "الحواريون"<sup>4</sup> الذي

<sup>1</sup> - تاج العروس، مادة (نصر). ج3، ص 568.

<sup>2</sup> - M. Bergier (l'abbé), Encyclopédie Méthodique Théologie, Op.cit., p.742-

<sup>3</sup> - Gaffiot (F.), Dictionnaire Abrégé Latin Français, Hachette, Paris, 1936, p.200.-

<sup>4</sup> - الحواريون، "Apostolus" باللغة اللاتينية، والحواريون جمع حواري وهي كلمة آرامية الأصل "Héworoto"

وتعني دقيق أبيض. وهم تلك الجماعة التي آمنت بعيسى عليه السلام ووقفت إلى جانبه لنشر دعوته في بني إسرائيل، وهم اثنا عشر حوارياً تعلمدوا على يد المسيح عليه السلام، وهم: شمعون الصفا أو "بطرس"، شمعون القناني، أندرواس، يعقوب بن زبدي، يعقوب بن حلفي، يهوذا الإسخريوطي، فيلبس، برثولماوس، يوحنا، لوقا، توما، متى وهم رسل المسيح الذين سألوهم نزول المائدة. ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر، دار الجبل، بيروت، 1985م، ج1، ص 120، مرقس: 16-19: 3.

يشير إلى الذين اعتبروا المسيح معلمهم الأول<sup>1</sup> هذه التسميات تعكس طبيعة العلاقة بين المسيح وأتباعه في المراحل الأولى للديانة المسيحية.

وقد جاء ذكر الحواريين في القرآن الكريم، في قوله تعالى: « فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » [سورة آل عمران: الآية 52]، وقال تعالى: « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يُعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقْوُونَ اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » [سورة المائدة، الأيتان 112-111]

يذكر "ابن منظور" أن مصطلح "الحواري" يُشتق من البياض، ويُطلق الحواريون على صفوة الأنبياء وأنصار عيسى (عليه السلام)، مشيراً إلى أنهم كانوا يعملون في القسارة والملاحة وبلغ عددهم اثني عشر رجلاً.<sup>2</sup> أما جماعة النصارى الأوائل فقد عُرفوا بعدة تسميات منها "الإخوة" أو "الإخوة في الله"<sup>3</sup>، حيث جمعتهم العقيدة فأصبحوا إخوة في الدين، ثم تطورت الكلمة لتدل على رجل الدين. كما ظهرت تسميات أخرى مثل: "القدسين"<sup>4</sup> Les Saints، "المؤمنين"<sup>5</sup>، "المختارين"، "الأصفياء"، "الفقراء"، و"الأصدقاء"<sup>6</sup>.

يُلاحظ أن القرآن الكريم لم يذكر مصطلحات مثل "عيسوي" أو "مسيحي" أو "يسوع"، بل استخدم مجموعة أخرى من الألفاظ الدالة على أتباع المسيح عليه السلام، حيث وردت كلمات مثل

<sup>1</sup> - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م، ج6، ص584.

<sup>2</sup> - ابن منظور، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، 2000م، ج4، ص265.

<sup>3</sup> - تذكر الأناجيل أحياناً لفظ "إخوة" أو "أخوات" للمسيح، والكلمتان يونانيتان هما: "Adelphoi", "Odelphai" وتستخدمان للتعبير عن إخوة أو أخوات بالمعنى البيولوجي، وأصلهما سامي بمعنى أقرباء، وربما كان المقصود بهما أولاد العممة أو الخالة، متى: 50-46، 13: 6-1، 6: مويرس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2004م، ص108.

<sup>4</sup> - أعمال الرسل: 16، 1.

<sup>5</sup> - رسالة بولس الرسول، الرسالة الأولى إلى أهل كورنتوس، 1،

<sup>6</sup> - أعمال الرسل، 14، 5.

"نصارى" و"نصراني" و"نصرانية" و"أنصاري" في عدة مواضع من القرآن الكريم<sup>1</sup>. كما جاء في كتاب الله تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » [سورة البقرة، الآية 62]، وقال تعالى: « وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » [سورة المائدة، الآية 14] وقال عز وجل: « وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ » [سورة التوبة، الآية 30].

يُظهر استعمال القرآن الكريم لمصطلحات مثل "نصارى" و"نصراني" و"أنصاري" تمييزاً واضحاً لأتباع المسيح عن اليهود وأهل الديانات الأخرى. وقد ورد ذكر المسيح في القرآن تارة باسم "عيسى" وأخرى بـ"المسيح" عبر ثلاث عشرة سورة<sup>2</sup>. أما فيما يخص أماكن العبادة والمؤسسات الدينية للنصارى، فقد عُرفت بعدة أسماء "الكنيس"، "الكنيسة" و"الإكليزيا"<sup>3</sup> (Ecclésia) باليونانية، وهي كلمة تدل على "مجمع" العبادة المشترك بين اليهود والنصارى أو المكان الذي يجتمع فيه المواطنون<sup>4</sup>. تشير الدراسات اللغوية إلى أن مصطلح "كنيسة" يعود بأصوله إلى اللغة الأرامية، حيث تُشتق من كلمتي "كنوشتو" (Knouchto) و"كنشت" (Knecht) في السريانية، والتي تحمل معاني "اجتماع" و"مجمع"، كما تُطلق خصوصاً على معبد اليهود<sup>5</sup>. ويلاحظ الباحثون تمايزاً واضحاً في المصادر العربية بين:"الكنيس": كمصطلح يُطلق على مكان عبادة اليهود أما "الكنيسة": كمصطلح يُطلق على مكان عبادة النصارى، غير أن بعض علماء اللغة، ومنهم الأب "رفائيل نخلة اليسوعي"، يذهبون إلى اعتبار "الكنيسة" مكاناً لعبادة اليهود، مما يشير إلى وجود خلط في الدقة المصطلحية بين "الكنيس" و"الكنيسة".

<sup>1</sup> - جواد علي، المرجع السابق، ج6، ص 585.

<sup>2</sup> - سورة البقرة، الآيات 140، 135، 120، 113، 111، سورة آل عمران: الأيتان 67، 52، سورة المائدة: الآيات 82

<sup>3</sup> - الإكليزيا، (Ecclésia)، لفظ يوناني كان يطلق على الجمعية الشعبية في حكومة البلديات، وقد أطلقه مسيحيون على تلك الحجرات الخاصة أو المعابد الصغيرة التي كانوا يجتمعون فيها على غرار المجمع اليهودية. ثم أصبحت هذه التسمية تطلق على المبنى ابتداءً من القرن الرابع الميلادي. ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت، د.ت، ج11، ص277.

<sup>4</sup> - جواد علي، المرجع السابق، ج6، ص ص 651-649.

<sup>5</sup> - رفائيل نخلة اليسوعي، المرجع السابق، ص 204.

### 2- ظهورها:

برزت المسيحية في سياق التاريخ الديني للشرق الأدنى القديم، متخذةً من بلاد الشام مهداً لنشأتها. وقد شكّل الموقع الجيوسياسي للمنطقة عاملاً حاسماً في تشكيل مسارها، حيث كانت هذه الأرض -التي تقع في ملتقى طرق العالم القديم- مسرحاً للتنافس بين القوى العظمى عبر العصور. فقد شهدت المنطقة صراعات متعاقبة بين الحضارات الكبرى في العصور الأولى تنازعت عليها الممالك والمجتمعات القديمة (المصرية، البابلية، الآشورية، الحيثية) ثم أصبحت ساحة للتصارع بين أعظم إمبراطوريتين في ذلك الزمان بين الإمبراطورية الفارسية الشرقية و الإمبراطورية الإغريقية المقدونية بقيادة الإسكندر

ظهرت المسيحية في عهد الإمبراطور تيريوس قيصر<sup>1</sup>، عندما أعلن المسيح عيسى (عليه السلام) رسالته في بداية القرن الأول الميلادي، داعياً إلى الإيمان بالله ونشر قيم المحبة والسلام.<sup>2</sup> وفي هذا الإطار، يبرز أهمية دراسة ميلاد المسيح (عليه السلام) وتحليله، نظراً للمكانة الجليلة التي يحتلها هذا الحدث في عالم النبوة والوحي والتاريخ الإنساني.

### 2-1- تبشير مريم بعيسى (عليه السلام):

يذكر "ابن كثير" أن مريم (عليها السلام) كانت تخدم في المحراب بيت المقدس تحت كفالة ابن عمها يوسف النجار<sup>3</sup>\*\*. وقد ادعى بعض النصارى أن يوسف تزوجها، إلا أن الصحيح - وفق الروايات الإسلامية - أنه لم يقترب منها، بل ظلت في حفظ الله حتى رُفع عيسى (عليه السلام)<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - تيريوس قيصر (Tibérius Claudius Nero Caesar) (42ق.م-37 م) ثاني امبراطور روماني، (14م-37م) بعد "أغسطس" Augustus (27ق.م-14م)، ابن "ليفيا" و"تيريوس نيرو"، تبناه "أغسطس أوكتافيوس" الذي كان زوج أمه منذ السنة الرابعة للميلاد، ثم خلفه فيما بعد في الحكم، امتدت توسعته إلى الراين بوسط أوروبا. اشتهر بسياسته المالية المحكمة. عمر فروخ، تاريخ الجاهلية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1964م، ص 64، أمين سلامة، التاريخ الروماني، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1959م، ص ص 428-429.

<sup>2</sup> - Bouillet (M.N.), Dic. Univ. Hist. Géo., Paris, Hachette, 1878, p.187.

<sup>3</sup> - يوسف النجار، هو "يوسف بن يعقوب بن ماثان النجار، كان نجاراً حكيماً وهو ابن عم مريم، وهو أول من أنكر حملها. ابن كثير، قصص الأنبياء، ط/، دار ابن حزم، بيروت، 2001، ص 452.

<sup>4</sup> - المصدر نفسه، ص 451.

كانت مريم (عليها السلام) تقوم بخدمة المحراب في بيت المقدس برفقة ابن عمها يوسف النجار. وعندما ينفذ ما لديهما من ماء، كانا يذهبان معاً إلى المغارة لملء القلال ثم يعودان إلى المسجد. وكانت تخرج أحياناً بمفردها أثناء فترة حيضها، أو لقضاء حاجة ضرورية كجلب الماء أو الطعام.

وفي اليوم الذي التقى فيها جبريل (عليه السلام)، خرجت وحدها إلى المغارة لجلب الماء، كما ذكر الله تعالى: « **وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا** » [سورة مريم، الآية 16]، أي انفردت في مكان شرقي المسجد الأقصى، فأرسل الله إليها الروح الأمين جبريل (عليه السلام)، « **فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا** » [سورة مريم، الآية 17]، فخاطبها قائلاً: "يا مريم، إني رسول الله إليك." فلما رأته، استعادت بالرحمن: « **نِيَّ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا** » [سورة مريم، الآية 18] ، فأجابها جبريل: « **إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا** » [سورة مريم، الآية 19] ، موضحاً أنه ملك مرسل من الله وليس يبشر<sup>1</sup>. فتعجبت مريم قائلة: « **أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا** » [سورة مريم، الآية 20] ، فأجابها جبريل بقول الله تعالى: « **كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** » [سورة مريم، الآية 21] ، مبيناً أن أمر الله نافذ بقدرته وحكمته.

فاستسلمت مريم (عليها السلام) لقضاء الله وقدره، فنفخ جبريل (عليه السلام) في جيب درعها ثم انصرف، فحملت بعيسى (عليه السلام). وكان يوسف النجار - ابن عمها - يرافقها ويخدمها في شؤونها، فلما لاحظ عليها علامات الحمل، استغرب الأمر لعلمه بتقواها وورعها وعبادتها. فسألها مستفهماً: "يا مريم، هل ينبت زرع بغير بذر؟" فأجابت: "نعم". قال: "وهل ينشأ شجر بغير مطر؟" قالت: "نعم". فقال: "فهل يكون ولد من غير ذكر؟" فأجابت بحكمة: "نعم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع أول خلقه بغير بذر، وأنبت الشجر بغير غيث، وخلق آدم

<sup>1</sup> - M. Bergier (l'abbé), Op.cit., p.576.

وحواء من غير ذكر ولا أنثى؟" فقال يوسف: "بلى، إن الله على كل شيء قدير".<sup>1</sup> فأدرك يوسف أن ما حدث لمريم يفوق قدرة البشر، وأن الأمر من عند الله تعالى. فلم يعد يسعه أن يسألها أو يشكك فيها بعد ذلك. وقد رأى في منامه رؤيا أوحى الله إليه فيها أن يحتفظ بها ولا يفضح أمرها، إذ كانت طاهرة نقية بريئة من أي دنس أو سوء.<sup>2</sup>

وقد ورد في الروايات أن مريم عليها السلام حين حملت، زارتها خالتها زوجة النبي زكريا عليه السلام - الذي كان كافلها - فقالت الخالة: "إني حبلى"، فردت عليها مريم: "وأنا أيضاً حبلى"، فاعتنقتها أم يحيى وقالت بفرحة: "إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك"<sup>3</sup>، تحقيقاً لوعده الله تعالى في قوله: «أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِيْحِيٍّ مُّصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ» [سورة آل عمران، الآية: 39]

وكانت مريم عليها السلام تروي عن حالها فتقول: "كنت إذا خلوتُ كَلَمَني وكَلَمَني ربي،

وإذا كنت بين الناس

سبح في بطني"<sup>4</sup>، كما أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى «فَنَادَاهَا» [سورة مريم، الآية: 24]، اختلف العلماء والمؤرخون في تحديد مدة حمل مريم بعمسى (عليهما السلام)، فتعددت الأقوال في ذلك: فمنهم من ذهب إلى ستة أشهر، وآخرون إلى سبعة أو ثمانية، بينما رأى فريق ثالث أنها المدة المعتادة لتسعة أشهر.<sup>5</sup> ويستدل الإمام ابن كثير على القول الأخير بقوله: "إن المشهور والظاهر أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن، ولو كانت مدة حملها تختلف عن عادة النساء لكان ذلك أولى بالذكر والنص عليه".<sup>6</sup> ويستأنس لهذا الرأي بقوله تعالى: «حَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ

<sup>1</sup> - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1982م، ج1، ص ص 308-309

<sup>2</sup> - انجيل متى، 20، 1.

<sup>3</sup> - ابن كثير، المصدر السابق، ص 453.

<sup>4</sup> - ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص 310.

<sup>5</sup> - عبد الوهاب النجار، المرجع السابق، ص 378.

<sup>6</sup> - ابن كثير، المصدر السابق، ص 453.

مَكَانًا قَصِيًّا» [سورة مريم، الآية: 22] ، حيث لم يذكر القرآن ما يدل على اختلاف مدة حملها عن المعتاد، مما يؤيد القول بأنها حملت المدة الطبيعية كسائر النساء.

لقد آثرت المصادر التاريخية السكوت عن تحديد مدة حمل مريم (عليها السلام)، ولو كانت غير المؤلف لذكرت تفصيلاً. ويظهر من سياق القصة أنها حملت المدة الطبيعية المعتادة لدى النساء وهي تسعة أشهر.<sup>1</sup> ولما أدركت مريم أوج المخاض، توجهت نحو المحراب الشرقي حتى بلغت أقصاه، كما وصف القرآن الكريم: « فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا » [سورة مريم، الآية: 23] ، فقد اضطرها الطلق إلى الالتجاء إلى جذع نخلة في بيت لحم، حيث وُلد عيسى بن مريم (عليهما السلام). وقد عبرت عن ألمها الشديد من اتهامات بني إسرائيل وشكوكهم، مع علمهم بتقواها وعبادتها، حتى تمت الموت قبل هذه المحنة.<sup>2</sup> فكانت المعجزة الإلهية، حيث ناداها الملك من تحتها كما ذكر تعالى: « فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا \* وَهَئِنِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا » [سورة مريم، الآيات، 24-25]، لتهدئة قلبها وتوفير sustenance لها في تلك اللحظات العصيبة.

وقد تعددت آراء المفسرين حول معنى "سرياً" الذي ذكر في الآية الكريمة، حيث يذكر العلامة سيد قطب في تفسيره أنه نهر صغير أجراه الله تعالى تحتها بأمره. بينما يرجح معظم المفسرين أنه كان ينبوعاً تفجّر في تلك اللحظة، أو مسيل ماء تدفق من الجبل المجاور. أما عن جذع النخلة، فقد اختلفت الروايات في وصفه فبعضها ذكر أنه كان يابساً مقطوعاً، فلما هزته مريم بإذن الله عادت إليه الحياة وأصبحت نخلة مثمرة ورواية أخرى تذكر أنها عندما أحست بشدة الطلق احتضنت الجذع اليابس فاستقام واخضرّ بأمر الله<sup>3</sup> ويستبعد بعض المفسرين أن تكون النخلة كانت مثمرة أصلاً، لأن

<sup>1</sup> - محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، 1961م، ص 16.

<sup>2</sup> - سليمان مظهر، قصة الديانات، ط2، عريية للطباعة والنشر، القاهرة، 2002م، ص 379.

<sup>3</sup> - سيد قطب، في ظلال القرآن، ط12، دار الشروق، بيروت، 1986م، ج4، ص 2307.

ميلاد المسيح كان في فصل الشتاء حيث لا تثمر النخيل عادة.<sup>1</sup> ولما ولدت مريم طفلها، جاءت تحمله إلى قومها، فاستنكروا أمرها وقالوا لها باستنكار: « يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا » [سورة مريم، الآية، 27] ، تعبيراً عن دهشتهم مما رأوا وعدم تصديقهم لبراءتها وقد غاب يوسف النجار عن مريم أربعين يوماً، ثم عاد بها إلى قومها. فلما رأوها حاملة وليدها، أنكروا عليها بشدة قائلين: "ما هذه الفعلة الشنيعة التي اقترفتها؟"<sup>2</sup> .

ويذكر المؤرخ أبو الفداء أن إبليس هو الذي بادر بإخبار بني إسرائيل، فاجتمعوا حولها يريدون رجمها بالحجارة<sup>3</sup> وفي ذروة الأزمة، حين اهتموها بالفحشاء، أشارت مريم إلى رضيعها الذي لم يتجاوز عمره أربعين يوماً ، وقالت لهم: "كلموه واسألوه". فاستنكروا ذلك قائلين: « كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا » [سورة مريم، الآية: 29] فكانت المعجزة الإلهية، إذ أنطق الله تعالى عيسى (عليه السلام) فقال: « إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا \* وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا \* وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا \* وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا » [سورة مريم، الآيات: 30-33]

2-2-ميلاد عيسى (عليه السلام):

اختلف المؤرخون والباحثون في تحديد تاريخ ومكان ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام، ويمكن تلخيص آرائهم على النحو التالي: الرأي الأول: يرى أصحابه أن ولادته كانت بعد مرور 363 سنة من سيطرة الإسكندر المقدوني<sup>4</sup> على بابل.<sup>1</sup> والرأي الثاني: يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أنه وُلِدَ

<sup>1</sup> - ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص ص 310-312

<sup>2</sup> - مرجع نفسه، ص 310-311.

<sup>3</sup> - أبو الغداء، المصدر السابق، ج1، ص 62.

<sup>4</sup> - الإسكندر الأكبر (323- 356)، (Alexandre le grand ق.م)، ملك مقدونيا (323- 336 ق.م) ابن فيليب الثاني وأولمبيا، اعتلى العرش سنة 336 ق.م وعمره لا يتعدى 20 سنة، أراد تكوين إمبراطورية عظمى في الشرق فبدأ حملته سنة 334 ق.م، استولى على بابل سنة 331 ق.م، بلغت توسعته حدود الهند بوصوله إلى نهر لهندوس، توفي ببابل في 13 يونيو سنة 323 ق.م، أحمد سوسة، ملامح من التاريخ القلم ليهود العراق، ط1، مطبعة أسعد، بغداد، 1978م، ص 158، أيدرس بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، تعريب عبد اللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية، بيروت، 1988، ص 44- 43. Dic. Univ. Hist. Géo., pp. 201 -

في بيت لحم سنة 304 من حكم الإسكندر،<sup>2</sup> وكان عمر مريم عليها السلام عند الحمل به 13 سنة، وقيل 15 سنة،<sup>3</sup> وقيل 20 سنة.<sup>4</sup> والرأي الأرجح: يميل معظم الباحثين إلى أن ميلاده كان في بيت لحم قرب بيت المقدس سنة 4 قبل الميلاد.<sup>5</sup>

يذكر المؤرخون أن ولادة النبي عيسى عليه السلام صاحبها أحداث خارقة، حيث سقطت الأصنام في مشارق الأرض ومغاربها عند مولده، كما ظهر نجم عظيم في السماء أثار دهشة ملك الفرس، الذي استشار كهنة فأخبروه بأن هذا يدل على مولد عظيم في الأرض<sup>6</sup> وقد قدم حكماء الجوس<sup>7</sup> من الشرق إلى أورشليم يسألون عن مكان "الملك المولود"، فلما علم الملك هيرودمس<sup>8</sup>، اضطرب وخشي على عرشه. فاستدعى كهنة اليهود وسألهم عن مكان الميلاد، فأخبروه أنه في بيت لحم اليهودية حسب النبوءات ثم طلب من الجوس البحث عن الصبي بحجة السجود له، بينما كان ينوي قتله 2 إلا أن الجوس عندما وجدوا الصبي وأمه مريم، رأوا الملائكة تحيط بهما، فسجدوا له وقدموا هداياهم ثم أوحى الله إليهم في المنام بعدم العودة إلى هيرودمس، فعادوا إلى بلادهم من طريق آخر.<sup>9</sup>

وفي تلك الأثناء الحاسمة، أوحى الله تعالى إلى مريم عليها السلام أن تهرب بعيسى إلى مصر، تحقيقاً لقوله سبحانه: « وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ »

<sup>1</sup> - ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص 307.

<sup>2</sup> - أبو الفداء، المصدر السابق، ج1، ص 62.

<sup>3</sup> - ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص ص 307-308.

<sup>4</sup> - عبد الوهاب النجار، المرجع السابق، ص 380.

<sup>5</sup> - Christophe Attias et Esther Benbassa, Dictionnaire de Civilisation Juive, p. 184 ; De Choist (l'Abbé), Histoire de l'Eglise, t. I, Paris. Jean Baptiste Coignard, 1703, pp.8-9.

<sup>6</sup> - ابن كثير، قصص الأنبياء، ص 465.

<sup>7</sup> - المجوس، لفظة فارسية وهي جمع "مغوس" Magus، وتعني عابد النار، وهي من الألفاظ التي دخلت اليونانية ولغة بني إرم. محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ط5، دار الجيل، بيروت، 1999م، ص 308، رفايل نخلة اليسوعي، المرجع السابق، ص 269

<sup>8</sup> - هيرودمس، Hérode Antipas (22ق.م-39م)، ابن هيرودمس الأكبر، والي الجليل بفلسطين، وهو لقب أطلقه اليونان على كل من يولون من بني إسرائيل نائباً عليهم، وهو الذي قدم المسيح أمام الحاكم الروماني

<sup>9</sup> - اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ط6، دار صادر، بيروت، 1995م، ج1، ص 69.

[سورة المؤمنون، الآية: 50] وفي رواية أخرى، تجلّى الملاك ليوسف النجار في الحلم محذراً: "قُمْ خُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْرُبْ إِلَى مِصْرَ، لِأَنَّ هِيرُودُسَ مُزْمِعٌ أَنْ يَطْلُبَ الصَّبِيَّ لِيُهْلِكَهُ". فما كان من يوسف إلا أن صحب مريم والطفل في رحلة الهروب إلى مصر<sup>1</sup> ولما تأكد هيرودس من خداع المجوسله، استشاط غضباً وأصدر أمراً دمويّاً بذبح جميع الأطفال الذكور في بيت لحم وماحولها ممن هم في سن السنتين فما دون<sup>2</sup>، في محاولة يائسة للقضاء على المسيح الموعود. بينما ظل عيسى وأمه آمنين في مصر، حيث مكثا هناك اثنتي عشرة سنة كاملة<sup>3</sup>، حتى انقضت فترة الخطر وعادا إلى أرض الوطن بعد وفاة هيرودس.

وقد اختلف المفسرون في تحديد المقصود بـ"الرَّبْوَة" هل هي المكان الذي ولد فيه المسيح وهو محلة بيت المقدس؟ أو هي أنهار بدمشق أو مصر؟ وقيل هي الرملة<sup>4</sup>. يرجح معظم المفسرين والمؤرخين أن المقصود بـ"الرَّبْوَة" في الآية الكريمة هو مصر، حيث آوى عيسى عليه السلام مع والدته مريم ويوسف النجار، وقد مكثوا هناك اثنتي عشرة سنة في مكان

آمن مستقر ولما بلغهم نبأ وفاة "هيرودس"، عادوا إلى بلاد الشام واستقروا في مدينة الناصرة، حيث نشأ عيسى عليه ثم عندما بلغ الثلاثين من عمره، جاء إلى يوحنا المعمدان<sup>5</sup>\* فعمّده في نهر الأردن، وكان ذلك بداية ظهوره العلني ودعوته<sup>6</sup> وبعد تعميده في نهر الأردن، صام عيسى عليه السلام أربعين يوماً تهيئةً لرسالته العظيمة، ثم بعثه الله رسولاً إلى بني إسرائيل<sup>7</sup> وقد افتتح دعوته بقوله

<sup>1</sup> - ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص 312، ابن كثير، قصص الأنبياء، ص 468.

<sup>2</sup> - يعقوبي، المصدر السابق، ج1، ص 69.

<sup>3</sup> - ابن كثير، المصدر السابق، ص 466. ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص 312.

<sup>4</sup> - ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص 312.

<sup>5</sup> - يوحنا المعمدان Jean-Baptiste، هو النبي يحيى بن زكريا (عليهما السلام) ابن خالة المسيح، عاش في برية اليهودية ثم ظهر على شاطئ الأردن يعمد بالماء ويشتر بمجىء المسيح، قطع "هيرودوس" رأسه بتحريض من زوجته هيرودية سنة اثنان وثلاثين (32) للميلاد. ابن كثير، المصدر السابق، ص 433، Dic. Univ. Hist. Géo., p. 952.

<sup>6</sup> - أبو الفداء، المصدر السابق، ج1، ص ص 63-62، ابن كثير: المصدر السابق ص 467.

<sup>7</sup> - يعقوبي، المصدر السابق، ج1، ص 72.

كما جاء في القرآن الكريم: « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » [الصف: 6] وخلال فترة دعوته التي استمرت ثلاث سنوات وثلاثة أيام ، تنقل المسيح عليه السلام بين مدن وقرى الجليل، يبشر بالإنجيل ويدعو إلى التوحيد. وقد اصطفى الله له اثني عشر حواريًا<sup>1</sup>، ولكن كما حكى القرآن: « فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ » [الصف: 6] ، فقد قابل كثير من بني إسرائيل هذه المعجزات الباهرة بالإنكار والاتهام بالسحر، مما يظهر عنادهم وتكذيبهم للأنبياء عبر العصور.

2-3-معجزات عيسى (عليه السلام):

لقد أيد الله تعالى نبيه عيسى بن مريم عليه السلام بعدد من المعجزات الباهرة التي ذكرها القرآن الكريم، ومن أبرزها ما جاء في سورة المائدة في قوله تعالى: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي » [المائدة: 110]. ويمكن تلخيص هذه المعجزات الخمس التي خصّ الله بها عيسى عليه السلام كما يلي:

**المعجزة الأولى:** تكليم الناس في المهد كهلاً: حيث تكلم وهو طفل رضيع في المهد ليبرئ أمه من التهمة، ثم واصل دعوته وهو كبير، **المعجزة الثانية:** تعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل: حيث منحه الله العلم الواسع بالكتب السماوية والحكمة البالغة ، **المعجزة الثالثة:** خلق الطير من الطين بإذن الله: حيث كان يصنع من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيصبح طيراً حقيقياً بإذن الله، **المعجزة الرابعة:** إبراء الأكمه والأبرص: حيث كان يشفي المرضى بأمر الله، ومنهم من وُلد أعمى أو أصيب بالبرص و **المعجزة الخامسة:** إحياء الموتى: حيث كان يُخرج الموتى من قبورهم أحياءً بإذن الله تعالى. لقد ذكر القرآن الكريم ، أما **المعجزة السادسة** خصّ الله بها نبيه عيسى عليه

<sup>1</sup> - الشهرستاني، المصدر السابق، ج1، ص 220.

السلام، وهي معجزة إنزال المائدة من السماء، كما جاء في سورة المائدة: « إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ \* قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيَّهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ \* قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ

خَيْرُ الرَّازِقِينَ \* قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿112-115﴾ [المائدة: 112-115] والمعجزة السابعة: الإخبار بالغيب، ذكر الله تعالى في سورة آل عمران معجزة فريدة لنبية عيسى عليه السلام، وهي إخباره بالغيب، حيث كان يُنبئ أصحابه وتلاميذه بأمور خفية لا يعلمونها، كأخبارهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم<sup>1</sup>، قال تعالى: « وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ » [آل عمران: 49]

يُستنتج من الآيات القرآنية السابقة أن الله تعالى أيد نبية عيسى بن مريم عليه السلام بمعجزات باهرة، تشكّل مجموعها حُجّةً دامغة على قومه بني إسرائيل. وهذه المعجزات السبع – المذكورة في سورتي المائدة وآل عمران – تُمثّل براهين ملموسة على صدق نبوته واصطفائه. غير أن أعظم هذه الآيات على الإطلاق تتمثل في: معجزة مولده من غير أب، حيث خرج إلى الدنيا بكلمة "كن" الإلهية، متحدياً سنن الطبيعة و تكليمه في المهد وهو صبيّ رضيع، دفاعاً عن أمّه وإعلاناً لرسالته منذ نعومة أظفاره. فهاتان المعجزتان – اللتان اقترنتا ببداية حياته – تُعدّان أساساً لجميع الآيات اللاحقة، وتؤكدان أن عيسى عليه السلام كان "آيةً للناس ورحمةً من ربّه" (كما ورد في سورة مريم).

<sup>1</sup> - ابن كثير، قصص الأنبياء، ص 468.

لقد واجه عيسى بن مريم (عليه السلام) معارضةً عنيفة من قومه بني إسرائيل على الرغم من المعجزات الباهرة التي أيده الله بها. وكانت جذور هذه المعارضة تعود إلى الانحراف العميق الذي أصاب المجتمع اليهودي، حيث تحوّل رجال الدين إلى طبقة مستغلة تجمع الثروات من القرابين والنذور، وادّعوا لأنفسهم منزلةً دينيةً مميزة تمنحهم السلطة والامتيازات. فلما جاءهم المسيح (ع) بدعوته التي نادى بالمساواة بين البشر أمام الله، ونددت بفساد الأحبار وانحرافهم، رأوا في ذلك تهديدًا لمصالحهم ونفوذهم. فرفضوا آياته الواضحة، وأنكروا معجزاته البينة، وآثروا التمسك بامتيازاتهم الدنيوية على اتباع الحق الذي جاءهم به، ممّا يجسّد الصراع الأبدي بين دعاة الإصلاح المدعومين بالوحي وأصحاب المصالح المتمسكين بامتيازاتهم.

بدأوا ينسجون المؤامرات والدسائس ضده، وأخذوا يهيكون الخطط سرًا لتحريض الحكام الرومان عليه. ولم ينته أمرهم إلا عندما نجحوا في إقناع الحاكم الروماني "بيلاطس" (Pilate)<sup>1</sup> \* بإصدار أمر باعتقاله ثم الحكم عليه بالإعدام صلبًا<sup>2</sup>. اجتمع زعماء اليهود وكبار أحبارهم وقالوا: "إننا نخشى أن يُفسد ديننا ويُفتن الناس باتباعه" فقال لهم "قيافا" رئيس الكهنة: "موت رجلٍ واحدٍ خيرٌ من هلاك الأمة كلها" فاتفقوا على قتله<sup>3</sup>.

ولما أطلع الله المسيح على اقتراب أجله، اشتدّ جزعه، فجمع حواربيه وأعدّ لهم طعامًا<sup>4</sup> \* وفي تلك الأثناء، كانت اليهود تبحث عنه بجِدِّ، حتى إن أحد الحواريين - وهو "يهوذا الإسخريوطي" كما يذكر "أبو الفداء"<sup>5</sup> - ذهب إلى الحاكم اليهودي "هيرودس" (Hérode) ودلّم على مكانه. فلما

<sup>1</sup> - بيلاطس Pilate، هو الحاكم الروماني الذي قدم إليه اليهود المسيح ليحاكمه، فلما رأى أن المسيح لم يفعل شيئًا يمس بسلطان الحاكم قال لليهود: حاكموه أنتم حسب شريعتكم، وجاء بطشت، وغسل يديه، وقال: أنا بريء من دم هذا البار، فقال اليهود: دمه علينا وعلى أبنائنا. ابن حزم، المصدر السابق، ج1، ص 118.

<sup>2</sup> - محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، المرجع السابق، ص 23.

<sup>3</sup> - اليعقوبي، المصدر السابق، ج1، ص 76.

<sup>4</sup> - يعرف عند النصارى بالعشاء الأخير أو العشاء السري، وقد خص به المسيح تلاميذه من الحواريين الاثني عشر وطلب منهم أن يجتهدوا له في الدعاء حتى يُوخر الله أجله. ابن كثير، قصص الأنبياء، ص 490.

<sup>5</sup> - أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، المرجع السابق، ص 64.

رأى الله ما يُحَاكُ حول عبده من مكيدة، أمر جبريلَ فرفعه إلى السماء . يروي "ابن الأثير"<sup>1</sup> أن يهوذا الإسخريوطي هو مَنْ دخل الغرفة التي كان فيها المسيح (عليه السلام) لحظة رفعه، فغيَّرَ اللهُ هيئته فصار شبيهاً بالمسيح في الصوت والمظهر. فلما خرج عليهم، ظنَّوه المسيح فألقوا القبض عليه وصلبوه وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: « وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ » [النساء: 157] وأكدته في موضع آخر: « وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا » [النساء : 157] فقد نجَّى اللهُ عبده عيسى (عليه السلام) من مكر اليهود، ولم يُسلِّمه لأيديهم.

اختلف العلماء والمفسرون في حقيقة موت المسيح ورفعهِ إلى السماء. ويذهب فريق منهم - ومنهم "القرطبي"<sup>2</sup> - إلى أن الله تعالى رفع عيسى بجسده وروحه إلى السماء، ثم أعاده حياً بعد سبعة أيام فنزل إلى أمه مريم. وقد وصف القرطبي المشهد بأن مريم كانت تبكي عند المصلوب (الذي ظنوه ابنها)، وكانت معها امرأة قد شفاها المسيح من الجنون. ثم أوصى عيسى أمه بأن تجمع الحواريين، فوزعهم في أصقاع الأرض مبشرين برسالته.

حيث يذكر "الشهرستاني"<sup>3</sup> أن المسيح بعد نزوله من السماء ظهر لتلميذه شمعون الصفا<sup>4</sup> \* - الذي كان أبرز الحواريين علماً وورعاً وزهداً.

فيما يذهب فريق آخر من المفسرين "الزمخشري، ابن كثير، ابن عباس، والبخاري" إلى أن المسيح عاش حتى توفاه الله تعالى كسائر أنبيائه، مستدلين بظاهر الآية الكريمة: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْهَبْ إِلَى قَوْمِكَ وَارْفَعْكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرْكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» [آل عمران: 55] ويؤيدون رأيهم

<sup>1</sup> - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، المرجع السابق ، ص 318.

<sup>2</sup> - الشهرستاني ،الجامع لأحكام القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1985م، ج6، ص ص 9-10

<sup>3</sup> - ملل والنحل، المرجع السابق، ص 221.

<sup>4</sup> - شمعون الصفا، اسمه الأصلي "سمعان" وقد غيره المسيح وسماه "بطرس"، وهو تلميذ "يسوع" وأحد الرسل الإثني عشر، يلقب بالقانوني أو الغيور، يقال أنه التقى ب"يهوذا" الرسول في فارس، كان وأخوه "أندرواس" صيادين عندما دعاهما المسيح لاتباعه، تذكر مصادر القرن الثاني الميلادي أنه ترك أنطاكية إلى روما، استشهد في عهد "نيرون" مصلوباً سنة 67م في نفس اليوم الذي استشهد فيه بولس. متى، 4، 10، مرقس، 18، 3، لوقا، 6، 15، ابن حزم، المصدر السابق، ج1، ص 120، الموسوعة العربية الميسرة، ج1، ص 527.

بقوله تعالى : « فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » [المائدة:

[117

في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن"، يوضح الإمام القرطبي<sup>1</sup> أن الله تعالى قد توفى عيسى عليه السلام قبل رفعه، مشيراً إلى أن لفظ "التوفي" في القرآن الكريم يحمل ثلاثة معانٍ مختلفة. أولاً: الوفاة الحقيقية بالموت كما في قوله تعالى : «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا» [الزمر: 42] ثانياً: الوفاة المجازية التي تعني النوم، وذلك في قوله تعالى : «وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ» [الأنعام : 60] ثالثاً: الوفاة الخاصة بعيسى عليه السلام والتي تعني الرفع، حيث يقول تعالى : «إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ» [عمران : 57] وهنا يأخذ التوفي معنى الأخذ الكامل للجسد والروح معاً دون موت أو إهلاك.

يذكر تفسير "ابن عباس"<sup>2</sup> أن عيسى عليه السلام لم يُقتل، بل رفعه الله تعالى كاملاً بجسده وروحه، موضحاً أن معنى قوله تعالى: «فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي» [المائدة : 117] يُقصد به رفعه من بين أعدائه<sup>3</sup> أما الزمخشري<sup>4</sup> فيؤكد أن الله تعالى قد حمى المسيح من كيد الكفار، حيث رفعه إليه أثناء نومه، وذلك لئلا يصيبه الخوف أو الأذى، فاستيقظ في الملاء الأعلى آمناً مكرماً. وهذه الحالة الفريقة تجمع بين عصمة النبي من القتل وتمكينه في مقام قرب إلهي.

يقدم الإمام "ابن كثير" رواية تفصيلية لرفع المسيح عليه السلام، فيذكر أن الله تعالى قد رفعه كاملاً بجسده وروحه، حيث شهد الحواريون - وهم داخل البيت - هذه المعجزة عبر روزنة (فتحة) في السقف. وقد أخذت عيسى سنة من النوم الإلهي أثناء عملية الرفع، مصداقاً لقوله تعالى : «إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ» [عمران : 57]

<sup>1</sup> - الشهرستاني، الجامع لأحكام القرآن، المرجع السابق، ص 377-376، البخاري، فتح البيان في مقاصد القرآن، تح. ابراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م، ج2، ص 341.

<sup>2</sup> - الفيروز آبادي، تنوير المقباس، دار الأنوار المحمدية، القاهرة، (د.ت)، ص ص 105، 85.

<sup>3</sup> - نفسه، ص ص 579-580.

<sup>4</sup> - الزمخشري، الكشاف، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، 1977م، ج1، ص ص 432-433.

وفي إطار المقارنة التاريخية، تشير المصادر الدينية المسيحية<sup>1</sup> إلى أن محاكمة المسيح - بحسب زعمهم - تمت سنة 29م أمام مجلس السنهدرين<sup>2</sup>\* اليهودي، الذي أصدر قراراً بالصلب. غير أن النصوص الإسلامية تؤكد أن هذا القرار لم ينفذ بحق المسيح الحقيقي، بل كان محض تشبيه إلهي. هذه هي الديانة المسيحية كما بشر بها عيسى عليه السلام ودعا إليها، وهذه معجزاته. وفي هذا الإطار، يمكننا طرح عدة تساؤلات: ما هو مصير المسيحية بعد رفع المسيح إلى السماء؟ ما هي التغييرات التي دخلت عليها، خاصة فيما يتعلق بشخص المسيح نفسه؟ ما هي مصادر المسيحية وكتبها المقدسة؟ ما هي الجامع الدينية التي عقدها المسيحيون؟ ما هي الأدوار التاريخية التي مرت بها المسيحية حتى وصولها إلى المغرب القديم؟

### ثالثاً: الكتاب المقدس و العهد الجديد :

الدين يقوم ببناءه على أساس مصادر، فكلما كانت هذه المصادر صحيحة كان البناء الديني أكثر متانة و موثوقية، و إذا نظرنا إلى الديانة المسيحية تعتمد في تشكيل عقائدها و تعاليمها على مصادر متعددة، يأتي في مقدمتها الكتاب المقدس بعهديه القديم و الجديد و قرارات المجامع الكنسية

### 1-تعريف الكتاب المقدس:

هو عبارة عن كتاب يتضمن على مجموعة من الاسفار المقدسة المكونة من عهدين القديم و الجديد و المؤلفه من ستة وستون سفرا ،بالإضافة إلى الأسفار القانونية الثانية لبعض الطوائف المسيحية ،و تعتبر هذه الطوائف أن هذه الأسفار كتبت بوحى من "روح القدس" على أيدي الرسل و القديسين<sup>3</sup>. يُقدّر أن كتابة الكتاب المقدس بدأت حوالي 1500 عام قبل الميلاد، واستمر تدوينه

<sup>1</sup> - إنجيل مرقس، 53-65، 14، إنجيل متى، 57-68، 26.

<sup>2</sup> - السنهدرين Sanhedrin، مصطلح إغريقي الأصل Synedrion ، ويعني المجلس أو المجمع الديني اليهودي الأعلى، تأسس في أورشليم سنة مائة وواحد وأربعون (141) قبل الميلاد، وبقي قائماً إلى أن ألغى في العهد الروماني سنة سبعين (70) ميلادية بعد خراب أورشليم، يتكون من مجلسين: السنهدرين الصغير: ويتألف من 23 عضواً ويعقد جلساته في المدن وهو أشبه ما يكون بمحكمة للعدالة المحلية، والسنهدرين الكبير يتألف من 71 عضواً وهو مجلس أعلى مقره بأورشليم داخل حرم الهيكل. أحمد سوسة، المرجع السابق، ص 179 .

<sup>3</sup> - ياسر جبر، البيان الصحيح لدين المسيح، ط1، دار الخلفاء الراشدين، الاسكندرية، 2007م، ص 17.

لنحو 1600 سنة (وليس 160 سنة)، حيث اكتمل آخر أسفار العهد الجديد بحلول عام 98 ميلادي . أول من كتبه: النبي موسى عليه السلام(كاتب الأسفار الخمسة الأولى) و آخر من كتبه: يوحنا (كاتب سفر الرؤيا في العهد الجديد). كما كتب وترجم الكتاب المقدس بعدة لغات منها: العبرية: لغة العهد القديم، والمعروفة أيضاً بـ"اللسان اليهودي"، الآرامية: اللغة السائدة في الشرق الأوسط قبل غزو الإسكندر الأكبر و اليونانية: لغة العهد الجديد، والتي كانت لغة عالمية في زمن السيد المسيح عليه السلام<sup>1</sup> .

### 2- العهد الجديد

#### 2-1- تعريف العهد الجديد:

يُطلق على هذه المجموعة -بحسب النصارى- تسمية "العهد الجديد"، وتتكون من 27 سفرًا، وذلك لأنها تتناول الفترة التي بدأت ب حياة المسيح عليه السلام. في المقابل، يُسمى الجزء الآخر "العهد القديم"، والذي يغطي الفترة من عهد موسى عليه السلام فصاعدًا. ولم تعترف الكنيسة بهذه الأسفار اعترافًا رسميًا إلا في القرن الرابع الميلادي، وذلك بعد إقرار مجمع نيقية\* (325م)<sup>2</sup> وقرارات الجامع اللاحقة التي حدّدت القانونية النهائية للأسفار.

#### 2-2- أقسام العهد الجديد:

أ\_ الأسفار التاريخية: وتضم خمسة أسفار؛

#### السفر الأول\_إنجيل\* متى L'évangile de Matthieu.

سُمي نسبةً إلى كاتبه "متى"<sup>3</sup> الذي يعود اسمه إلى الأصل العبري "مثنيا" بمعنى "هبة الرب". كان هذا التلميذ يُعرف أيضاً باسم "لاوي بن حلفي"، وعمل جانياً للضرائب في خدمة الإمبراطورية

<sup>1</sup> - المرجع نفسه، ص17.

<sup>2</sup> - عبد الاحد داود، الانجيل والصليب، تحق: سليم العراقي، ط1، القاهرة، 1351هـ، ص36.

<sup>3</sup> - متى، (Matthieu) (Mathaeus)، أحد حواربي المسيح، عاش في القرن الأول للميلاد، يدعى أيضا "لاوي" أو "ليني Lewi بن حلفي، من خان الجليل، صاحب أول إنجيل حسب الترتيب الكنسي، كان من العشارين (أي حياة العشور) للدولة الرومانية في " كفر ناحوم من أعمال الجليل

الرومانية بفلسطين. وقد احتقر اليهود هذه المهنة لارتباطها بممارسات القهر والاستبداد<sup>1</sup>، كما أنهم كانوا ينظرون باستياء إلى العشارين (جباة الضرائب) لتعاونهم مع السلطة الرومانية المحتلة، فأطلقوا عليهم لقب "العشارين"<sup>2</sup> كنوع من التحقير.

ويقال أن المسيح عليه السلام دعاه إلى إتباعه فتبعه، فقد جاء في الإصحاح التاسع من إنجيل متى " وَفِيمَا يَسُوعُ مُجْتَازٌ مِنْ هُنَاكَ رَأَى إِنْسَانًا جَالِسًا عِنْدَ مَكَانِ الْجَبَايَةِ اسْمُهُ مَتَّى، فَقَالَ لَهُ: «اتَّبِعْنِي»، فَقَامَ وَتَبِعَهُ، وَبَيْنَمَا هُوَ مُتَكِيٌّ فِي الْبَيْتِ إِذَا عَشَارُونَ وَخُطَاةٌ كَثِيرُونَ قَدْ جَاءُوا وَاتَّكَأُوا مَعَ يَسُوعَ وَتَلَامِيذِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْفَرِّسِيُّونَ قَالُوا لِتَلَامِيذِهِ: «لِمَاذَا يَأْكُلُ مَعَكُمْ مَعَ الْعَشَارِينَ وَالْخُطَاةِ؟» فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ قَالَ لَهُمْ: «لَا يَخْتَاجُ الْأَصْحَاءُ إِلَى طَيِّبِ بَلِ الْمَرْضَى، فَادْهَبُوا وَتَعَلَّمُوا مَا هُوَ: إِنِّي أُرِيدُ رَحْمَةً لَا ذَبِيحَةً لِأَنِّي لَمْ آتِ لِأَدْعُو أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ». إنجيل [متى: 9-13/9].

بعد حادثة الصلب، انطلق متى للتبشير بالديانة المسيحية في مناطق مختلفة، حيث جال مبشراً بدعوة المسيح في أرجاء متعددة. واستقر به المطاف أخيراً في الحبشة، حيث أمضى قرابة ثلاثة وعشرين عاماً يكرسها للدعوة إلى المسيحية. ووفقاً للروايات التاريخية المسيحية، لقي متى حتفه في الحبشة حوالي سنة 70 ميلادية، إثر تعرضه لتعذيب شديد على يد أحد حاشية الملك الحبشي. وهناك روايات أخرى تذكر أنه توفي في سنة 62 ميلادية.

يتفق أغلب علماء النصارى على أن متى كتب إنجيله باللغة العبرية أو السريانية بعد رفع المسيح بأربع سنوات على الأقل، غير أن النسخة الأصلية فقدت ولم يعد لها أثر. وأقدم نسخة معروفة اليوم من هذا الإنجيل مكتوبة باللغة اليونانية، مما يشير إلى أنها ترجمة لاحقة للنص الأصلي

بفلسطين، اختاره المسيح تلميذاً من تلاميذه، ولما صعد المسيح، جال للتبشير في الحبشة ثم بلاد فارس، كتب إنجيله بالعبرية، قضى 23 سنة مشراً بالمسيحية في بلاد فارس و الحبشة حتى قتل بما في حوالي سنة 62م. - Dic. Univ. Hist. Géo., p.1209.

<sup>1</sup> - عبد المنعم الحفني، موسوعة الفلاسفة والمتصوفة اليهودية، لا.ط، مكتبة مدبولي، لا.م، د.ت، ص203.

<sup>2</sup> - العشارين : سموهم بذلك لأنهم في الغالب يأخذون عشر المحاصيل وغيرها، ضريبة لبيت المال، علي عبد الواحد واف، الأسفار المقدسة، ط1، دار النهضة، القاهرة، 1384هـ/1964م، ص57.

الذي لم يعثر عليه. ويبقى هذا الأمر محل اتفاق بين الدارسين<sup>1</sup>، رغم اختلافاتهم حول بعض التفاصيل التاريخية المتعلقة بظروف الكتابة وطبيعة النص المفقود. يُعد إنجيل متى من أقدم الأناجيل وأكثرها ارتباطاً بالتراث اليهودي وفقاً للتقليد الأرثوذكسي. كُتب هذا الإنجيل موجهاً شكل رئيسي لليهود في فلسطين، حيث يبرز فكرة أن المسيح عيسى عليه السلام جاء مكماً لمسيحة بني إسرائيل الروحية وحقق النبوات الواردة في العهد القديم. يتميز الإنجيل بأسلوبه الذي يتناسب مع الثقافة اليهودية، وتركيزه على إظهار استمرارية الرسالة الإلهية من العهد القديم إلى الجديد و يتألف إنجيل متى من 28 إصحاحاً، ويُعتبر بمثابة حلقة وصل بين الديانتين اليهودية والمسيحية، حيث يقدم المسيح كالمخلص المنتظر الذي تمت فيه نبوات التوراة. هذا الطابع الجسر بين العهدين جعل الكنيسة تعتبره امتداداً طبيعياً للعهد القديم ووثيقة لاهوتية بالغة الأهمية في فهم العلاقة بين الديانتين<sup>2</sup>.

### السفر الثاني\_ إنجيل مرقس L'évangile de Marc:

يُعرف مرقس<sup>3</sup> باسم لاتيني معناه "المطرقة"، بينما اسمه الأصلي هو يوحنا، وقد لُقّب بمرقس. يُعتبر من التلاميذ السبعين على الأرجح، كما أنه ابن أخت القديس برنابا. رافق مرقس بولس الرسول و برنابا في رحلاتهما التبشيرية، حيث شاركهما في نشر المسيحية في قبرص وآسيا الصغرى. لاحقاً، أصبح مرقس رفيقاً مقرباً لبطرس، كبير الحواريين، وقضى معه جزءاً كبيراً من حياته، كما تبعه إلى روما. بعد استشهاد بطرس، توجه مرقس إلى شمال إفريقيا ثم إلى مصر<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - Martigny (l'Abbé J.A.), Dictionnaire des antiquités chrétiennes, Paris, librairie Hachette, 1877, pp.298-301.

<sup>2</sup> - عبد الرحمن الميداني، المرجع السابق، ص 567.

<sup>3</sup> - مرقس St. Marc، اسمه "يوحنا" ويلقب ب "مرقس"، لم يكن من الحواريين الإثني عشر، لكنه أحد الإنجيليين الأربعة، أصله من اليهود، ولا في قورنثائية وعاش في القرن الأول الميلادي مع أسرته في أورشليم في وقت ظهور المسيح، وهو من الأوائل الذين أحابوا دعوته، لازم خاله "برنابا" وبولس الرسول، مؤسس كنيسة الإسكندرية سنة 52م، رحل إلى أنطاكية مشراً ثم إلى قبرص وشمال إفريقيا ودخل مصر فكانت مستقراً له، قتله الوثنيون بعد أن سجنوه وعذبوه سنة 52م، نقلت رفاته الى البندقية خلال القرن التاسع الميلادي. Dic. Univ. Hist. Géo., p.1181.

<sup>4</sup> - علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص 62.

ويشير المؤرخ يوسابيوس إلى أن مرقس كان أول من حمل الإنجيل إلى مصر، حيث بشر بالتعاليم المسيحية التي دونها في إنجيله، وأسس أولى الكنائس في الإسكندرية.<sup>1</sup> يُعتبر إنجيل مرقس ثاني أسفار العهد الجديد، وهو ينسب إلى مرقس (ويُدعى أيضاً يوحنا) الذي كان من التلاميذ السبعين وابن أخت القديس برنابا. عمل مرقس مرافقاً لبولس وبرنابا في رحلاتهما التبشيرية، ثم أصبح رفيقاً مقرباً لبطرس الرسول، حيث رافقه إلى روما. بعد استشهاد بطرس، توجه مرقس إلى مصر حيث بشر بالمسيحية وأسس كنيسة الإسكندرية، قبل أن يُستشهد على أيدي الوثنيين سنة 62م بعد تعذيب وسجن.

يتميز هذا الإنجيل بعدة خصائص مهمة التي تتمثل في: كُتِب باللغة اليونانية بعد رفع المسيح بجوالي 23 عاماً وهو أقصر الأناجيل، إذ لا يتجاوز 16 إصحاحاً، بحيث ما زال الجدل قائماً حول هوية كاتبه الحقيقي، حيث يرى بعض المؤرخين أن بطرس هو مصدره الأساسي.<sup>2</sup> من اللافت أن بعض المصادر التاريخية تشير إلى أن مرقس كان ينكر ألوهية المسيح، مما يضيف بُعداً لاهوتياً مهماً لشخصيته. يُعتبر هذا الإنجيل وثيقة مبكرة ذات قيمة تاريخية كبيرة، رغم الخلافات حول ظروف تأليفه وتفصيله الدقيقة.

### السفر الثالث\_ إنجيل لوقا L'évangile de Luc:

يُعد لوقا، كاتب الإنجيل الثالث، شخصية فريدة بين مؤلفي العهد الجديد بكونه الوحيد من أصل غير يهودي. تختلف الروايات حول مكان ولادته، فبينما تشير معظم المصادر إلى أنه وُلد في أنطاكية حيث درس الطب ومارسه بنجاح، تذكر روايات أخرى أنه من أصل روماني وُلد في إيطاليا وعمل أيضاً كمصور. ارتبط لوقا بعلاقة وثيقة مع الرسول بولس الذي أشاد به في رسائله، واصفاً إياه بـ"لُوقَا الطَّيِّبُ الْحَبِيبُ" (كولوسي 4: 14) و"لُوقَا الْعَامِلُونَ مَعِي" (فليمون 1: 24). تميز لوقا

<sup>1</sup> - يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، ت: القمص مرقص داود، لاط، مكتبة المحبة، القاهرة، د.ت، ص73.

<sup>2</sup> - عبد الرحمن الميداني، المرجع السابق، ص568.

بثقافته الهلنستية الواسعة وأسلوبه الأدبي الرصين، كما عُرف بدقته التاريخية في سرد الأحداث، مما جعل إنجيله من أكثر نصوص العهد الجديد تماسكاً من الناحية الوثائقية<sup>1</sup>.

يُجمع المؤرخون المسيحيون على أن لوقا دوّن إنجيله باللغة اليونانية، أي بعد حوالي عشرين سنة من رفع المسيح عليه السلام<sup>2</sup>. وقد أُلّف هذا الإنجيل في اليونان عام 70م بناءً على طلب شخصية رفيعة المستوى تُدعى ثاوفيلس، حيث يُعتبر في مجمله رسالة دفاعية موجهة لغير اليهود. تميز هذا العمل بتقديمه المسيحية بأسلوب يتناسب مع العقلية الهلنستية، مع التركيز على الطابع العالمي للرسالة المسيحية، مما يجعله وثيقة تاريخية ولاهوتية فريدة في سياقها الزماني والمكاني.

اعتمد لوقا في تأليف إنجيله على مصادر متعددة، حيث استقى معلوماته من الكتابات السابقة عن المسيح عليه السلام ومن روايات شهود العيان الذين عاصروا الأحداث. ويتميز هذا الإنجيل بدقته التاريخية وحرصه الشديد على تنظيم الروايات وتسلسلها المنطقي. وقد افتتح إنجيله بمقدمة أدبية رصينة على غرار المقدمات اليونانية الكلاسيكية، جاء فيها: "إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا، كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين وخداماً للكلمة، رأيت أنا أيضاً - بعدما تبعت كل شيء من الأول بتدقيق - أن أكتب إليك أيها العزيز ثاوفيلس على التوالي، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به". ويبلغ إنجيل لوقا أربعة وعشرين إصحاحاً، يتميز بأسلوبه السلس وشموليته في عرض حياة المسيح وتعاليمه<sup>3</sup>.

### السفر الرابع: إنجيل يوحنا *L'évangile de Jean* \*

هو يوحنا بن زبدي<sup>4</sup>، شقيق يعقوب الأصغر، الذي دعاه المسيح عليه السلام مع أخيه للتلمذة. ينتمي يوحنا إلى أسرة ميسورة الحال كانت تعمل في صيد الأسماك. بدأ حياته الروحية كتلميذ ليوحنا

<sup>1</sup> - عبد الرحمن الميداني، المرجع السابق، ص 569.

<sup>2</sup> - رؤوف شلبي، أعضاء على المسيحية، ط، المكتبة العصرية، بيروت، 1985م، ص 47.

<sup>3</sup> - عبد الرحمن الميداني، المرجع السابق، ص 569.

<sup>4</sup> - يوحنا، (Jean (St.))، هو يوحنا بن زبدي الصياد، أحد الخواريين، ولد في بيت صيدا من أعمال الجليل بفلسطين، كان المسيح يحبه، وهو الذي طلب منه المسيح أن يحضر أمه وهو على الصليب، ضعف وعجز عن الوعظ في أواخر أيامه، كتب إنجيله ورسائله الثلاث، وسفر الرويا باللغة اليونانية،

المعمدان (يحيى عليه السلام) قبل أن يصبح من أبرز تلاميذ المسيح عليه و يذكر التاريخ المسيحي أن المسيح قد منح بركته الخاصة لهذا التلميذ وأخيه، وذلك بعد ما قدمته والدتهما سالومي. تميز يوحنا بمكانة خاصة بين الحواريين، حيث عُرف بـ"التلميذ الحبيب" لكونه الأقرب إلى قلب المسيح عليه السلام<sup>1</sup>. يُعد يوحنا أحد التلاميذ الثلاثة الأخصاء للمسيح عليه السلام، الذين اصطفاهم لمرافقته في أخص لحظاته، وهم: بطرس، ويعقوب، ويوحنا نفسه. وفقاً للتقليد المسيحي، تُوفي يوحنا حوالي سنة 100م، وكان رحيله . بحسب زعم النصارى . نهاية العصر الرسولي<sup>2</sup>. وتاريخ تدوين يختلف المؤرخين كثيراً في زمن تدوين هذا الإنجيل<sup>2</sup>.

يُثار جدل كبير حول نسبة إنجيل يوحنا، حيث ينفي العديد من باحثي المسيحية أن يكون يوحنا بن زبديهو يوحنا بن زبدي، شقيق يعقوب الأصغر، الذي دعاه المسيح عليه السلام مع أخيه للتلمذة. ينتمي يوحنا إلى أسرة ميسورة الحال كانت تعمل في صيد الأسماك. بدأ حياته الروحية كتلميذ ليوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) قبل أن يصبح من أبرز تلاميذ المسيح عليه أحد تلاميذ المسيح المقربين - هو كاتبه الفعلي. ويعود هذا التشكيك إلى أواخر القرن الثاني الميلادي<sup>3</sup>، عندما بدأ علماء المسيحية يطرحون تساؤلاتهم حول هوية المؤلف الحقيقي. ويُرجح أن هذا الإنجيل كُتب خلال فترة الصراع اللاهوتي حول ألوهية المسيح، مما يدعو كثيراً من الباحثين إلى الاعتقاد بأنه دُوّن في القرن الثالث أو الرابع الميلادي، كرد فعل على تلك الجدالات العقائدية وكُتب الإنجيل باللغة اليونانية كسائر الأناجيل، ويضم واحداً وعشرين إصحاحاً<sup>4</sup>.

ألقي عليه القبض سنة 95م واقتادوه إلى روما حيث رماه الإمبراطور "دومتيانوس" في زيت يغلي، لكنه لم يصب بأذى، وقد لبث يشتر بالمسيحية بآسيا الصغرى حتى توفي شيخاً في حوالي سنة 100 أو 101م. -Dic. Univ. Hist. Géo., p. 952.

<sup>1</sup> - قاموس الكتاب المقدس، ص 1108/1109.

<sup>2</sup> - رؤوف شلبي، المرجع السابق، ص 49.

<sup>3</sup> - عبد الرحمن الميداني، المرجع السابق، ص 570.

<sup>4</sup> - ناصر المنشاوي، الجوانب الخفية من حياة المسيح، لا، ط، لا، ن، مصر، 2003م، ص 59.

لوقا لنفس الرجل الذي كتب له إنجيله، وهو ثاوفيلس كما نص هو على ذلك " الْكَلَامُ  
الْأَوَّلُ أَنْشَأْتُهُ يَا ثَاوُفِيلُسُ عَنْ جَمِيعِ مَا ابْتَدَأَ يَسُوعُ يَفْعَلُهُ وَيُعَلِّمُ بِهِ إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي ارْتَفَعَ فِيهِ  
بَعْدَ مَا أَوْصَى بِالرُّوحِ الْقُدُسِ الرُّسُلَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ" (أعمال الرسل: 1-2/1)

يُعد سفر أعمال الرسل وثيقة تاريخية ودينية مهمة في العهد الجديد، حيث يتتبع مسيرة  
التلاميذ بعد صعود المسيح وانتقالهم من حالة التلمذة إلى الرسالة. يسلط السفر الضوء على المحطات  
الرئيسية للحركة المسيحية المبكرة، بما في ذلك التحديات الجسيمة التي واجهها الدعاة الأوائل من  
اضطهاد وعذاب. يتميز السفر بتقديمه سرداً مفصلاً لحياة بولس الرسول، بدءاً من خلفيته كاضطهد  
للمسيحيين، مروراً بتجربة تحوله الدراماتيكية، ووصولاً إلى جهوده التبشيرية المكثفة في أنحاء  
الإمبراطورية الرومانية. كما يبرز السفر بشكل واضح المكانة المركزية التي احتلها بولس في تشكيل  
الهوية المسيحية وانتشارها بين الأمم، مع التركيز على رحلاته التبشيرية والأفكار اللاهوتية التي طورها،  
مما يجعله مصدراً لا غنى عنه لفهم تطور المسيحية في القرون الأولى<sup>1</sup>. أما تاريخ تأليفه فقد ألفه بعد  
باليونانية، ويتألف من ثمانية وعشرين إصحاحاً.

#### ب\_ الاسفار التعليمية (الرسائل):

تُعرف الأسفار التعليمية في التقليد المسيحي باسم "رسائل الرسل" أو "الرسائل الرسولية"،  
كما يُشار إليها في الإصلاح الكنسي بمصطلح "الأسفار التعليمية". تمثل هذه الرسائل تفسيراً  
تطبيقياً شاملاً لحياة السيد المسيح ومواعظه، حيث تقدم شرحاً تفصيلياً للمبادئ المسيحية وتصور  
المسار العملي للسلوك المسيحي وتتميز هذه الأسفار بأنها: تحدد الواجبات والالتزامات الدينية

<sup>1</sup> - أحمد علي عجيبة، تأثر المسيحية بالأديان الوضعية، ط1، دار الأفاق العربية، القاهرة، 2006م، ص150.

للمؤمنين، ترسم معالم الحياة اليومية للفرد المسيحي، تقدم رؤية مستقبلية للسلوك الإيماني وتعالج القضايا العملية في تطبيق التعاليم المسيحية.

تشكل هذه الرسائل العمود الفقري للمصادر المسيحية التعليمية، حيث تُعد مرجعاً أساسياً لفهم الجوانب التطبيقية للعقيدة. يبلغ عدد أصحابها الإجمالي اثنين وعشرين إصحاحاً، وتتميز بأسلوبها التوجيهي المباشر الذي يربط بين الجانب النظري للعقيدة والتطبيق العملي في الحياة اليومية للمؤمن<sup>1</sup> و تنقسم الى قسمين : القسم الأول:رسائل بولس،والقسم الثاني: الرسائل الجامعة(العامة).

### القسم الأول: رسائل بولس Paul:

تُمثّل رسائل بولس الرسول الجزء الأكبر والأكثر تأثيراً في مجموعة الأسفار التعليمية بالعهد الجديد، حيث تشكل وحدها نحو ثلث محتوى العهد الجديد بمجموع أربع عشرة رسالة تحتوي على مئة إصحاح. كُتبت هذه الرسائل باليونانية بين عامي 53 و67م<sup>2</sup> وفقاً للمؤرخ أندروملر. تنقسم هذه الرسائل إلى نوعين رئيسيين: عشر رسائل عامة موجهة لكنائس مختلفة، وأربع رسائل شخصية لبعض تلاميذه. تركز هذه الرسائل بشكل أساسي على شرح العقائد المسيحية كما فهمها بولس، مع إبراز خاص لعقيدة ألوهية المسيح والرد على معارضيهِ من التيار التوحيدى الذي حافظ على العقيدة الأصلية.

بالرغم من الأهمية الكبيرة التي تحظى بها هذه الرسائل اليوم، إلا أن الكنيسة لم تعتمدها رسمياً إلا في عام 364م خلال مجمع لاودكية. ومع الوقت، اكتسبت هذه الرسائل مكانة استثنائية في الفكر المسيحي، حتى أن بعض المذاهب اعتبرتها المصدر التشريعي الأساسي للمسيحية. تجدر

<sup>1</sup> - رؤوف شلبي، المرجع السابق، ص 81-82

<sup>2</sup> - يوسايبوس القيصري، المرجع السابق، ص 95.

الإشارة إلى أن هذه الرسائل تعكس رؤية بولس الخاصة التي تمايزت في جوانب عديدة عن التقاليد المسيحية الأولى، مما يجعلها موضوعاً للدراسة والجدل حتى يومنا هذا<sup>1</sup>.

رسائل بولس: والتي هي:

رسالة إلى أهل روما:

رومية (روما) هي مدينة عريقة أسسها الملك "رومولوس" عام 735 ق.م، ليصبح أول حاكم لها. وقد نمت هذه المملكة الصغيرة مع الزمن حتى تحولت إلى إمبراطورية عظيمة سيطرت على كامل حوض البحر الأبيض المتوسط، وأصبحت روما عاصمة للإمبراطورية الرومانية، قلب العالم القديم السياسي والثقافي وبحسب التقليد المسيحي، فإن الرسول بولس حصل على الجنسية الرومانية بالميلاد، مما منحه حقوقاً وحماية خاصة وقد كتب رسالته الشهيرة إلى أهل روما (أحد أسفار العهد الجديد) ليعلن فيها الإيمان المسيحي قبل وصوله إليها. وعندما ذهب أخيراً إلى رومية للتبشير، سُجن فيها ثم استشهد - على الأرجح - خلال اضطهاد الإمبراطور "نيرون" \*Neron حوالي عام 68م.

رسالتان إلى أهل كورنثوس:

كورنثوس - عاصمة مقاطعة أختائية اليونانية - كانت مركزاً تجارياً وثقافياً مهماً. وجّه بولس رسالتيه إليها حوالي عام 57م لمعالجة انقسامات طائفية نشبت بين المؤمنين، حيث انقسم البعض بين أتباع بولس وأتباع بطرس (صفا) حول طبيعة المسيح والقيادة الكنسية. تناولت الرسائل قضايا أخلاقية وعقائدية عميقة، مع التركيز على وحدة الجسد المسيحي (1 كور 12:12-27).

رسالة إلى أهل غلاطية:

<sup>1</sup> - أحمد شلبي، مقارنة الأديان 2 "المسيحية"، ط10، دار مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1998م، ص206.

غلاطية - المقاطعة الرومانية في قلب الأناضول - تلقت رسالة بولس حوالي 55-57م ردا على أزمة لاهوتية خطيرة، حيث اتهمه خصومه بالابتداع و"تزييف" الإنجيل لأنه حرّر المؤمنين من شرائع الشريعة الموسوية. دافع بولس بحدة عن إنجيل النعمة، مؤكداً أن التبرير بالإيمان وحده (غل 2:16).

### رسالة إلى أهل أفسس:

أفسس - العاصمة الآسيوية التي تعني اسمها "المرغوبة" - تلقت رسالة بولس أثناء سجنه في روما (62م تقريبا). تميّزت بعمقها اللاهوتي حول "سر المسيح" ووحدة الكنيسة كمحور خطة الله للبشرية (أف 1:9-10)، مع دعوة واضحة للتركيز على المسيح دون التشبث بالناموس.

### رسالة إلى أهل فيلبي:

فيلبي - المستعمرة الرومانية في مقدونيا - نالت رسالة حانية من بولس (63م) تفيض فرحا رغم ظروف السجن. حذّر فيها من المتهودين الذين يحولون الإنجيل إلى شريعة، وركّز على سمو معرفة المسيح (في 3:8). تحتوي أشهر نصوص التواضع المسيحي (في 2:5-11).

### رسالة إلى أهل كولوسي:

كولوسي - المدينة الفريجية الصغيرة - تلقت رسالة (62م) لمواجهة بدع تخلط المسيحية بفلسفات غنوصية وطقوسية. أكد بولس على سيادة المسيح الكاملة ("فيه يحل كل الملاء"، كو 1:19) وكفاية عمله الخلاصي.

### رسالتان إلى أهل تسالونيكي:

تسالونيكي - عاصمة مقدونيا التجارية - كانت من أوائل من تلقوا رسائل بولس (الأولى 52م). تناولت بشكل خاص قلق المؤمنين حول مجيء المسيح الثاني والقيامة، حيث صحّح بولس مفاهيم خاطئة عن الأزمنة الأخيرة (1 تس 4:13-18)

### رسالتان إلى تيموثاوس:

تيموثاوس - الابن الروحي والرفيق الأمين لبولس - تلقى رسالتين شخصيتين (حوالي 65-67م) تحتويان إرشادات رعوية ثمينة لقيادة الكنيسة في أفسس، مع تحذيرات من تعاليم زائفة وتأكيد على سلاسة الكتاب المقدس (2 تي 3:16). تعكس نضوج الفكر اللاهوتي البولسي في أواخر حياته.

### رسالتان إلى تيطس:

- الرفيق اليوناني الأمين لبولس - تلقى رسالتين (حوالي 64-66م) أثناء خدمته في كريت. تناولت الرسائل تنظيم الشؤون الكنسية ومواجهة "المعلمين الكذبة" الذين خلطوا المسيحية بخرافات يهودية (تي 1:14). تتميز بتعليمات عملية للقيادات الروحية حول صفات الشمامسة والأساقفة (تي 1:5-9).

### رسالة إلى فليمون:

فليمون - المسيحي الثري من كولوسي - تلقى أقصر رسائل بولس (حوالي 61م)، وهي وثيقة إنسانية فريدة تدعو إلى قبول العبد الهارب أونسييموس كأخ في المسيح (فل 16). تعكس الثورة الاجتماعية التي أحدثتها المسيحية في العلاقات الإنسانية.

### رسالة إلى العبرانيين:

العبرانيون - الجماعة المسيحية من أصل يهودي - تلقوا هذه التحفة اللاهوتية (بين 60-70م) التي تختلف عن الرسائل البولسية النموذجية في الأسلوب والمضمون. بينما تنسبها التقليد الشرقي لبولس، يشكك كثير من الدارسين (مثل لوثر) في نسبتها له. تركز على تفوق العهد الجديد وتجسيد المسيح لكهنوت ملكي صادق (عب 4:14-16)<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - محمد ضياء الرحمن الأعظمي، المرجع السابق، ص 387-385. وانظر المصادر النصرانية عرض ونقد، عبد الرزاق عبد المجيد الأرو، ص 603-

القسم الثاني: الرسائل الجامعة (الكاثوليكية):

رسالة يعقوب:

يعقوب البار - أخو الرب ورئيس كنيسة أورشليم - كتب هذه الرسالة العملية (حوالي 60م) التي تؤكد على الإيمان العامل (يع 2:17). أُستشهد عام 62م على يد حنّان الكاهن الأكبر، حسبما يذكر يوسيفوس ويوسابيوس القيصري<sup>1</sup>.

يوحنا الحبيب - تلميذ المسيح المعدود من أعمدة الكنيسة - كتب هذه الرسائل (90-95م) لمواجهة البدع الغنوصية المبكرة. تتميز الأولى برؤيتها الثالوثية وتحذيرها من "ضد المسيح" (1 يوحنا 2:22)، بينما تركز الثانية والثالثة على الحق والمحبة العملية.

رسالتان بطرس:

تُعتبر رسالتا بطرس من الكتابات المهمة في العهد الجديد، حيث يُنسبان إلى سمعان بطرس\*، أحد التلاميذ الاثني عشر المقربين ليسوع. بيد أن الدراسات النقدية الحديثة تطرح تساؤلات حول صحة هذه النسبة، نظراً لاختلاف.

الأسلوب الأدبي بين الرسالتين ولوجود إشارات إلى أحداث تاريخية متأخرة ربما تعود إلى فترة ما بعد استشهاد بطرس تروي التقاليد الكنسية أن بطرس قام بالتبشير في مناطق عديدة منها أنطاكية قبل أن ينتقل إلى روما حيث استشهد مصلوباً مقلوباً في عهد الإمبراطور نيرون.

<sup>1</sup> - عبد الرحمن الميداني، المرجع السابق، ص 573

تحتوي الرسالتان على تعاليم لاهوتية عميقة، حيث تركز الأولى على مفاهيم الاختيار الإلهي والكهنوت العام للمؤمنين، بينما تحدد الثانية من المعلمين الكذبة وتدافع بقوة عن عقيدة المجيء الثاني للمسيح. ومن الجدير بالذكر أن بعض الباحثين يشككون في نسبة الرسالة الثانية لبطرس مباشرة، ويُرجحون أنها كُتبت على يد أحد تلاميذه، كما يثار جدل حول علاقة بطرس بمرقس ويوحنا، وإن كانت النصوص نفسها تؤكد ألوهية المسيح، خلافاً لما يُزعم عن إنكار يوحنا لها. تبقى هذه الرسائل رغم الجدل العلمي حولها شهادات مهمة عن تطور الفكر المسيحي في القرون الأولى<sup>1</sup>.

### رسالة يهوذا:

تثير رسالة يهوذا - التي تنسب تقليدياً إلى الحوارى يهوذا تداوس (المعروف أيضاً بلباوس) - جدلاً واسعاً بين دارسي الكتاب المقدس فمن ناحية تقدم الرسالة دفاعاً حاداً ضد ما تصفه بالبدع المنحرفة في المسيحية المبكرة، لكنها من ناحية أخرى لم تحظ بقبول واسع في الكنيسة الأولى، حيث ظلت محل شك حتى القرن الرابع الميلادي. يشير المؤرخون مثل يوسابيوس القيصري إلى أن آباء الكنيسة الأوائل لم يعتبروها جزءاً من الأسفار المقدسة الموثوقة، كما يتجلى ذلك في غيابها عن النسخة السريانية المبكرة من العهد الجديد.

تتميز هذه الرسالة بخلوها من المفاهيم البولسية نسبة إلى بولس الاسكندري<sup>2</sup> المثيرة للجدل مثل بنوة المسيح الإلهية وعقيدة الفداء على عكس معظم رسائل العهد الجديد. وفي مقابل ذلك تبرز رسالة يعقوب كعمل أكثر قبولاً لتركيزها على الأخلاق والعضات العملية دون الخوض في الجدل اللاهوتي الحاد. هذا الاختلاف الجوهرى يطرح أسئلة عميقة حول مدى تمثيل هذه النصوص للتعاليم المسيحية الأصلية، ودرجة تأثيرها بالتطورات اللاحقة في الفكر المسيحي<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - نفسه، ص572

<sup>2</sup> - أريوس Arius الإسكندري (256م-336م)، ولا في "فورينائية" أو "الاسكندرية"، أسقف كنيسة الإسكندرية التي قاومها منذ أوائل القرن الرابع الميلادي والتي كانت تقول بالوهية المسيح، يلقب برشيد قومه، وهو أكبر تلاميذ "مار بطرس"، أعلن سنة 312م أن عيسى ليس إلها وأنه عبد مخلوق، قاوم عقيدة التثليث، أدانه مجمع نيقية المنعقد سنة 325م. 1113-1114 - Dic. Univ. Hist. Géo., pp.

<sup>3</sup> - ساجد مير، المرجع السابق، ص174

يُمثّل سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي أحد أكثر نصوص العهد الجديد إثارة للجدل والتأويل. كُتب هذا السفر الرؤيوي بين عامي 81-96م خلال عهد الإمبراطور دوميتيان ويُعتبر عملاً أدبياً ينتمي إلى نوع "الأبوكاليس" اليهودي-المسيحي. يتمحور السفر حول سلسلة من الرؤى الرمزية التي تدور حول نهاية الزمان، حيث يقدم تصويراً درامياً للصراع بين قوى الخير والشر، وينتهي بانتصار المسيح النهائي<sup>1</sup>.

على الرغم من نسبه التقليدية ليوحنا الحواري، فإن العديد من الباحثين يشككون في هذه النسبة بسبب الفروق الأسلوبية والعقائدية الواضحة بينه وبين إنجيل يوحنا، بحيث يحتوي السفر على إعلان صريح لألوهية المسيح (رؤيا 1:8)، كما يصور مشهد الحساب الأخير (رؤيا 11:20-15) بطريقة تختلف عن الأناجيل الأخرى و الجدير بالذكر أن الكنيسة الأولى ترددت في قبول هذا السفر، ولم يُضم رسمياً إلى قانون العهد الجديد إلا في القرن الرابع بعد جدل طويل<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - عبد الرحمن الميداني، المرجع السابق، ص 573 . وأنظر تاريخ الكنيسة، ص 94/95.

<sup>2</sup> - محمد ضياء الرحمن الأعظمي، المرجع السابق، ص 391

# الفصل الثاني :

المسيحية في بلاد المغرب القديم بين الظاهر و المعاش

---

أولاً\_ جذور المسيحية في بلاد المغرب القديم

1- طرق دخول المسيحية في بلاد المغرب القديم

ثانياً: الأسباب التي ساعدت على إنتشار المسيحية في بلاد المغرب القديم

1-أسباب إجتماعية

2-أسباب إقتصادية

ثالثاً: الصراعات و التحديات التي واجهتها المسيحية في بلاد المغرب

القديم

1-التأثيرات المحلية على الممارسات المسيحية

2-سياسة الإمبراطورية الرومانية المسيحية

3-نتائج إحتواء المسيحية من طرف السلطة الرومانية على بلاد المغرب القديم

تمهيد:

شكّلت المسيحية خلال العصور القديمة محور تحوّل ثقافي وديني في بلاد المغرب، حيث تفاعلت المبادئ الإنجيلية العالمية مع الواقع المحلي بكل تعقيداته. فبين نصوص العهد الجديد الداعية إلى المحبة والزهد والمساواة، وبين الممارسة الفعلية على الأرض، برزت هوية مسيحية مغاربية مميزة، تأثرت بالسياق التاريخي المتقلب بين الاضطهاد الروماني والقبول الإمبراطوري لاحقاً، و في هذا الفصل سنكتشف كيف تشكلت المسيحية في بلاد المغرب و الى أي حدّ وصلت إليه.

### أولاً- نشأة الديانة المسيحية في بلاد المغرب القديم

تعد سنة 180 للميلاد بداية التحول في التاريخ المسيحي لبلاد المغرب القديم، إذ لا نتملك قبل هذا التاريخ معلومات أكيدة حول المسيحية الأفريقية، وإن كان "ترتليانوس"<sup>1</sup> قد تحدث عن الوجود المسيحي بموريطانيا من قبل، وعند قبائل "الجيتول"، ولاحظ أن المسيحيين كانوا بأعداد كبيرة في عصره، إذ يقول: -« نحن أبناء الأمس، نملاً اليوم الأرض وممتلكاتكم من مدن وجزر ومواقع محصنة، وبلديات وضيعات ومعسكرات ومقابر، ومقر قيادة العشرة والقصر ومجلس الشيوخ والفوروم، ولم نترك لكم سوى المعابد، يمكننا إحصاء جيشكم، وأن مسيحيي مدينة واحدة أكثر منكم عدداً، إنه بإمكاننا هزيمتكم بالانفصال عنكم، بلا سلاح ولا تمرد، ولكن بهذا الطلاق البغيض<sup>2</sup>». وهذا يعني بأن المسيحية، وبحسب "ترتليانوس" كانت منتشرة انتشاراً واسعاً ببلاد المغرب القديم، أو على الأقل بإقليم البر وقنصلية، حيث كان "ترتليانوس" يستقر في مقر القيادة الرومانية آنذاك.

وإن لم تصلنا معلومات مؤكدة عن بداية ظهور المسيحية في بلاد المغرب القديم قبل عام 180 للميلاد؛ الذي شهد أولى الاضطهادات التي مارستها السلطة الرومانية ضد المسيحيين في

<sup>1</sup> - الترتليانوس، كرينتوس سبتيموس فلورس (Quintus Sybtilimus Florens Tertullianus)، ولد حوالي سنة 160 م من أبوين وثنيتين، كان والده عسكرياً، درس القانون بروما و مارس المحاماة بها، عرف المسيحية نحو سنة 193م، كان يقين بمدينة قرطاج حيق سخر معرفته لخدمة المسيحية ويعد من الأوائل الذين كتبوا عن الكنيسة الأفريقية، واجه الاضطهادات التي مارستها السلطة والوثنيون بكتابات و دفاعه المستميت عن المسيحية وأتباعها، توفي حوالي سنة 225م وترك مجموعة من المؤلفات منها الدفاع والمنافحة للمزيد ينظر، عادل فرج عبد المسيح، موسوعة آباء الكنيسة، ج.2، كنيسة شمال أفريقيا)، دار الثقافة، القاهرة، 1999، ص ص، 195\_155.

<sup>2</sup> - Tertullien, Apologétiques, XXXVII, pp. 4 - 6

## الفصل الثاني: المسيحية في بلاد المغرب القديم بين المبادئ الإنجيلية والواقع التاريخي

مدينة "سكيلى" (SCILLI<sup>1</sup>). ويعد هذا الحدث نقطة مفصلية في التاريخ المسيحي، ليس في بلاد المغرب القديم وحسب، ولكن في العالم الروماني ككل، إذ ظهر العداء جليا للمسيحية، وصار المسيحيون يتعرضون لكل أنواع الاضطهاد. يُبرز "ترتليانوس" كيف كانت السلطات الرومانية تُحمّل المسيحيين مسؤولية كل الكوارث الطبيعية، فيقول:

«إذا فاض نهر التبير وغمر أسوار المدينة، أو جف النيل ولم يروِ الحقول، وإذا حبست السماء المطر، أو هزت الأرض زلازلها، أو حلت المجاعة والطاعون، فإن الصيحات تتعالى على الفور: "ألقوا بالمسيحيين إلى الأسود"<sup>2</sup>». ويُعد هذا الاضطهاد علامةً فارقةً في تتبع انتشار المسيحية ببلاد المغرب القديم، إذ يظل تاريخ هذه الديانة في المنطقة قبل تلك الأحداث مجهولاً. فقد ساد الغموض حول وجود المسيحية خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين، حتى أُطلق على تلك الفترة اسم "التاريخ الأبيض للتنصير"<sup>3</sup>، نظرًا لانعدام الأدلة والشواهد التي تُثبت وصولها إلى المنطقة في ذلك الوقت.

تتعدد النصوص التاريخية التي تتناول جذور المسيحية في بلاد المغرب القديم، ومن أبرزها ما ذكره "ابن خلدون" (القرن 14 الميلادي)، حيث يربط بين انتشار المسيحية في المنطقة وبين الحواريين الأوائل، فيقول: «إن الذي أرسل إلى روما من الحواريين هو بطرس، وكان معه بولس من الأتباع (ولم يكن من الحواريين)، أما متى العشار وأندراوس فقد عبرا إلى أرض السودان والحبشة،

<sup>1</sup> - مدينة سكيلى؛ عرفت اضطهاد للمسيحيين في 17 جويلية 180م، حيث بلغ عدد شهداء المسيحية سبعة رجال وخمسة نساء، تمت محاكمتهم بمدينة قرطاج وإعدامهم، وإن كنا لا نعلم بالضبط موقع المدينة، إلا أننا نرجح بأنه كان بالقرب من مدينة قرطاج حتى تتخذها السلطة آنذاك كرمز لردع كل من يفكر في اعتناق المسيحية، وتم تقديس هؤلاء الشهداء، وحفظت جثثهم بإحدى الكنائس بمدينة قرطاج و تسمت باسمهم، للمزيد ينظر،

2-Hamman (A.), La geste du sang, Paris, 1953, pp. 60 - 6

<sup>2</sup> - Tertullien, XL,2,86

<sup>3</sup> - Aude (B), Les Chrétiens dans L'empire Romain, des Antonins au milieu du

وتوماس ذهب إلى بابل والشرق، وفيلبس أرسل إلى إفريقيا، وشمعون الكنعاني إلى برقة وأرض البربر<sup>1</sup>».

ويؤيد بعض المؤرخين، مثل "نيسيفور كاليكست" (Nicephore Callixte) من العصر البيزنطي، أن المبشر الرئيسي "بمصر" وقورينا (برقة) و"طرابلس" كان القديس "مرقس"<sup>2</sup>. بينما يذكر "لوهاب بن مونابي" (توفي بين 961-1038م) أن المرسل إلى "القيروان" كان يُدعى "فيليب"<sup>3</sup> كما تُشير وثيقة أخرى من "البابا غريغوار الكبير" (Grégoire le Grand) إلى استجابةٍ لطلبٍ رسمي من أساقفة "نويا" (Nouia)، يؤكد فيها على حقهم في الحفاظ على تقاليدهم الكنسية القديمة، والتي تعود - بحسب النص - إلى بدايات التبشير في عهد القديس "بيير" (St. Pierre) أمير الحواريين<sup>4</sup>..

في المقابل، يُشير "القديس أغسطين"<sup>5</sup> في مناظرته لخصمه "بيتيليانوس السيرتي إلى تأخر وصول المسيحية إلى إفريقيا مقارنة بباقي أنحاء العالم، قائلاً: "يقال لنا: كنا الآخريين، وسنصير

<sup>1</sup> - عبد الرحمان بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن سبقهم من ذوي السلطان الأكبر، ج2، بيروت، 1968، ص 294.

<sup>2</sup> - Mesnage, (J P), Le Christianisme en Afrique (L'origine développement et extension ), Alger - Paris, ,1914, PP,30-31.

<sup>3</sup> - Ibid, p, 30.

<sup>4</sup> - Monceaux (P.) , H.L.A.C., T,1,1904, p.6.

<sup>5</sup> - القديس غسطين، ولد بتغاست في 13 نوفمبر 354 م، كان الابن الأكبر لأمه مونيكا التي منحت لقب قديسة، وأبيه باتريسيوس الذي كان وثنياً، على الرغم من تأثير أمه على موقفه الديني عندما كان صغيراً، وتلقى تعليمه الأولي في مسقط رأسه و الثانوي في مدينة "مدور" قبل أن ينتقل إلى قرطاج، كان من أتباع الديانة المانوية، ارتكز أسلوب حياته على المتعة فقط وشمل ذلك علاقته غير الشرعية بامرأة خمسة عشر عاماً والتي أنجب منها ولداً ثم رحل إلى حيث تلقى تعليمه بها فيما بعد وأتم معموديته بميلانو، ودرس الفلسفة، الخطابة وفن الإقناع الذي استعمله فيما بعد في القضاء بميلانو التي عمل بها كأستاذ للخطابة، حاولت أمه وأسقف ميلانو إقناعه بأن يصبح كاثوليكياً لكنه بعد أن تخلى عن المذهب المانوي قرر التوجه إلى مذهب الأفلاطونية المحدثة وهي ديانة وثنية. تقلبت حياته فيما عندما قرأ عن القديس أنطونيو حيث قرر التوجه نحو الديانة المسيحية و التفرغ لخدمة لخدمتها. من أشهر كتبه "إعترافات" ومدينة الله في سن السابعة والثلاثون عُين كاهناً وأصبح مبشراً معروفاً في مدينة "هيبو ريجيوس" إلى أن أصبح مساعداً لأسقفها ثم أسقفها لها، حارب البدع والهرطقة وأعلن الحرب على الدوناتية. توفي في 28 أوت سنة 430م، سن الخامسة والسبعين. للمزيد ينظر،

HENRI MARROU , SAINT AUGUSTIN et l'augustinisme, éd., SEUL, Paris, 1973, p. let suiv.

الأوائل". نعم، لقد وصل الإنجيل متأخراً إلى إفريقيا، ورسائل الحواريين نفسها لم تذكر أن هذه المنطقة قد تلقت العقيدة<sup>1</sup>.

وهكذا يظل أصل المسيحية في بلاد المغرب القديم غامضاً ومحاطاً بالالتباس. لكن المؤكد أن هذه الديانة، في مراحلها الأولى، اتبعت أسلوباً قائماً على السرية والكتمان وذلك بسبب الاضطهادات الشرسة التي تعرض لها أتباعها، ليس في شمال إفريقيا فحسب، بل حتى في موطنها الأصلي بفلسطين. هذه الظروف القاسية دفعت المسيحيين الأوائل إلى اعتماد سياسة التستر كوسيلة للبقاء ونشر العقيدة في الخفاء. .

### 1- طرق دخول المسيحية إلى بلاد المغرب القديم:

يتميز بلاد المغرب القديم بموقع جغرافي استراتيجي سهل انتشار المسيحية فيه، حيث كان متصلاً شرقاً عبر مصر وشمالاً عبر البحر المتوسط مع روما، كما أسهمت شبكة الطرق التجارية الرومانية في تعزيز هذا الانتشار. وقد شهد القرن الأول الميلادي ظروفاً سياسية ودينية دافعت بهجرة المسيحيين إلى المنطقة، لاسيما بعد الاضطهادات التي تعرضوا لها في القدس على يد اليهود والرومان، ولا سيما خلال عهد الإمبراطور نيرون سنة 70م التي أدت إلى تشتيت السكان.

ويشير المؤرخ بول مونصو إلى أن المسيحية وصلت إلى المنطقة عبر مسارات متعددة، فإلى جانب البعثات الرومانية، جاءت تأثيرات شرقية مباشرة من مصر والشام، فضلاً عن التأثير اليوناني الهلنستي، ما يفسر تعدد مصادر الكنائس المحلية. وتجسدت هذه الروافد الثقافية في أعمال آباء الكنيسة مثل ترتليانوس الذي أظهر إماماً واسعاً بالأدب المسيحي اليوناني، كما تُرجمت كتاباته إلى الإغريقية، مما يؤكد طبيعة التلاحق الثقافي والديني الذي ميز المسيحية المبكرة في المغرب القديم<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> Monceaux (P.), H.L.A.C., T, 1, p.6.-

<sup>2</sup> Ibid , p.7.-

يقتصر التأريخ للمسيحية المبكرة في المنطقة على كتابات الآباء المؤسسين أمثال "ترتيانوس" و"قيريانوس"<sup>1</sup>، الذين تميزوا بثقافتهم الواسعة وقدرتهم الفائقة على الجدل اللاهوتي ويُعد اضطرهاد عام 180م - كما ذكر سابقاً - أول شهادة موثقة عن وجود المسيحيين في بلاد المغرب القديم. وبينما يرى بعض الباحثين أن المسيحية انتشرت أولاً بين الطبقات الدنيا التي فقدت إيمانها بالوثنية، فإن هذه الفرضية تتناقض مع البنية القبلية السائدة في المجتمع المغربي القديم، حيث كان الانتماء الديني جماعياً أكثر منه فردياً وتشير الدلائل التاريخية إلى أن التحول إلى المسيحية لم يشمل قبائل بكاملها بل ظهرت المسيحية بشكل أساسي في المراكز الحضرية، حيث كانت التعددية الثقافية أكثر وضوحاً<sup>2</sup>.

يستند المؤرخ بول مونصو في تحليله لانتشار المسيحية ببلاد المغرب القديم إلى شهادات تاريخية تؤكد وصولها من الشرق قبل البعثات الرومانية، مستدلاً برواية القديس أوغسطين التي تشير إلى تعدد مصادر الكنائس الأفريقية. فمدينة قرطاج - بحسب هذه الرؤية - تلقت المسيحية عبر ثلاثة مسارات متوازية: من الشرق عبر المشرق العربي ومصر، ومن الغرب عبر روما، ومن الشمال عبر التأثيرات الهلنستية اليونانية. وتؤكد هذه النظرية الشواهد الثقافية المتمثلة في استمرار التأثير الإغريقي حتى القرن الثالث الميلادي، وإتقان ترتليانوس - أحد أبرز آباء الكنيسة الأفارقة - للفكر واللغة اليونانية، فضلاً عن تعدد اللغات في النصوص المسيحية المبكرة بالمنطقة، مما يدل على غنى وتنوع المصادر التي شكلت الوجود المسيحي المبكر في المغرب القديم.

<sup>1</sup> - قيريانوس سياسيليوس (Caecilius Cyprianus)، ولد حوالي سنة 210 م بقرطاج من عائلة وثنية ثرية ذات ثقافة عالية، تأثر بفكر "ترتيانوس"، آمن بالمسيحية ما بين سنتي 246\_245 م، ووهب جميع أمواله للفقراء، أنتخب أسقفاً لمدينة قرطاج سنة 249 م، وتعرض للنفي بعد اضطهادات الإمبراطور "ديوسيوس" لمدة إحدى عشرة شهراً، وأدين بقطع رأسه مما أجبره على التخفي وتوجيه رسائل إلى الكهنة والمؤمنين بالمسيحية، عاد إلى قرطاج في ماي 251 م.

<sup>2</sup> - Audollent, Carthage romaine(146AJC-698 JC),éd., A, Fontiémoining ,Paris, 1901, P.443

Monceaux (P.), H.L.A.C., T. 1,p.7.

أ\_ عن طريق الشرق:

شهدت ليبيا القديمة تعدداً وثنياً بلغ حد الفوضى الدينية، مما هيأ أرضية خصبة لاستقبال المسيحية كعقيدة جديدة. وقد وجدت هذه الديانة الفرصة سانحة للانتشار بين بعض الشرائح الاجتماعية، لاسيما في ظل البيئة الحضارية المتقدمة التي تميزت بها منطقة المدن الخمس (البتابوليس) اليونانية.

وقد أسهمت هذه الخلفية الثقافية المتميزة - التي أنجبت عدداً من العلماء والأدباء - في جعل المسيحية في قورينا (شحات الحالية) ظاهرة فكرية وفلسفية تستحق الدراسة العميقة، حيث تجاوزت حدود الممارسات الطقسية والرموز الدينية لتقدم إسهاماً ملموساً في تطور الفكر المسيحي المبكر<sup>1</sup>.

شكلت الموقع الاستراتيجي لليبيا القديمة عند ملتقى طرق العالم القديم عاملاً حاسماً في انتشار المسيحية المبكرة فيها، فاتصالها البحري عبر المتوسط وبتراً مع مصر من الشرق سهّل حركة التنقل وانتشار الأفكار الدينية وفي هذا السياق التاريخي، برزت حماسة المسيحيين الأوائل من فلسطين وجنوب أوروبا لنشر عقيدتهم الجديدة.

تشير النصوص الدينية إلى وجود اتصال مبكر بين الليبيين والمسيحية، حيث يذكر العهد الجديد أن "بعض الليبيين كانوا بين الآلاف الذين آمنوا بالمسيح في تلك الأيام"<sup>2</sup>. ويؤكد المؤرخ بول مونصو أن المبشرين القادمين من آسيا الصغرى بدأوا دعوتهم من داخل المجتمعات اليهودية (Synagogues) في قرطاج ومدن ساحلية أخرى.

هذا الانتشار الأولي شكّل مسيحية محلية متميزة عن مركزية روما، حيث تحوّلت بعض المجتمعات اليهودية إلى كنائس مسيحية مبكرة وتشهد مقبرة "جمارت" (Gamart) على هذا

<sup>1</sup> - محمد مصطفى بازمان، "المسيحية في ليبيا"، مجلة الفصول الأربعة، العدد، 4، تصدر عن اتحاد الأدباء والكتاب لليبيا، طرابلس، 1978، ص

21.

<sup>2</sup> - النجيل لوقا، فصل.2، فق. 10.

التعاشيش الديني الفريد، حيث اكتُشفت قبور مسيحية داخل مقبرة يهودية<sup>1</sup>، مما يدل على مرحلة انتقالية مهمة في التاريخ الديني للمنطقة.

تشير الأدلة التاريخية إلى أن المسيحية المبكرة في شمال إفريقيا قد وجدت ملاذاً ودعمًا في المجتمعات اليهودية المنتشرة بالمنطقة، حيث لعبت المعابد اليهودية (البيع) دوراً محورياً كمراكز أولية للتبشير المسيحي. تؤكد النقوش الأثرية - مثل النقيشة العبرية من ويلي التي تعود للقرن الأول الميلادي والتي تذكر ابنة أحد الحاخامات - وجود مستوطنات يهودية مزدهرة في مدن رئيسية كسيرتا (قسنطينة حالياً) وسيتيفيس (سطيف) بالإضافة إلى مناطق داخلية أخرى.

هذه الشبكة الواسعة من المجتمعات اليهودية، التي يعود بعضها إلى القرن الأول الميلادي<sup>2</sup> كما تدل على ذلك المقابر اليهودية المنتشرة، شكلت البنية التحتية التي سهلت انتشار المسيحية في مراحلها الأولى. وتكشف الآثار - مثل المقابر المسيحية المكتشفة ضمن مقابر يهودية - عن علاقة تكافلية بين الديانتين في تلك الفترة التأسيسية، حيث استفاد المبشرون المسيحيون الأوائل من هذه الشبكة اليهودية الراسخة لنشر رسالتهم بين السكان المحليين<sup>3</sup>.

لقد شكلت الإسكندرية - بحكم موقعها الاستراتيجي كنقطة تلاقي تجاري وثقافي بين الشرق والغرب - معبراً حيوياً لانتشار المسيحية المبكرة. وقربها الجغرافي من فلسطين، مهد الديانة المسيحية، سهل انتقال الأفكار والمعتقدات الجديدة<sup>4</sup>. وقد وجدت هذه الديانة قبولاً واسعاً بين الجاليات اليهودية المستقرة حول بحيرة مريوط، حيث انخرطت خاصة طائفة "الإسينيين" (Esséniens) في

<sup>1</sup> - Monceaux (P.), H.L.A.C., T,1, pp,8-9 . ;-François Décret, Le Christianisme en Afrique du Nord Ancienne, éd., du Seuil ,Paris, 1996, p.23.

<sup>2</sup> - Dominique Arnauld, Histoire du Christianisme en Afrique, les sept (7) premiers siècles, éd.,Kantada, Paris, 1996, p.58.

<sup>3</sup> - Mesnage (J.P.) , op-cit, p. 27.

<sup>4</sup> - إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية، ج1، تر.، محمد علي أبو درة، ط.2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997، ص

تبنى المسيحية بعد أن تخلت عن كثير من طقوسها التقليدية، واتجهت نحو حياة الزهد والتقشف التي توافق كثيراً مع المبادئ المسيحية الأولى.

تشير الروايات الإنجيلية والتاريخية إلى أن "سمعان القيرواني" - ذلك الرجل الآتي من قورينا<sup>1</sup> \*(شحات الليبية) - لعب دوراً محورياً في قصة الصلب، حيث تم إجباره على حمل صليب المسيح أثناء مروره بالقدس ورغم أن المصادر تؤكد أنه لم يكن مؤمناً بالمسيحية في تلك اللحظة، بل كان مجرد مزارع قيرواني ربما جلب من برقة إلى فلسطين، إلا أن هذه الحادثة أصبحت نقطة تحول في تاريخ عائلته<sup>2</sup> فقد تحول ابنه "الكسندروس" و"روفوس" لاحقاً إلى شخصيتين بارزتين في المسيحية المبكرة، حتى أن التقليد الكنسي يذكر أن الإنجيلي مرقس قد كتب إنجيله خصيصاً لهذين الأخوين، مما يؤكد الدور الليبي المهم في تشكيل التاريخ المسيحي الأول<sup>3</sup>.

تشير المصادر التاريخية إلى مشاركة فعالة لليبيين في نشر المسيحية منذ أيامها الأولى فخلال عيد الفصح في أورشليم، استمع عدد من الليبيين - ضمن حشد يقدر بثلاثة آلاف شخص - إلى خطاب القديس بطرس الرسول عن ضرورة الإيمان بالمسيح كمخلص<sup>4</sup> وقد شكلت هذه اللحظة نقطة تحول مهمة، حيث اعتمد بعض الليبيين وعادوا إلى وطنهم حاملين بذور الإيمان الجديد، ليس لعائلاتهم فحسب، بل لعموم المجتمع الليبي<sup>5</sup>.

لم يقتصر دور الليبيين على حدود بلادهم، بل امتد إلى مناطق أخرى من العالم القديم فبعضهم توجه إلى أنطاكية، حيث شاركوا في التبشير بين اليونانيين ومن بين الشخصيات البارزة في

<sup>1</sup> - قورينة ( Kurana ) ( سيرين شحات الحالية )، بالساحل الليبي الشرقي، بناها الإغريق كمستوطنة لهم على موقع قبيلة الاسبيتاس ( Asbystars ) الليبية، في حدود سنة 631 ق.م ويذكر "هيرودوت" بأن الليبيين قد ساعدوا الإغريق على اختيار موقع قورينة، والتي هي بحسب الأسطورة اسم لفتاة إغريقية شغف بها الإله "أبولو"، وراح يجري وراءها من اليونان حتى ليبيا، حيث تمكن منها للمزيد من المعلومات ينظر، عبد اللطيف محمود البرغوثي، التاريخ الليبي القديم، (من قدم العصور حتى الفتح الإسلامي) ج. 1، نشر تواليت، بلا. تا، ص. 161-160.

<sup>2</sup> - إنجيل مرقس، فصل 05، فق.، 25.

<sup>3</sup> - محمد مصطفى بازامة، المرجع السابق، ص. 23 - 22.

<sup>4</sup> - سفر أعمال الرسل، ج. 10.

<sup>5</sup> - سفر أعمال الرسل، ج. 41.

كنيسة أنطاكية نجد "لوقيوس القيرواني" إلى جانب "برنابا" و"سمعان الملقب بالأسود"<sup>1</sup> كما برز من بين القورينيين مجموعة من المبشرين والرسل الذين حملوا الرسالة المسيحية إلى مناطق بعيدة، مما يؤكد دورهم المحوري في الانتشار الأول للمسيحية خارج فلسطين<sup>2</sup>.

### ب\_ عن طريق التجارة:

لقد شكلت قرطاج مركزاً تجارياً حيوياً في البحر المتوسط، تربط الشرق بالغرب عبر شبكة علاقات ممتدة مع قورينا والإسكندرية وصور وصيدا. وبعد السيطرة الرومانية، تحولت المنطقة إلى مصدر رئيسي لإمدادات روما، مما زاد من كثافة التبادلات التجارية والثقافية. في هذا المناخ الحيوي، لعبت التفاعلات اليومية بين تجار قرطاج والجاليات اليهودية

والموظفين الرومان دوراً محورياً في خلق حراك ديني وفكري. حيث عمل التجار اليهود كجسور ثقافية، بينما نقل الموظفون الرومان والمتحولون من مختلف الأصول أفكاراً وتيارات دينية جديدة. هذه الديناميكية التجارية-الثقافية خلقت بيئة خصبة ساهمت في انتشار المسيحية لاحقاً، مستفيدة من البنية التحتية للجاليات اليهودية وطبيعة المجتمع القرطاجي المنفتح على الأفكار الجديدة<sup>3</sup> حيث شكلت مدينة قورينا (شحات) ميناءً تجارياً حيوياً ومزدهراً في ليبيا القديمة، حيث التقى التجار اليهود والفينيقيون بالسكان المحليين ووافدين من مختلف أنحاء حوض المتوسط. هذا التفاعل الثقافي والديني المكث خلق بيئة خصبة لانتقال الأفكار الدينية الجديدة، بما فيها المسيحية، إلى المنطقة<sup>4</sup> وفي السياق نفسه، مثلت قرطاج مركزاً تجارياً استراتيجياً وملتقى للطرق البحرية الرئيسية، حيث ارتبطت بشبكة تجارية واسعة شملت: - روما (المركز السياسي للإمبراطورية)

- اليونان (مصدر الثقافة الهلنستية)

<sup>1</sup> - سفر أعمال الرسل، ج. 20.

<sup>2</sup> - محمد مصطفى بازامة، المرجع السابق، ص. 24.

<sup>3</sup> - Dominique (A.), op. cit , P.60.

<sup>4</sup> - روبين دانيال، أصول التراث المسيحي في شمال إفريقيا ( دراسة تاريخية من القرن الأول إلى القرون الوسطى)، تر.، سمير مالك، دار منهل الحياة، بيروت، 1999، ص. 47.

- مصر وسوريا (مراكز دينية رئيسية)

- آسيا الصغرى (جسر بين الشرق والغرب)

هذه الشبكة التجارية المتطورة لم تنقل فقط السلع المادية، بل شكلت أيضاً قنوات فعالة لانتشار الأفكار والمعتقدات الدينية. فالنظام الملاحي الروماني المنظم، مع تركيزه على الربط بين هذه المراكز الحضارية، وفر مسارات طبيعية لانتشار المسيحية عبر البحر المتوسط نحو بلاد المغرب القديم<sup>1</sup>.

### عن طريق الرسل:

إلى جانب الطرق التجارية والملاحة البحرية، شكّل الرسل والمبشرون قناة أساسية لوصول المسيحية إلى المنطقة. ويذكر المؤرخ "نيسفور كاليكستي" (Nicéphore Calixte) دور القديس "مرقس" (Marc) الذي يُعتبر أحد أبرز المبشرين الأوائل، حيث حمل الرسالة المسيحية إلى مصر وقورينا (برقة)، وترك بصمته في المنطقة. وتشير الروايات إلى أنه أقام فترةً في برقة، وربما لجأ إلى وادٍ عُرف لاحقاً باسم "وادي مرقس" في الجبل الأخضر هرباً من اضطهاد الرومان، حيث اختبأ بين شعابها وأوديتها حتى هدأت الأوضاع و لم يكن القديس مرقس الوحيد الذي وصل إلى هذه المناطق، بل تبعه عدد من القساوسة والمبشرين الذين توسعوا في نشر المسيحية، فتوجهوا إلى مناطق أبعد داخل بلاد المغرب القديم. وقد ساهم هؤلاء الدعاة في ترسيخ الإيمان المسيحي، لا سيما في المناطق التي كانت تتقاطع فيها الطرق التجارية والثقافية، مما سهّل انتشار الأفكار الدينية الجديدة وتكوين مجتمعات مسيحية مبكرة.

انتشرت المسيحية في إقليم إفريقيا عبر الطريق الساحلي الممتد من الإسكندرية إلى طرابلس ثم قرطاج، حيث قام المبشرون والقساوسة - وفقاً لما يذكره "نيسفور" - ببناء العديد من الكنائس في هذه المناطق<sup>2</sup> ويُرجح أن القديس مرقس قد وصل إلى برقة حوالي عام 40م، حيث مكث فيها واحداً وعشرين عاماً قبل أن يغادر إلى الإسكندرية عام 61م. هناك أسس مرقس العديد من

<sup>1</sup>- François Décret , op.c.it, p.21.

<sup>2</sup>- Mesnage (P.J .) , op-cit , P.31.

الأبرشيات والكنائس، وقضى سنتين يشرف على كنيسة الإسكندرية قبل أن يعود إلى برقة ليؤسس أول كنيسة فيها. غير أن إقامته ببرقة هذه المرة كانت قصيرة، إذ سرعان ما عاد إلى الإسكندرية حيث استشهد في 25 أبريل عام 63م<sup>1</sup>.

يُعتبر القديس مرقس أحد أركان المسيحية الأولى، حيث أُلّف أحد الأناجيل الأربعة المعتمدة. وقد دوّن إنجيله باللغة اليونانية<sup>2</sup> بعد إلحاح المؤمنين الذين طالبوه بتدوين التعاليم التي تلقوها شفهيًا، حتى استجاب لطلبهم<sup>3</sup> وتشير الدراسات إلى أصوله القورينية (برقة)، حيث لم يكن من سكان أورشليم الأصليين، بل كان يوناني الثقافة، وهو ما يفسر كتابته لإنجيله باليونانية بدلاً من العبرية مثل متى<sup>4</sup>.

وقد ترك القديس مرقس إرثاً عميقاً في شمال أفريقيا، حيث يُعتقد أنه أسس أول كنيسة ببرقة قبل تأسيسه لكنيسة الإسكندرية. وتذكر مصادر تاريخية أن "لوقيوس" القوريني كان أول أسقف لبرقة، مما يؤكد الصلة المبكرة للمنطقة بالمسيحية منذ بدايات انتشارها<sup>5</sup> هذا التراث الثقافي والديني يظهر جلياً في كتابات آباء الكنيسة اللاحقين مثل ترتليانوس في القرن الثالث، الذين حافظوا على التقليد اليوناني في الكتابة اللاهوتية.

لقد أثارت المسيحية المبكرة حماسة كبيرة بين معتنقيها، حيث تحول الإيمان إلى قوة دافعة غيرت أنماط حياتهم بشكل جذري. فبحسب الروايات التاريخية، قام العديد من المؤمنين الأوائل ببيع ممتلكاتهم وتوزيع عائدها على الفقراء، ثم تركوا منازلهم ليتفرغوا كلياً للتبشير بهذه الديانة الجديدة. وقد اتسمت جهودهم بالتنظيم، حيث قاموا بتعيين دعاة جدد وتكليفهم بمتابعة العمل التبشيري، كما

<sup>1</sup> - محمد مصطفى بازامة، المرجع السابق، ص. 26.

<sup>2</sup> - محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص. 45.

<sup>3</sup> - يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، تر. مرقص داود، مكتبة الحكمة، مصر، 1 / 15، 1999، ص. 72.

<sup>4</sup> - محمد مصطفى بازامة، المرجع السابق، ص. 27.

<sup>5</sup> - نفسه، تاريخ ليبيا، ج. 8، (في عهد الخلفاء الراشدين)، مؤسسة ناصر للثقافة، طرابلس، بلا. تا، ص. 60.

## الفصل الثاني: المسيحية في بلاد المغرب القديم بين المبادئ الإنجيلية والواقع التاريخي

نقلوا معهم نصوصاً من الأسفار المقدسة، كانت في غالبيتها مكتوبة باليونانية - اللغة التي سادت في الكتابات المسيحية المبكرة بشمال إفريقيا<sup>1</sup>.

وساهمت الشبكة التجارية المتوسطة المزدهرة في تسهيل حركة هؤلاء المبشرين، حيث انتقلوا من فلسطين إلى مختلف أنحاء المغرب القديم، مع تركيز خاص على قرطاج التي شكلت المركز الرئيسي للانتشار المسيحي الأول في المنطقة<sup>2</sup>.

. وقد نمت الحركة التبشيرية بشكل متصاعد، خاصة في المناطق الساحلية التي كانت تشهد حركة تجارية ونشاطاً سكانياً مكثفاً، مما وفر بيئة مناسبة لاستقبال الأفكار الدينية الجديدة<sup>3</sup>.

شكلت الطرق التجارية البحرية قنوات حيوية لانتشار المسيحية في شمال إفريقيا، حيث كانت السفن التجارية المبحرة عبر المتوسط - المحملة ببضائع قبرص وأورشليم ودمشق والإسكندرية - تحمل أيضاً عدداً كبيراً من المسافرين. وبحسب سفر أعمال الرسل، لم يكن هؤلاء المسافرون مجرد تجار، بل ضموا في صفوفهم مبشرين مسيحيين انتقلوا بسهولة بين الموانئ<sup>4</sup> وقد شجعت هذه الشبكة الملاحية المتطورة مسيحيي فلسطين وجنوب أوروبا على تنظيم جهود تبشيرية منظمة.

ومع مرور الوقت، ازداد عدد معتقي المسيحية رغم صعوبة تحديد الفئات الاجتماعية الأولى التي اعتنقتها. فإذا كان التجار والبحارة قد لعبوا دوراً في نقل أخبار هذه الديانة، فإنهم لم يكونوا المؤهلين لنشرها بشكل منهجي<sup>5</sup> غير أن الطرق التجارية نفسها - وخاصة تلك الممتدة من أورشليم والإسكندرية، المركزين الرئيسيين للتبشير المسيحي - شكلت قنوات طبيعية لانتشار العقيدة الجديدة

<sup>1</sup> - روبين دانيال، المرجع السابق، ص. 48.

<sup>2</sup> - روبين دانيال، المرجع السابق، ص. 48.

<sup>3</sup> - Mesnage (J.P.) , op.cit , P.104.

<sup>4</sup> - روبين دانيال، المرجع السابق، ص. 46.

<sup>5</sup> - محمد مصطفى بازامة، "المسيحية في ليبيا"، ص. 29.

<sup>1</sup> وقد ساعدت حركة السفن المنتظمة على طول الساحل الإفريقي في ترسيخ وجود مسيحي متنامٍ في المدن الساحلية الرئيسية.

لقد استفاد المسيحيون الأوائل من الظروف السياسية والاجتماعية التي سادت الإمبراطورية الرومانية، رغم موجات الاضطهاد المتقطعة التي شنها بعض الأباطرة مثل نيرون وتراجان خلال القرن الأول الميلادي. ويبدو أن صمودهم أمام هذه الاضطهادات زاد من قوة انتشارهم، حيث يشهد ترتليانوس في القرن الثاني الميلادي عن نمو كبير في أعدادهم بقوله: "بجد جماهير كبيرة تشكل الأكثرية تقريباً في كل مدينة، إننا نملأ الأرض وأعدادنا كبيرة في كل إقليم"<sup>2</sup>.

بل إن ترتليانوس قد قدر عدد المسيحيين في إفريقيا بمائة ألف، وهو رقم يرى الأب "ميناج" أنه مبالغ فيه وغير دقيق<sup>3</sup> ومع ذلك، فإن هذه الشهادة تعكس الانطباع السائد عن الانتشار الواسع للمسيحية في تلك الفترة، خاصة في المناطق الحضرية حيث كانت الحركة التبشيرية أكثر فعالية.

يُعتبر تصريح ترتليانوس حول الانتشار الواسع للمسيحية في شمال إفريقيا محلّ نظر من قبل المؤرخين، حيث يرجح أنه تضمّن قدرًا من المبالغة والدعاية الدينية، هدفها تحدي السلطة الرومانية معنوياً وتشجيع المؤمنين الجدد. فالواقع التاريخي يشير إلى أن المجتمعات المسيحية (التي كانت تجتمع في "البيع" أو دور العبادة) كانت محدودة العدد مقارنةً بالمجتمع العام، وتركزت أساساً في المناطق الحضرية، بينما ظلت الأرياف أقل تأثراً بهذه الديانة الجديدة .

<sup>1</sup> - Hamman (A.G.), La vie quotidienne en Afrique au temps de Saint Augustin, Hachette, Paris, \$ 1979, p.25.

<sup>2</sup> - Tertellian ,Apologétique, XXXVII, 4, 79.

<sup>3</sup> - Mesnage (J.P.),op.cit, P.103.

ومع ذلك، لا يمكن إنكار أن المسيحية شهدت تسارعاً ملحوظاً في الانتشار بعد مرحلة "عصر الشهداء" التي بدأت مع اضطهاد عام 180م، حيث عززت سياسة الاضطهاد الروماني - التي نظرت إلى المسيحية كتهديد للسلطة - من تماسك الجماعات المسيحية وانتشارها<sup>1</sup>. أما بالنسبة للفترة السابقة لهذه الأحداث، فإن غياب المصادر الموثوقة والأدلة الأثرية الكافية يجعل معرفتنا بها ضبابية، إذ أغفلت المصادر المعاصرة ذكر المسيحية في المغرب القديم قبل منتصف القرن الثاني الميلادي، مما خلق فجوة تاريخية يصعب تعبئتها بشكل قاطع.

يقدم الباحثون وجهات نظر متباينة حول انتشار المسيحية في بلاد المغرب القديم. فبحسب "ميناج"، مرت هذه الديانة بمرحلتين رئيسيتين: الأولى ارتبطت بجهود الرسل الأوائل، بينما الثانية تزامنت مع التوسع الاستيطاني الروماني<sup>2</sup> وقد شهدت المسيحية دفعة قوية بعد اعتمادها كديانة رسمية للإمبراطورية في عهد قسطنطين عام 312م، حيث انتشرت بشكل أوسع وتم تشييد الكنائس في مختلف المدن.

ويستند "فرانسوا ديكره"<sup>3</sup> إلى أدلة أثرية تثبت قدم الوجود المسيحي في المنطقة، حيث تم العثور على نقوش مسيحية تعود لنهاية القرن الأول الميلادي في حدرموت (سوسة الحالية). هذه الاكتشافات تشير إلى أن جذور المسيحية الإفريقية أعمق مما كان يُعتقد سابقاً، وأن انتشارها بدأ قبل فترة طويلة من الاعتراف الرسمي بها.

### عن طريق روما:

تشير المصادر التاريخية إلى خلاف بين المؤرخين حول هوية الرسول الذي أدخل المسيحية إلى روما فبحسب "يوسابيوس القيصري"، فإن الرسول "بطرس" هو من نقل "نور الإيمان" من الشرق إلى الغرب خلال حكم الإمبراطور "كلوديوس" (41-54م)، حيث وصفه بأنه ناقل بضاعة نور الذهن

<sup>1</sup> - Hedi Slim ,Ammar Mahjoubi, Khaled Belkhoja, et Abdelmajid Ennebli, Histoire Générale de la Tunisie, T.1, L'antiquité, Sud Editions, Tunis, 2006, P.286.

<sup>2</sup> - Mesnage (J.P.),op-cit. , P. 43.

<sup>3</sup> - François Décret, op.cit, P.20.

النفسية ومبشراً "بملكوت الله"<sup>1</sup> إلا أن هذه الرواية تتعارض مع السياق التاريخي المعروف عن اضطهاد كلوديوس للمسيحيين في الشرق، مما أثار جدلاً حول دقتها<sup>2</sup>.

في المقابل تقدم مصادر أخرى رواية بديلة تربط دخول المسيحية إلى روما بالرسول "بولس" خلال عهد "نيرون" (54-68م)، حيث يُذكر أن بولس قضى سنتين في روما كـ"أسير مطلق السراح"، استغلّهما في التبشير العلني "بكلمة الله بلا مانع"<sup>3</sup> هذه الرواية تبدو أكثر انسجاماً مع السياق التاريخي، خاصةً أن سفر أعمال الرسل (28: 30-31) يؤكد إقامة "بولس" في روما لمدة عامين يركز فيها بحرية.

تشير الأدلة التاريخية إلى أن المسيحية وصلت إلى روما عبر مبشرين مجهولين قبل وصول الرسول بولس حوالي عام 60م، حيث كان الأخير قد حُوكم هناك. ويُعتقد أن هذه الديانة قد تسرّبت إلى العاصمة الرومانية في الفترة نفسها تقريباً التي انتشرت فيها في برقة وشمال إفريقيا، مما يدل على وجود شبكة تبشيرية نشطة عبر البحر المتوسط. إلا أن الجماعات المسيحية في روما قد تعرضت لأقسى أنواع الاضطهاد

شكّل حريق روما الكبير عام 64م تحت حكم الإمبراطور نيرون منعطفاً دموياً في تاريخ المسيحية المبكرة. فبينما كانت النيران تلتهم المدينة لتسعة أيام متواصلة، اتخذ الإمبراطور - الذي يُروى أنه كان ينشد أشعار هوميروس مستلهماً المشهد الكارثي - من المسيحيين كبش فداء، مطلقاً بذلك أشرس موجة اضطهاد عرفها المسيحيون الأوائل. لم تقتصر المذابح على العاصمة روما، حيث امتدت لتشمل مختلف أنحاء الإمبراطورية طوال أربع سنوات، وشملت أساليب تعذيب وحشية مثل

<sup>1</sup> - يوسابيوس القيصري، 40، 2/14، ص، 71.

<sup>2</sup> - يقول مترجم الكتاب: بأن في الأمر لبس، وذلك أن ناشر الطبعة الإنجليزية للكتاب يرى بأن بطرس لم يصل إلى روما قبل أواخر حكم نيرون، وأن الكنيسة زعمت أنه ظل أسقفاً لروما لمدة 25 سنة خلال عصر كلوديوس، وهذا يتناقض مع الواقع التاريخي؛ لأنه في سنة 44 م كان في أورشليم بحسب أعمال الرسل (3/ 13)، وكذلك في سنة 51 م ثم في أنطاكية، ولا يوجد له أثر في روما إلا ما روي حول استشهاده فيها. للمزيد ينظر، حاشية المترجم، يوسابيوس القيصري، ص ص. 79 - 78.

<sup>3</sup> - أعمال الرسل، فق. 25.

الحرق الحي وإلقاء الضحايا للوحوش في المدرجات. وقد ذهب ضحية هذه الحملة الآلاف من المؤمنين، بينهم شخصيات محورية مثل الرسولين بطرس الذي صُلب بالمقلوب حسب التقليد الكنسي، وبولس الذي نال حتفه بالسيف بصفته مواطناً رومانياً. ورغم طابعها المأساوي، فإن هذه الأحداث أسست لثقافة الشهادة التي عززت تماسك الجماعة المسيحية الناشئة، كما أدت إلى تشتيت المؤمنين ونشر الإيمان<sup>1</sup> في أقاليم جديدة، محوِّلة المأساة إلى عامل دفع لنمو المسيحية وتوسعها.

شهد عام 64م تحولاً خطيراً في علاقة المسيحيين بالمجتمع الروماني، حيث انطلقت موجة عنف شعبي ضدهم نتيجة الجهل بطبيعة عقيدتهم و هذا العدااء الجماعي كشف عن حذر الجماعات المسيحية المبكرة في نشاطها التبشيري، كما أظهر ضآلة عددهم في تلك الفترة وقد استغل الإمبراطور نيرون هذا المناخ العدائي لإصدار مرسوم تاريخي يجرم اعتناق المسيحية ويعاقب عليه بالإعدام، معلناً بذلك بداية عصر الاضطهاد المنظم الذي استمر لقرون<sup>2</sup>.

ورغم هذه التحديات نجحت المسيحية في ترسيخ وجودها داخل العاصمة الرومانية ذاتها ويتجلى هذا من خلال تأسيس الكنيسة الرومانية التي تطورت بشكل متواصل بعد استشهاد بطرس وبولس، حيث تولى قيادتها سلسلة من الأساقفة بدءاً من "لينوس" (Linus) ثم "اكليمنضس" (Clement) خلال عهد الإمبراطور تراجان (98-117م)<sup>3</sup>، هذا الاستمرار التنظيمي يثبت قدرة المسيحية على النمو حتى في أحلك ظروف الاضطهاد، محوِّلة العاصمة المضطهدة إلى مركز رئيسي للإيمان الجديد.

عهد الإمبراطور تراجان (98-117م) تحولاً نسبياً في سياسة روما تجاه المسيحيين، حيث أصدر قراراً بعدم ملاحقتهم بشكل منهجي، وإن كان قد أبقى على عقوبة الاعتراف بالمسيحية حال

<sup>1</sup> - أندريه إيمار وحنانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مج 2، ( روما وإمبراطوريتها )، تر .، فريد م . داغر وفؤاد ج أوبريجان، ط2، منشورات عويدات، بيروت، 1986، ص. 421

<sup>2</sup> - أندريه إيمار، المرجع السابق، ص ص . 422 - 421

<sup>3</sup> - يوسابيوس القيصري، المصدر السابق، 3/ 138، ص. 34

ثبوتها<sup>1</sup> هذه السياسة الأقل تشدداً وفرت للمسيحيين هامشاً من الحرية سمح بنشر عقيدتهم بشكل أوسع.

وقد أسهم انتقال المسيحية إلى روما - قلب الإمبراطورية ومركز شبكتها - في تسريع انتشارها بشكل لافت. فموقع العاصمة الاستراتيجي كبوابة للعالم الروماني ومركز للطرق التجارية والاتصالات الإدارية، وفر للمسيحية.

شكلت الطرق التجارية وحركة الاتصال بين روما وبلاد المغرب القديم قنوات حيوية لانتشار المسيحية في المنطقة، حيث نشأت علاقات دينية وثيقة ربطت أساقفة شمال أفريقيا بالكرسي البابوي في روما. واتخذت الكنيسة الأفريقية من قرطاج مركزاً رئيسياً لها، مستفيدة من البنية التحتية اليهودية الموجودة مسبقاً، ثم امتدت منها إلى مختلف أنحاء البروقنصلية وطرابلس ونوميديا وموريطانيا. غير أن الانتشار واجه صعوبات في الوصول إلى المناطق النائية مثل طنجة، بسبب بعدها الجغرافي وعزلتها النسبية عن المحاور التجارية الرئيسية، مما جعل التأثير المسيحي فيها أقل وضوحاً مقارنة بالمناطق الحضرية الساحلية<sup>2</sup>.

لقد شكّل الاحتلال الروماني قناة رئيسية لوصول المد المسيحي إلى بلاد المغرب القديم، حيث مرّت عملية الانتشار بمراحل متعددة تخللتها موجات اضطهاد قبل أن تتحول المسيحية إلى ديانة رسمية للإمبراطورية<sup>3</sup> وعلى الرغم من المكانة التجارية البارزة لقرطاج واتصالاتها المباشرة مع مدن الشرق، فقد بقيت خاضعة للسيطرة الرومانية سياسياً وديناً، كما يتجلى من خلال المراسلات الرسمية بين بابا روما "غريغور الأول" وقساوسة نوميديا التي تظهر عمق الارتباط التنظيمي بين الكنيسة الأفريقية والكرسي الروماني<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - المرجع نفسه 3 / 137، ص.33.

<sup>2</sup> - Leclercq (D.H.), La Situation Religieuse de L'Afrique Romain (Depuis la fin du IV Siècle jusqu' Vandale), Imprimerie Analic, Paris, 1894, p.4.

<sup>3</sup> - بديعة الخرازي، الكنيسة النصرانية في المغرب الأقصى، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2007، ص.13.

<sup>4</sup> - Monceaux (P.), H.L .A.C, T.,1, PP. 5-6.

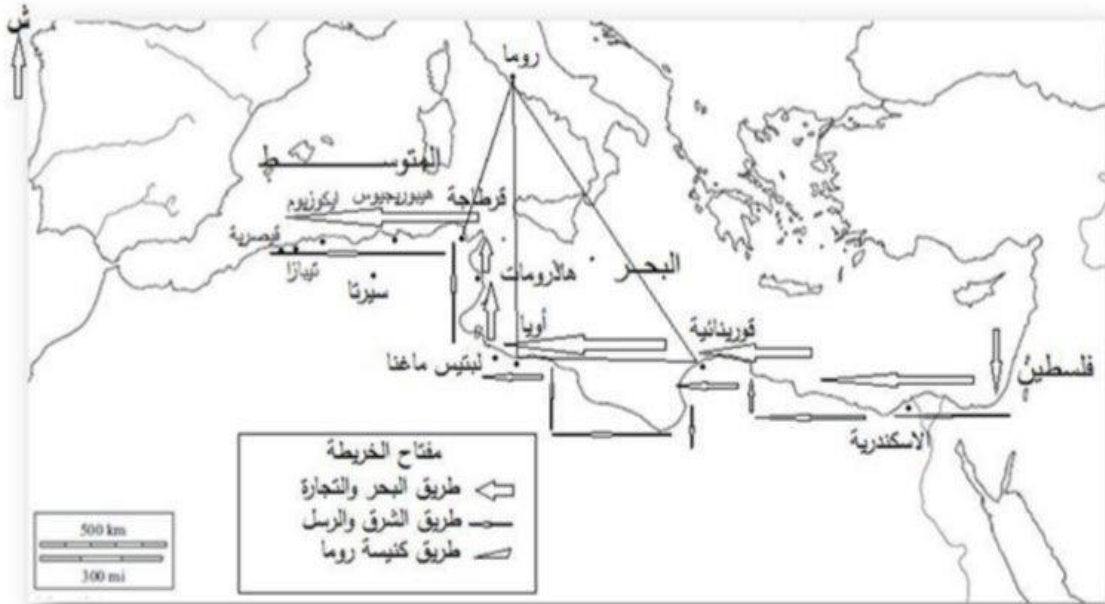
## الفصل الثاني: المسيحية في بلاد المغرب القديم بين المبادئ الإنجيلية والواقع التاريخي

في الواقع، اتخذ انتشار المسيحية في المنطقة مسارين متوازيين:

المسار الشرقي: عبر الرسل والتجار إلى قورينا برقة كمحطة أولى.

المسار الغربي: عبر روما وقرطاج بواسطة النشاط التجاري والتبشير المنظم.

هذه الديناميكية المزدوجة تفسر سرعة انتشار المسيحية وتنوع مراكزها في شمال أفريقيا، حيث انتقلت من المدن الساحلية إلى الداخل، مع احتفاظ كل منطقة بخصوصياتها في تقبل هذه الديانة الجديدة.



الخريطة رقم 1: طرق انتقال المسيحية الى المغرب القديم

نقلا عن: الربيع عولمي، المسيحية في بلاد المغرب القديم و دورها في أحداث الرابع و الخامس الميلاديين، أطروحة دكتوراه في التاريخ القديم، كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية، جامعة باتنة 1، الجزائر، 2015-2016م، ص

ثانياً: الأسباب التي ساعدت على انتشار المسيحية في بلاد المغرب القديم:

لا شك أن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عاشها العالم الروماني ساهمت بشكل كبير في انتشار الدعوة المسيحية، حيث أصبحت هذه الديانة ملاذاً للعديد من الأشخاص الباحثين عن العدالة الاجتماعية. وقد تجلّى ذلك بوضوح في شمال أفريقيا، كما في باقي الأقاليم الرومانية، حيث بدأت أولى جماعات التبشير المسيحي داخل المعابد اليهودية. وكان المبشرون المسيحيون متطوعين قدموا ليس فقط من الشرق، بل حتى من إيطاليا نفسها، وانتشروا في مدن مختلفة عبر مقاطعات شمال إفريقيا البروقنصلية و نوميديا، ووصلوا حتى موريطانيا، تحت إشراف وتنظيم الأساقفة<sup>1</sup>.

ويُعتبر دور أسقفية شمال أفريقيا مثالاً بارزاً على هذا التضامن الديني، خاصةً في عهد القديس "قبريانوس"، الذي مثل مركزاً لفكرٍ مسيحي متماسكٍ ومؤثر<sup>2</sup>.

انتشرت المسيحية في شمال إفريقيا وترسخت كعقيدة جديدة بين الأفارقة، خاصة بعد الحملات القمعية التي شنّها الأباطرة الرومان ضد أتباعها<sup>3</sup>. ورغم أن وحشية التعذيب خلّفت جراحاً عميقة في نفوس الضحايا، إلا أن الآثار النفسية الأقسى ربما كانت من نصيب الجلادين أنفسهم، حيث تجاوزت أساليب التنكيل - مثل تمزيق أجساد المؤمنين بمخالب الحديد - كل حدود الإنسانية<sup>4</sup>.

زادت سياسة الاضطهاد الروماني من تمسك المسيحيين الحقيقيين بدينهم، رغم ارتداد بعضهم الذين وصفهم القديس قبريانوس بأن إيمانهم كان ضعيفاً. فالبعض اعتنق المسيحية لأسباب اجتماعية أو اقتصادية، خاصة بعد مرسوم الإمبراطور ديسيوس<sup>5</sup> (DESIUS) 250م الذي أجبر المواطنين

<sup>1</sup> - ALBERTINI(Eugène),, l'Afrique du Nord Française dans l'histoire, Paris, 1937,p. 106.

<sup>2</sup> - AUDOLLENT (Auguste), op-cit, p. 505

<sup>3</sup> - BERTHIER(André), l'Algérie et son passé...,p.99.

<sup>4</sup> - Cyprien(Saint) ,lettre ;X, 1 ;3,24

<sup>5</sup> - ديسيوس إمبراطور روماني، ولد سنة 201 م وتولى العرش الإمبراطوري فيما بين سنتي (251-248 م)، بدعم من الجيش الروماني، أقر الإصلاح الديني للوثنية واضطهد المسيحيين، لمزيد من المعلومات أنظر، Nouveau Larousse Universel, T.1,p.460

على عبادة الأباطرة ونبذ المسيحية<sup>1</sup>. نتيجة لذلك، انتشرت نصب الشهداء الذين رفضوا الانصياع، وشهدت الملاعب الرومانية مواجهات دموية، حيث أُلقيَ بالمسيحيين - مثل قبريانوس - للوحوش، وسط هتافات الوثنيين<sup>2</sup>.

عقد مجمع كنسي في قرطاج سنة 256م بمشاركة 23 كاهناً نوميدياً تحت رعاية القديس "قبريانوس"<sup>3</sup>، مما يؤكد انتشار المسيحية الواسع بالمنطقة آنذاك. هذا الانتشار يدفعنا للتساؤل حول: ماهي العوامل التي ساعدت على تبني العديد من المغاربة لهذه الديانة؟ وهل اعتناقها شمل كافة السكان أم اقتصر على فئات معينة؟

### 1\_الاسباب الاجتماعية :

ساهمت الظروف الاجتماعية الصعبة في شمال إفريقيا بشكل كبير في انتشار المسيحية، حيث وجدت الطبقات المظلومة في تعاليمها ملاذاً وأملاً بحيث تميز المجتمع آنذاك ب: نظام العبودية والاستغلال الطبقي، تفاقم الفوارق الاجتماعية وانتشار الظلم والاستبداد وقد استقطبت المسيحية - التي نادى بالمساواة بين الجميع أمام الله - بشكل خاص: الفقراء، العبيد و المظلومين، حيث قدّمت لهم: رجاء بحياة أفضل، مبدأ المساواة الروحية وقيمة الأخلاق والعمل الصالح<sup>4</sup>. ويظهر هذا جلياً من خلال طبيعة الشهداء المسيحيين بين القرنين الثاني والثالث الميلادي، الذين كانوا في غالبيتهم من هذه الفئات المهمشة.

لقد أبرز ترتليانوس الطبيعة التضامنية للمجتمع المسيحي في المغرب القديم، والتي شكلت عامل جذب رئيسي للطبقات المهمشة. ففي مقابل المجتمع الوثني الذي اتسم بالانقسامات الطبقية، قدم المسيحيون نموذجاً مغايراً يقوم على مبادئ الأخوة الروحية والتكافل الاقتصادي، حيث كانوا

<sup>1</sup> - عبد الحميد سعد زغلول، المرجع السابق، ص. 117.

<sup>2</sup> - VAULTRIN, op-cit. ,p.201.

<sup>3</sup> - MESNAGE (J.P.), op-cit. ,p.114.

<sup>4</sup> - كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، دار العلم، بيروت، بلا، تا، ص ص. 10-11.

يشاركون كل شيء ما عدا الزوجات<sup>1</sup>، كما وصف ترتليانوس. هذا النموذج الاجتماعي الجديد أعاد الاعتبار لإنسانية المقهورين، وهو ما تجلى في تخلي المنتصرين عن الألقاب القبلية، مما يشير إلى طبيعة التحول الفردي الطوعي وليس الجماعي. وقد أكد القديس قيريانوس على أهمية هذه الفئات المهمشة، معتبراً إياهم عماد الكنيسة لثباتهم في الإيمان رغم الاضطهادات<sup>2</sup>، مما يدل على أن انتشار المسيحية في المنطقة كان انتقائياً، استقطب بالدرجة الأولى من وجدوا فيها ملاذاً من الظلم الاجتماعي ووعوداً بكرامة إنسانية مسلوقة.

سيطرت النخبة الرومانية على الثروة الزراعية في إفريقيا الرومانية، مما خلق نظاماً اقتصادياً ظالماً ترك الأهالي يعانون الفقر والجوع. وأشار Plin l'Ancien باحتكار الأراضي حيث صادرت الإمبراطورية أغلب الأراضي الخصبة و نصف مساحة إفريقيا في عهد نيرون خلال القرن الأول الميلادي كان يملكها ملاك<sup>3</sup>.

يشهد القديس أوغسطين على الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي عانى منها والده باتريكيوس، أحد ملاك الأراضي المتوسطين في تاغست، والذي كان يعاني من صعوبات حمة في توفير القوات اليومي لعائلته<sup>4</sup>. هذا الواقع المأساوي يشكل تناقضاً صارخاً مع أوضاع النخبة الرومانية المترفة. حيث كان كبار الموظفين والمسؤولين - بمن فيهم البروقناصل والسفراء - يمتلكون ضيعات شاسعة في أفريقيا بينما يقيمون في روما، محتكرين خيرات الأرض الأفريقية دون عناء، حيث كانوا يكتفون بجني الأرباح الطائلة من وراء استغلال هذه الأراضي<sup>5</sup> باستخدام العبيد بعدما قام "نيرون" بمصادرة أراضيهم، فبينما كانت الثروات تتدفق على خزائن النخبة في العاصمة، كان السكان المحليون - حتى ملاك الأراضي المتوسطون منهم - يعانون من شظف العيش وصعوبة توفير الأساسيات<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> - TERTULLIEN,XXXIX,10 ;11,83.

<sup>2</sup> - Cyprien(Saint) ,lettre ;XII,2, 35.

<sup>3</sup> - Plin l'Ancien, Histoire Naturelle, XVIII, 7

<sup>4</sup> - Augustin (St),les Confessions, trad., Andilly (A) ,éd., Gall, Madr, Paris, 1993,11,3

<sup>5</sup> - Boissier (G.) , l'Afrique romaine, Paris, 1901,p.153.

<sup>6</sup> - Picard (G.) ,la Civilisation de l' Afrique romaine, Plon, Paris, 1959, pp .129-148.

حيث يشير المؤرخ "جزال" إلى أن القديسة ميلانيا الصغرى أقدمت على تحرير آلاف العبيد من ممتلكاتها في المنطقة قبل رحيلها عام 417م<sup>1</sup>. وكان هؤلاء العبيد يعانون من انتهاكات منهجية، حيث يتعرضون للضرب المبرح والسجن والتعذيب<sup>2</sup>، حيث حُرّم العبيد من أبسط حقوقهم الإنسانية، فلم يكن يسمح لهم بإقامة روابط زوجية معترف بها قانونياً، كما مُنعوا من ممارسة شعائرهم الدينية بحرية. أما أطفال العبيد فكانوا يولدون تحت وطأة نظام استغلالي مجحف، حيث يصبحون ملكاً لسيد الأم منذ اللحظة الأولى لولادتهم، ويحملون اسم الأم فقط دون ذكر للأب، مما كان يكرس وضعهم كمجرد ممتلكات وليس بشراً لهم كرامة<sup>3</sup>.

تشير الأدلة التاريخية إلى أن نظام العبودية في المغرب القديم لم يميز بين الجنسين، حيث شمل العبيد من الرجال والنساء على حد سواء. وقد تعرضت النساء العبيد بشكل خاص لاستغلال مزدوج، إذ جرى توظيفهن في أعمال مهينة مثل الدعارة القسرية، والتي كانت تشكل مصدراً للإثراء غير المشروع لأسيادهن بحيث وعثر على طوق في هيكل عظمي لامرأة يحمل نقشا كتب عليه: - "الاسم "أدولتر" (Adultra)، عاهرة، أقبض علي، لقد فررت من "بولاريجيا" (Bulla Regia). منطقة حمام الدراجي - بتونس—<sup>4</sup>.

رغم أن المسيحية لم تحرم الملكية الخاصة، إلا أنها وضعت لها ضوابط أخلاقية صارمة، حيث دعت الأغنياء إلى: عدم التعلق المفرط بالثروات الدنيوية، التذكّر الدائم بأنهم مجرد وكلاء على ملك الله و الاهتمام بالكنوز الروحية أكثر من المادية.

وفي المقابل، قدّمت رؤية لخلاص الفقراء تعتمد على: تقبّل الآلام كوسيلة للتكفير عن

الخطايا، الممارسة الدائمة لأعمال الرحمة و الإيمان بالحياة الأبدية كتعويض عن الحرمان الدنيوي<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - Gsell (S), *Esclaves ruraux dans l'Afrique romaine*, Mélanges Gustave Glots, T,1, P.U.F.,Paris, 1932, p. 402.

<sup>2</sup> - Hamman (A.G.), op-cit.,p. 133.

<sup>3</sup> - Jules Marchan, «des inscriptions inédites»,R.S.A.C., Vol,10,1866 ,p.59.

<sup>4</sup> - Picard (G.C.), *la civilisation*, p. 150.

هذه التعاليم وجدت صداها العميق لدى: الطبقات المهمشة<sup>2</sup> التي عانت القهر الاجتماعي، المضطهدين الذين سعوا للخلاص الروحي والمعارضين للديانة الرسمية للإمبراطورية. ساهمت شبكة التواصل الجغرافي والحراك السكاني الموسمي في تسهيل انتشار المسيحية عبر مختلف أنحاء المغرب القديم. فسكان المناطق الجبلية كانوا يتواصلون مع السهول المجاورة، بينما تواصل سكان المناطق الصحراوية مع حوافها، كما أن التنقل الموسمي بين مراعي الشتاء ومناطق الزراعة الصيفية في الأودية<sup>3</sup> شكل قنوات طبيعية لانتشار الأفكار الدينية الجديدة. وقد وجد الأفرقة في المسيحية ملاذاً من شقائهم الروحي والاقتصادي والاجتماعي، مما دفعهم إلى تقبل هذه الشريعة الجديدة برغم التحديات.

ورغم الاضطهادات التي شهدتها بدايات القرن الثاني الميلادي، والتي حظرت الدعاية للدين الجديد، إلا أن المسيحية تمكنت من ترسيخ وجودها عبر بناء المعابد الكنسية في المدن الصغيرة والقرى النائية.

برز دور العائلات المسيحية الثرية في المغرب القديم خلال القرن الثالث الميلادي كعامل حاسم في انتشار المسيحية وتوطيد أركانها. فبادرت هذه النخبة الميسورة إلى تبني سياسة رعاية اجتماعية ودينية متكاملة، تمثلت في تقديم الإعانات المالية للسكان الفقراء، وإقامة موائد الطعام للمحتاجين، وتمويل بناء الكنائس وتجهيزها. وقد اتخذ هذا الدعم أشكالاً متنوعة شملت توفير الهبات والندور الكنسية، وتحمل نفقات الكهنة، ورعاية الأرامل والأيتام<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - Allard (Paul), les esclaves chrétiens depuis les premiers temps de l'église jusqu'à la fin de la ' domination romaine en occident ,2<sup>o</sup>éd., librairie académique ,Paris, 1876, p.115.

<sup>2</sup> - محمد البشير شنتي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 286.

<sup>3</sup> - DESPOIS (Jean), « la Bordure saharienne de l'Algérie orientale », R.AFR , N°390-391, T,92, 1942. p. 201.

<sup>4</sup> - Mesnage (P.), le christianisme ,,p. 64.

تشهد النقوش الأثرية في قرطاج على أسماء عدد من الشهداء المسيحيين الذين استشهدوا سنة 203م، وهو ما أثار موجة من التعاطف والتضامن مع المضطهدين في مختلف أنحاء شمال أفريقيا<sup>1</sup>.

ساهم التضامن بين أفراد المجتمع المسيحي في تعزيز تماسكهم الداخلي وجذب أعضاء جدد، خاصة في ظل الظروف الاجتماعية القاسية التي سادت المنطقة تحت الحكم الروماني. فقد تفاقم السخط الشعبي تجاه السلطات الرومانية التي استنزفت ثروات البلاد، مما أدى إلى انتشار الفقر المدقع رغم وفرة الموارد. وأسهمت سياسة القمع الروماني في تعاطف فئات جديدة معهم، بل وانضمام بعضها إلى الجماعة المسيحية<sup>2</sup> ولم يقتصر هذا التضامن على الجانب المعنوي فحسب، بل شمل أيضاً دعماً مادياً منظماً، حيث كانت الكنيسة الأفريقية تتلقى تبرعات منتظمة من أتباعها وكما يذكر "ترتليانوس" بأنه كان كل فرد يتبرع بمبلغ صغير في يوم محدد من الشهر أو في وقت يختاره بنفسه<sup>3</sup>.

لقد اتسم النظام المالي للكنيسة المسيحية المبكرة في شمال أفريقيا بتنظيم دقيق يعكس روح التكافل الاجتماعي. فإلى جانب التبرعات النقدية، كان المؤمنون يقدمون عطايا عينية تشمل المواد الغذائية الأساسية كالحبز والفاكهة، والتي كانت تُستخدم في إقامة "وليمة المحبة" (Agapé) - تلك الوليمة الروحية التي تجسد قيم الوحدة والتشارك بين أعضاء الجماعة المسيحية وقد خُصصت موارد الكنيسة لسد احتياجات فئات متعددة كالأيتام الذين فقدوا عائلهم، الأرمال اللواتي لا معيش لهن، المرضى والعاجزين، العاطلين عن العمل، الذين فقدوا أمتعتهم أثناء السفر ومن تعرضوا للسرقة والناجين من كوارث السفر<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - RAGOT (W.), «le Sahara de la Provence de Constantine», R.S.A.C, 17eme VOL, 1875-1876, 9p.230.

<sup>2</sup> - Etienne Ghastal, histoire de christianisme (depuis son origine jusqu'à nos jours), T., 1, (premier ' Age), éd., 2-Fischbacher, (G.), Paris, 1881, pp. 62-63.

<sup>3</sup> - Tertullien, Apologues, 39.

<sup>4</sup> - روبين دانيال، المرجع السابق، ص. 73.

شهدت نوميديا خلال القرن الثالث الميلادي تحولاً بارزاً في المشهد الديني، حيث استغلت الدعاية المسيحية المشاعر المعادية للوثنية الرسمية، وخاصة عبادة الإمبراطور التي فرضتها السلطات الرومانية. وتكشف الشواهد الأثرية عن هذا الصراع الديني، حيث تم العثور على:

1. نصب تذكاري في "كويكول" يعود لعام 255م: قدمه قائد الفرقة الأغسطية الثالثة وهو

مخصص للإله جوبيتر الروماني يشكر الإله على دعمه للإمبراطور

2. نصب آخر يعود لعام 259م: قدمه قائد عسكري نوميدي وهو مخصص لآلهة النصر

الرومانية<sup>1</sup>.

في خضم الاضطهاد الرومانية، أظهر المجتمع المسيحي في شمال أفريقيا تماسكاً لافتاً يقوم على مبادئ المساواة والتكافل. وقد تجسد هذا التضامن عبر: العبد والحر متساويان في الكرامة الإنسانية، الغني والفقير يشتركان في نفس الحقوق الدينية و إمكانية ترقى العبيد إلى مراكز كنسية مهمة<sup>2</sup>.

شهدت نهاية القرن الثالث الميلادي امتداداً لانتشار المسيحية إلى صفوف الجيش الروماني، حيث بدأت تظهر حالات رفض للخدمة العسكرية بدوافع دينية. ففي سنة 295م، أقدم "ماكسيميليان" Maximilian من مدينة "تيفست" على رفض التجنيد، مبرراً موقفه بأن الخدمة العسكرية تتعارض مع مبادئ المسيحية القائمة على السلام والرحمة. وقد أثار هذا الرفض غضب السلطات الرومانية، فأصدر البروقنصل حكم الإعدام بحقه ونفذ به.

لم تكن حالة ماكسيميليان معزولة، إذ تبعه بعد ثلاث سنوات (298م "تيباسيوس" Tipasius من منطقة "تيقوة" Tgava في نفس الموقف. وقد مثلت هذه الحوادث بداية حركة رفض الخدمة العسكرية بين المسيحيين، حيث كانوا يعتبرون أنفسهم "جنوداً للمسيح" وليس

<sup>1</sup> - STANISLAS (Millot), «l' insurrection de 253,d'après une inscription de Milliana », R .Afr, N°60, 1919,p.380.

<sup>2</sup> - Allard (Paul), le christianisme et l'empire romain (de Néron a Théodose), 2° éd., librairie Victor Lecoffre, Paris, 1897, pp.80-81.

للإمبراطورية ويظهر من تصريحات ماكسيمليان التي Maximilian سجلتها الوثائق التاريخية إصراره الشديد على مبدئه، حيث أعلن: "لن أحمل السلاح أبداً، ولو كلفني ذلك رأسي"<sup>1</sup>. مثلت هذه الوقائع نقطة تحول في تاريخ المسيحية بشمال أفريقيا، حيث تحولت من ديانة مضطهدة إلى قوة أخلاقية تتحدى النظام القائم. كما أظهرت كيف استطاعت المسيحية اختراق المؤسسة العسكرية الرومانية الصارمة، مقدمة نموذجاً للثبات على المبدأ رغم تهديدات السلطة. في منطقة موريطانيا القيصرية (حوض الشلف حالياً)، وثقت المصادر التاريخية حالة أخرى لرفض الخدمة العسكرية بدافع ديني، حيث أقدم مجند مسيحي على إعلان عصيانه لقائده العسكري قائلاً: "إنني مسيحي ولا يمكنني القتال تحت قيادتك"، مما أدى إلى إعدامه فوراً بالسيف. وقد شكّلت هذه الحوادث المتكررة دليلاً على تصاعد الموجة الاضطهادية ضد المسيحيين الراضين للخدمة العسكرية، ما أسفر عن زيادة ملحوظة في عدد الشهداء عبر مختلف المناطق<sup>2</sup>.

تصاعدت حدة الاضطهادات خلال عهد الإمبراطور "فاليريان"<sup>3</sup> Valérien (253-260م)، حيث أصدرت السلطات الرومانية أحكاماً قاسية بحق رجال الدين المسيحيين في نوميديا، تمثلت في: إرسال عدد كبير منهم للعمل القسري في المناجم، إصدار أحكام إعدام بحق آخرين و تنفيذ حملات اعتقال واسعة بتهمة تهديد الأمن العام<sup>4</sup>.

تكشف النقيشة الأثرية التي عُثر عليها في "كهف بوادي الرمال" بسيرتا " (قسنطينة حالياً) عن : أسماء مجموعة من الشهداء المسيحيين ذنفاصيل اعتقالهم عام 259م في مزرعة مجاورة

<sup>1</sup> - Yann Lebohec, L'Armée Romaine d'Afrique de Dioclétien a Valérien I , Diffusion de Bocard, Paris, 2004, p.262.

<sup>2</sup> - Albertini et Harcais(G.), L'Afrique de Nord Française dans l'histoire, Paris-Lyon, 1937, p.110.

<sup>3</sup> - فاليريان (Valérien)، إمبراطور روماني (253-259م)، خلف والده في الغرب، اضطهد المسيحيين، وصادر أموال الأغنياء، أُسر من قبل ملك الفرس وتوفى في أسره، لمزيد من المعلومات ينظر، Nouveau Larousse Universel, T.2, p.799.

<sup>4</sup> - Gsell,(S.) , Les monuments antiques de l'Algerie, T.,2,éd., Albert Fontomoing ,Paris 1901,p91

للمدينة، إعدام بعضهم في لمبزي (لامبيز الحالية) وأيضا ذكر القديسين "ماريان" Marien و "جاك" Jack ضمن قائمة الضحايا<sup>1</sup>.

كشفت سياسة الاضطهاد الروماني تمييزاً صارخاً في معاملة الطبقات الاجتماعية، حيث تعرض أفراد الطبقات الدنيا من المسيحيين لأبشع أنواع العقوبات. فالقانون الروماني كان يبيح إعدام الفقراء والمهمشين عبر إلقاءهم للوحوش في المدرجات، بينما كان أبناء الطبقات العليا يحظون بحماية قانونية حتى عند ارتكابهم ذات الجرائم<sup>2</sup>.

## 2- الأسباب الاقتصادية

كان لسياسة الترويج والهيمنة الرومانية، إلى جانب تقويض البنية الاقتصادية المحلية، أثر بالغ في استنزاف الموارد الزراعية والرعية وتحويلها لصالح المستوطنين الرومان أو تصديرها إلى العاصمة روما. وقد أدى ذلك إلى استغلال الإنسان والأرض لخدمة المصالح الرومانية، حيث أُجبرت منطقة المغرب القديم على تعويض النقص في الاحتياجات الرومانية من مختلف المنتجات، مما زاد من حدة المعاناة والفقير، وجعل الحياة صعبة على السكان المحليين<sup>3</sup> وعلى الرغم من الازدهار النسبي والاستقرار الأمني الذي شهدته روما، إلا أن النظام الاقتصادي ظل متخلفاً بالنسبة للسكان المحليين، حيث ساد الفقر والضعف، وركد النشاط التجاري باستثناء ما كان يلي حاجات الطبقة الثرية<sup>4</sup>.

وفي خضم تفاقم الاستغلال الاقتصادي والسيطرة الرومانية، بما في ذلك مصادرة الأراضي من أصحابها دون وجه حق، برزت أصوات احتجاجية مثل صوت "ترتليانوس"، الذي استنكر هذه الممارسات قائلاً: "من أنتم؟ ومن أين جئتم؟ وما شأنكم بأرضي؟ لستم من أهلي، فبأي حق تقطع

<sup>1</sup> - Id, « Observation sur l'inscription des Martyrs de Constantine », R.S.A.C. N° 09, 1895-3 1896, p.p. 212-213.

<sup>2</sup> - محمد البشير شنيقي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية...، ص. 270-271.

<sup>3</sup> - نفسه، "حول الدوناتية وثورة الريفين بنوميديا خلال القرن ال 4 م"، مجلة الأصالة، العدد، 61-60، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الجزائر، 1978، ص. 27-26.

<sup>4</sup> - شارل أندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية "تونس، الجزائر، المغرب الأقصى" من الفتح الإسلامي إلى 647 م، تعريب بشير بن سلامة ومحمد مزالي، ط، 4، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983، ص. 271.

يا "ماركيون" (Marciun) أغصان أشجاري؟ وبأي وجه تسرق يا "فالنتيان" ثروتي؟ ومن خولك يا "أبليس" (Apllis) أن تغير حدود أرضي؟ إنها ملكي، فلماذا تزرعوها وتتركون مواشيكم ترعى فيها كما تشاءون؟ إن ثروتي ملكي منذ القدم، ولدي من البراهين ما يؤكد ذلك<sup>1</sup>.

يكشف هذا النص عن آليات السيطرة والاستغلال المنهجي الذي مارسه الرومان، حيث تم تجريد السكان الأصليين من ممتلكاتهم وتحويلهم إلى فقراء معدمين. ويوضح أن "ترتليانوس"، رغم احتجاجه العنيف على ممارسات المستعمرين الرومان، لم يكن ضد فكرة الملكية الخاصة بحد ذاتها، بل عارض انتزاعها بغير حق من أصحابها الشرعيين الذين يمتلكون الوثائق التي تثبت ملكيتهم.

وانتشرت موجة السخط بين مختلف فئات المجتمع، فلم تقتصر المعاناة على المزارعين المهجّرين من أراضيهم، بل طالت أيضاً صغار ومتوسطي الملاك. وقد أدى تدهور الأوضاع الاقتصادية إلى انتشار تجارة الرقيق بأسعار بخسة، كما تحول العديد من الأحرار إلى عمالة مُقيدة تحت سيطرة كبار الملاك الذين عاملوهم كعبيد، رغم اعتبارهم أحراراً قانونياً بموجب دستور عام 212م. ولعل هذه الظروف القاسية دفعت بعض المضطهدين إلى تعلم اللغة اللاتينية - لغة الإنجيل - كوسيلة للتواصل أو الاحتجاج، في حين ازداد السخط العام ضد الوجود الروماني واستغلاله<sup>2</sup>.

رغم حرص المسيحيين على تجنب المملذات والاكْتفاء بما يُسدّ الجوع، مع وجوب إعانة الفقراء، يُبرز "ترتليانوس" روح التكافل داخل المجتمع المسيحي بقوله: "طعامنا لا يتعدى وجبات بسيطة نشاركها مع المحتاجين، الذين يحظون بمكانة عظيمة في نظر الرب"<sup>3</sup> وفي المقابل استمرت سياسة الاستيلاء على الأراضي لصالح المستوطنين، حيث تم توزيع ممتلكات الأهالي المصادرة على الجنود الرومان بشرط توريث الخدمة العسكرية لأبنائهم<sup>4</sup>، كما تولى الوكلاء إدارة هذه الأملاك

<sup>1</sup> - Tertulien, De Praescription haereticorum, trad., De la Briolle SP), éd., Picard, Paris, 1907, XXXVII.

<sup>2</sup> - برينان أندري وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر.، رابح اسطنبولي وآخر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص. 80.

<sup>3</sup> - Tertullien, Apologues, XXXIX, I.

<sup>4</sup> - Albertini et Harcais (G.), op-cit., p. 111.

واستغلالها لتعمير المستعمرات الجديدة<sup>1</sup>، مما زاد من معاناة السكان الأصليين ولعل هذه الأوضاع المساوية دفعت بالكثيرين إلى اعتناق المسيحية، التي وجدوا فيها ملاذًا يعكس قيم الرحمة والتضامن، ويقدم حلولًا لواقعهم البائس عبر التركيز على الأخوة الإنسانية والصلاة. فالمسيحيون، وفق تعاليمهم، كانوا يمتنعون عن الإسراف، ويقتسمون قوتهم مع المعوزين<sup>2</sup>.

وبالرغم من تسامح روما النسبي مع بعض الممارسات ما لم تهدد أمنها، إلا أنها استفادت ماديًا من خلال فرض ضرائب متعددة، شملت حتى الحرف والأنشطة التجارية المهمشة، مما زاد من استنزاف موارد السكان<sup>3</sup>.

يتمتع هؤلاء الحرفيون بمصدر دخل ثابت، على الرغم من رفض المسيحية الصريح لمثل هذه المهن واعتبارها منافية للقيم الدينية. ويتجلى هذا الموقف من خلال مراسلة وردت إلى القديس "قبريانوس" عام 249م، حيث استشاره أحد الأساقفة حول رجل ادعى اعتناقه المسيحية بينما يعمل كبهلوان، معتبراً أن هذه المهنة هي مصدر رزقه الوحيد. فأجابه القديس بحزم: "ابذل كل جهد لإبعاده عن هذه المهنة الوضيعة، وردده إلى طريق الفضيلة. وليأت إلينا حيث سيحصل على كل ما يحتاجه من طعام وكساء"<sup>4</sup>.

شهدت الإمبراطورية الرومانية أزمة مالية واقتصادية حادة منذ عام 250م، تمثلت في انهيار احتياطات الذهب وركود المحاصيل الزراعية، كما امتد تأثير هذه الأزمة إلى الجيش حيث بدأت فرقته الأمنية الرئيسية - الفيلق الثالث - تظهر عليها علامات الانهيار<sup>5</sup>. حيث واجهت السلطات هذا الوضع المتأزم بإجراءات طارئة، خاصة أن الجنود كانوا يتقاضون جزءاً من رواتبهم عيناً (على شكل

<sup>1</sup> - CORCOPINO Jérôme, « les Castella » de la plaine de Sétif d'après une inscription Latine

<sup>2</sup> - TERTULLIEN, XXXIX., 16; 17; 18; 19; 20; 21, 85.

<sup>3</sup> - محمد العربي العقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، دار الهدى، الجزائر، 2008.ص.

<sup>4</sup> - Cyprien (St), Correspondances, trad ,Bayoret (Ch), éd., « les belles lettres », Paris, 1925, II, 3..

<sup>5</sup> روبين دانيال، المرجع السابق، ص. 232.

محاصيل زراعية وملابس وغيرها من المواد الاستهلاكية). وقد فُرض على السكان المحليين عبء توفير هذه الإمدادات بشكل إلزامي، كلما طُلب منهم ذلك، وبالقدر الذي تحدده الظروف الطارئة<sup>1</sup>. أدت هذه الإجراءات إلى تفاقم الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، حيث ارتفعت الأعباء الضريبية بينما سيطر كبار الملاكين على أجود الأراضي وأكثرها خصوبة. ونتيجة لذلك، اضطر العديد من سكان الريف إلى التنحلي عن أراضيهم التي تحولت إلى بور - خاصة في المناطق الأقل خصوبة - بينما هاجر بعضهم إلى المدن، أو استقر في الملكيات الكبرى كأجراء، أو نزح نحو المناطق الجنوبية<sup>2</sup> وأدى الاستغلال المفرط للأراضي إلى تراجع الإنتاجية، فتحول معظم السكان إلى فقراء تحت رحمة الأثرياء، تاركين أراضيهم ليعملوا كخدم لدى الملاكين الكبار مقابل لقمة العيش<sup>3</sup>. وفي خضم هذه الأزمات، فرضت السلطات سلسلة من الإجراءات الضريبية القاسية لتعويض نقص الموارد الناجم عن الحروب والمشكلات الاقتصادية. ففي عام 371م، أصدر الإمبراطور "فالتيان" قوانين تمنع الفلاحين من ترك أراضيهم، كما منح كبار الملاك صلاحية جباية الضرائب من المزارعين مباشرة. وفي نفس العام، قام الإمبراطور "ثيودوسيوس" (Theodosius) بزيادة الضريبة الجمركية (Siliquaticum)، مما زاد من معاناة الشعب وأثقل كاهله بالمزيد من الأعباء المالية<sup>4</sup>. شكّل التدهور الاقتصادي الذي عانت منه المنطقة بيئة خصبة لانتشار السخط الاجتماعي، وهي الظروف التي وجدت المسيحية فيها فرصة للانتشار. فقد قدّمت تعاليمها حلاً وسطاً بين تشجيع السعي لكسب الرزق ورفض الاتكالية، من دون أن تحارب الثراء في ذاته، بل دعت إلى توظيفه في خدمة القيم الإنسانية. ويجسّد القديس "أوغسطين" هذا الموقف المتوازن في نصحه للأثرياء

<sup>1</sup> - محمد البشير شنيبي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية...، ص. 130.

<sup>2</sup> - Hamman, la vie quotidienne,, pp. 136-137.

<sup>3</sup> - Gsell (St.), L'Algérie dans l'antiquité, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1903, pp.104-105.

<sup>4</sup> - Stein Ernest, histoire du bas-empire, 7.,1, (de l'Etat romain à l'Etat Byzantin 248-479),éd., s Desclee de Brouwer, Paris, 1959, p.181.

بقوله: "إن امتلاكك للذهب ليس سيئاً في حد ذاته، بل يمكن أن يكون وسيلة للصالح، على الأقل عندما تقدمه صدقة للفقراء، ل يبقى الخير مستمراً<sup>1</sup>".

تقدم المسيحية رؤية متوازنة للثروة، فتراها وسيلة للعيش والتقرب إلى الله لا غاية في ذاتها ويوضح ترتليانوس هذا المبدأ بقوله: "لا ينبغي للمسيحي أن يتوق إلى الشراء إن كان فقيراً، ولا أن يندم على فقدانه إن كان غنياً، فالثروة في جوهرها أمر زائل. دعوا الوثنيين يتعلقون بها، فهي تشغلهم بملذات الدنيا الزائلة<sup>2</sup>" هذا الموقف يعكس دعوة واضحة إلى القناعة ورفض الطمع، حيث يرى أن السعي المحموم للشراء قد يصرف الإنسان عن القيم الروحية. لكن الجدير بالملاحظة أن المسيحية لم تحرم الغنى بحد ذاته، بل حذرت من مخاطر التعلق المفرط به.

وفي المقابل، رفعت المسيحية من قيمة العمل والكدح، معتبرة إياه شرفاً وواجباً دينياً. وقد تجاوزت النظرة الدونية السائدة للعمل اليدوي التي كان يتبناها الوثنيون، الذين رأوا فيه عملاً وضيعاً يقترب من العبودية. لكن المسيحية اشترطت فقط أن يكون العمل مشروعاً ولا يتعارض مع القيم المسيحية<sup>3</sup> و يبرز الموقف المسيحي من العمل من خلال كلمات بولس الواضحة: "لم نتناول طعاماً مجانياً من أحد، بل عملنا بجهد وعناء ليلاً ونهاراً كي لا نكون عبئاً على أي منكم"، ويؤكد بحزم: "من لا يرغب في العمل، فلا يحق له أن يأكل<sup>4</sup>".

وقد وضعت المسيحية معايير أخلاقية صارمة للمهن المقبولة، حيث حظرت على أتباعها مزاوله أي نشاط يتعارض مع القيم المسيحية. وشمل هذا المنع فئات متعددة مثل: التجار الذين يمارسون أنشطة غير أخلاقية، العاملات في الدعارة، صانعي التماثيل الوثنية و كذلك العاملين في

<sup>1</sup> - Augustin (St.), les plus beaux sermons de St. Augustin, trad., Humeau (G.), T.,1, les études ' Augustiniennes, Paris, 1986,LXI,3.

<sup>2</sup> - Guignebert (Ch.), Tertullien, étude sur ses sentiment aux l'égard de l'empire de la société civil, Paris, 1901,p329.

<sup>3</sup> - Allard (Paul) , les esclaves ...,p.378.

<sup>4</sup> - روبين دانيال ، المرجع السابق ، ص ص.66-67.

مهن الترفيه مثل: المهرجين ، فناني السيرك ،المدربي المصارعين ، الموسيقيين (عازفي الناي، الرباب، والقيثارة) ،مدربي الرقص ، بائعي الخمر،والعاهر والمجوسي والساحر والمنجم والعراف، ومفسر حركة الطيور والأصوات والفحيج .

1-شهد القرن الثالث الميلادي تحولاً ديموغرافياً ودينياً مهماً في شمال أفريقيا الرومانية، حيث أدت عدة عوامل إلى انتشار المسيحية:

1. التطور الإداري: ازداد عدد الموظفين المكلفين بجباية "الأنونا" (الضرائب العينية)، مما خلق بيئة من السخط ساعدت على تقبل الأفكار الجديدة.

2. التماسك الكنسي: عززت الروابط التجارية بين مسيحيي روما وقرطاج من وحدة الكنيسة وتنظيمها .

3. جاذبية التعاليم: وجد الكثيرون في المسيحية - ولا سيما في مقاطعة أفريكا البروقنصلية - ملاذاً من الظلم الاجتماعي، حيث قدّمت نموذجاً للتضامن والإخاء كما عبّر "ترتليانوس": "إننا جماعة إخوة يتعاطف بعضنا مع بعض"<sup>1</sup>.

4. الاستراتيجية التبشيرية: استغل المبشرون الأوضاع المزرية للطبقات المحرومة، ونقمتهم على النظام الروماني الاستغلالي، مما جعل المسيحية تكتسب صفة الحركة المعارضة قبل اعتناق الإمبراطورية لها.

هذا التحول جعل من المسيحية قوة اجتماعية مضادة للنظام القائم، حيث استطاعت أن تقدم بديلاً أخلاقياً وروحياً للأزمات التي عانت منها المنطقة.

أفرزت هذه الأوضاع المزرية واقعاً اجتماعياً متأزماً غذى روح التمرد لدى الشرائح المهمشة، حيث سعت هذه الفئات المضطهدة إلى إيجاد منصات للتعبير عن سخطها. وفي خضم هذا المناخ، استقطبت الجماعات المسيحية انتباه السلطات نظراً لتمسكها بمواقف غير تقليدية: مقاطعة الطقوس والاحتفالات الرسمية، الامتناع عن أداء قسم الولاء لقدسية الإمبراطور و التصدي للاضطهاد بحزم

<sup>1</sup> - Allard (Paul) , les esclaves ...p.370

بحيث واجهوا مآسيهم بشجاعة في مواجهة تعسف الوثنيين و عن أظهروا ثباتاً أخلاقياً يفوق خصومهم<sup>1</sup>.

أصبحت منطقة شمال أفريقيا بمطلع القرن الثالث الميلادي العمود الفقري للنظام الغذائي الروماني، حيث مثلت المصدر الرئيسي لتزويد روما بحاجتها من الحبوب بعد أن خصصت مصر إنتاجها لتموين القسطنطينية وتراجعت الزراعة في صقلية. وقد سيطرت على هذه الثروة الزراعية النخبة الحاكمة، حيث كانت مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة مملوكة للإمبراطور وكبار الأرستقراطيين، بينما أشرف موظفون مختصون على تنظيم عمل الأبقان والعمال الموسمين في تلك الضياع الكبيرة. أما الملاك الصغار الذين نجوا من مصادرة أراضيهم، فكانوا يعانون تحت وطأة نظام ضريبي مجحف يشمل الضرائب العادية والاستثنائية بالإضافة إلى الخراج<sup>2</sup>.

في ظلّ الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي عصفت بالإمبراطورية الرومانية، اتخذ المسيحيون موقفاً ثورياً تمثل في التقارب مع الفقراء والمهمشين من خلال تقديم المساعدات المادية والدعوة إلى المساواة الاجتماعية، مما أثار حفيظة النخبة الوثنية التي رأت في هذه الممارسات تهديداً للنظام القائم. فقد اتهم الأثرياء الوثنيون المسيحيين بـ"تبيد الثروات" و"تقويض أركان الدولة"، حيث ارتبطت الوثنية في المخيال الروماني بمجد الإمبراطورية ووحدها السياسية. كما تحالفت ضد المسيحية قوى متنوعة شملت اليهود لأسباب دينية، وكبار الملاك حرصاً على مصالحهم الاقتصادية، والسلطة الحاكمة التي رأت في رفض المسيحيين تقديم الولاء السياسي تحدياً لشرعيتها<sup>3</sup>.

وقد نتج عن هذا التحالف المعادي موجات متعاقبة من الاضطهاد العنيف، حيث أصبح المسيحيون هدفاً للانتقام الجماعي، وكبش فداء للأزمات التي تواجهها الإمبراطورية حيث تصاعدت موجة العداة للمسيحية بشكل خاص في المدن الكبرى والمناطق الريفية التي تسيطر عليها النخبة

<sup>1</sup> - TERTULLIEN, XXXIX., 6; 8 ; 82, 83.

<sup>2</sup> - روبين دانيال، المرجع السابق، ص. 115.

<sup>3</sup> - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج. 1، ط. 5، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1996، ص. 64-65.

الرومانية، حيث مورست ضد المسيحيين أقسى أشكال الاضطهاد مستندة إلى سوابق قضائية تعود للقرن الأول الميلادي. وفي مواجهة هذا الظلم، أطلق ترتليانوس صرخة احتجاجية كاشفاً التناقض الصارخ في التعامل مع المسيحيين: "إن كنتم تعتبرونا أشراراً، فلماذا لا نُعامل كسائر المجرمين؟ بينما يتمتع الآخرون بحق الدفاع والمحاكمة العادلة، نُحرم نحن حتى من حق الكلام، ونُجبر على تقديم اعترافات باطلة<sup>1</sup>!" وقد انطلقت هذه السياسة القمعية من نظرة السلطات الرومانية التي رأت في المسيحيين عناصر منحرفة ترفض الطقوس الدينية الرسمية، تهديداً للنسيج الاجتماعي و معارضين سياسيين لامتناعهم عن عبادة الإمبراطور<sup>2</sup>.

هذا ما وُلد عداً لدى المتعصبين تجاه السلطة الرومانية الوثنية، حيث لم تكن ديانتهم تميز بين الغني والفقير، بل كانت تفرق بين المؤمن التقى والكافر الذي يخلو من التقوى. وهذا ما دفع "كليمون السكندري" (Clement d'Alexandrie) إلى حث الأغنياء على رعاية الفقراء ومشاركتهم ثروتهم إذا كانوا مسيحيين، مؤكداً أن الله خلق كل شيء للجميع، وأراد أن تكون الثروات مُستغلةً للصالح العام، إذ لا يجوز أن ينفرد بها فردٌ بينما يُحرم منها الآخرون<sup>3</sup> وفي السياق نفسه، دعا "ترتليانوس" إلى تقاسم الثروة بين الأغنياء والفقراء من المسيحيين، لتعم الفائدة على الجميع، قائلاً: "لا نتردد في مشاركة أموالنا مع الآخرين (أي المسيحيين)، فكل شيء بيننا مشترك إلا زوجاتنا"<sup>4</sup>.

انتشرت المسيحية بين بعض السكان منذ منتصف القرن الثاني الميلادي، رغم الاضطهاد الذي تعرضت له سابقاً<sup>5</sup> وعلى الرغم من توسعها في العديد من المناطق، إلا أن الأباطرة الرومان

<sup>1</sup> - عبد الحميد رأفت، الدولة والكنيسة، ج 1، كلية الآداب عين شمس، القاهرة، بلا. تا، ص. 27.

<sup>2</sup> - ترتليانوس، المناقحة (أو دفاع عن التوحيد)، تر. عمار الجلاصي، نشر، تواليت، 2001، ص. 10.

<sup>3</sup> - ه. ادرس بل، ه. ادرس (بل)، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، عربي و أضاف إليه، عبد اللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص. 128.

<sup>4</sup> - Clement d'Alexandrie, le pédagogue trad., Mondésert et Metray, éd., Du Cerf, Paris, 1770, II, XII, 120.

<sup>5</sup> - Tertullien, XXXIX, II

كانوا ينظرون إليها بحذر، معتبرين أتباعها طائفةً منحدرَةً من اليهود. وقد استفاد المسيحيون من العداء بين روما واليهود،<sup>1</sup> مما أتاح لهم فرصة الهجرة خارج فلسطين لنشر دعوتهم و من بين أبرز المضطهدين كان الإمبراطور "نيرون" (Neron)، الذي واجه المسيحيين بقسوة عندما بدأ نفوذهم يظهر في روما، حيث شنّ عليهم حملات اضطهاد ديني<sup>2</sup> وقد بلغ الأمر به إلى إصدار مرسومٍ يحظر اعتناق المسيحية، معاقبًا المخالفين بالسيف.<sup>3</sup>

ثالثاً: الصراعات و التحديات التي واجهتها المسيحية في بلاد المغرب القديم:

### 1- التأثيرات المحلية على الممارسات المسيحية

شكّلت الاضطهادات العنيفة التي واجهتها المسيحية في بداياتها عاملاً حاسماً في تشكّل هويتها السرية والجماعية. فبفعل النظرة الدونية التي حظي بها المسيحيون - الذين اعتُبروا مجرمين وخطراً يهدّد الديانة الوثنية وسلطة الإمبراطور - اضطر الأتباع الأوائل إلى اعتماد أسلوب التخفي وعدم الجهر بإيمانهم إلا ضمن دوائر ضيقة موثوقة<sup>4</sup>. لكن المفارقة تكمن في أن هذه الاضطهادات لم تضعف الإيمان الجديد، بل عمّقت في نفوس معتنقيه.

فقد تحوّل كل اضطهاد إلى عامل تماسك وتضامن جماعي، حيث كان تعرّض أي مسيحي للعذاب يزيد إصرار البقية على التمسك بدينهم<sup>5</sup>. وقد بلغت قسوة الاضطهاد ذروتها عندما تحوّل تعذيب المسيحيين إلى مظهر من مظاهر الترفيه الوثني، حيث كانوا يُلقى بهم للسجون أو يُرمون للوحوش الكاسرة في المدرجات، بينما حُرّموا حتى من حق الدفن الكريم، في محاولة لطمس وجودهم ومحو ذكراهم<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> - الباز العربي، تاريخ أوريا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1968، ص. 69.

<sup>2</sup> - Tertullien, V,3;4,13.

<sup>3</sup> - نعيم فرح، تاريخ بيزنطة، ج، 1، من القرن ال4 إلى ال8 م، مطبعة طربين، دمشق، 1984، ص.10.

<sup>4</sup> - TERTULLIEN, V,2,13

<sup>5</sup> - Cyprien (Saint), Correspondances, trad., Bayoret (Ch), éd., « les belleslettres », Paris, 1925, XVII, 1,49.

<sup>6</sup> - Monceaux (P.), H. L.A.C., T.I, p.12 .

المسيحيون الأوائل موجات عنفٍ ممنهجة من قبل الوثنيين، تجلّت في هجماتٍ وحشية لم تُفرّق بين الأحياء والأموات. وقد عبّر "ترتليانوس" عن هذه المأساة بقوله: "كم مرّة طاردتمونا بأحقادكم العمياء، ثمّ بقوانينكم الجائرة؟ كم مرّة انقضّت علينا جموعٌ غوغاءٌ مسلّحةٌ بالحجارة والمشاعل، بل وتعدّدت على موتانا فنبشت قبورهم ومزّقت جثثهم إرباً؟"<sup>1</sup>. وتفاقم العداء مع تحالفٍ خطيرٍ بين الوثنيين واليهود ضد المسيحيين، خاصةً أواخر القرن الثاني الميلادي، حين أصبح الانفصال عن المجامع اليهودية نهائياً. وفي عهد الإمبراطور "سبتيموس سيفيروس"، تجسّد هذا الكراهية في حادثةٍ مُهينةٍ، حيث طاف يهوديٌّ في قرطاج بتمثالٍ يُصوّر "إله المسيحيين" بشكلٍ مشوّهٍ - بجسدٍ يحمل كتاباً وأرجلٍ بأظلافٍ ورأسٍ بأذني حمارٍ - في استفزازٍ صارخٍ للمشاعر الدينية ولم يقتصر العداء على العامة، بل امتدّ إلى النخبة المثقفة، كما يظهر في خطابات الكاتب "فرونتون السيرتي" (Fronton de Cirta)، الذي وجّه سهامه ضد المسيحيين عبر خطبٍ علنيةٍ تحريضيةٍ<sup>2</sup>. لقد وظّف الكاتب الروماني "أبوليوس" - صاحب الرواية الشهيرة "الحمار الذهبي" - فته الساخر في هجاء المسيحيين، حيث قدّم في عمله صورةً مشوّهةً لامرأةٍ تدين بالمسيحية، تصوّرها على أنّها: "تتخذ من حمارٍ عشيقاً وتدنس المقدسات بركلها، وتؤمن بإلهٍ واحدٍ لديانةٍ وصفها بالنجاسة، إلى جانب اتهامها بالسُّكر والبغاء صباح كل يوم"<sup>3</sup> لم تكن هذه الصورة سوى تعبير عن حملة التشويه المتعمّدة التي قادها المثقفون ضد المسيحيين، مستغلين نفوذهم في الأوساط الارستقراطية والبرجوازية لنشر صورةٍ منحطّةٍ عن هذه الديانة الوليدة. وقد تحوّل هذا العداء الثقافي إلى اضطهادٍ ممنهجٍ بغطاءٍ رسمي، حيث: ساهمت الدعاية المغرضة في تأجيج الكراهية الاجتماعية و أصدرت المحاكم أحكاماً تعسفيةً دون أدلةٍ أو محاكماتٍ

<sup>1</sup> - TERTULLIEN ,XXXVII,2.

<sup>2</sup> - Monceaux (P.),H .L.A.C.,T.I, PP.39-40.

<sup>3</sup> - Apulee, Métamorphoses, trad., Valette, Valette, « les belles lettres », Paris, Paris, 1958,IX,14.

عادلة و أيضاً حُرْم المسيحيون من حقّ الدفاع عن أنفسهم أو نفي التهم الموجهة إليهم<sup>1</sup>. بل تجاوز الأمر إلى موجةٍ من العنف الشعبي المدعوم سلطوياً، حيث: أُبيح للعامة رجم المسيحيين بالحجارة و انتشرت حالات إحراق المنازل والممتلكات و تحوّل العنف ضد المسيحيين إلى ممارسةٍ شبه مشروعة<sup>2</sup>. أدى القمع الشديد للمسيحيين إلى تباين في المواقف، فبينما ارتد بعضهم خوفاً من الاضطهاد، تشبث الأغلبية بإيمانهم. وقد عقدت الكنيسة مجمعين حاسمين لمواجهة هذه الأزمة - الأول عام 215م برئاسة أسقف قرطاج أغريبيانوس لبحث قضية إعادة تعميد المرتدين، والثاني عام 217م بمشاركة 70 أسقفاً. ورغم القمع الوحشي، ازدادت شجاعة المسيحيين، كما تجلّى في تحدي ترتليانوس للسلطات بقوله: "يمكنكم تدمير قرطاج لو أردتم القضاء على كل مسيحيها"<sup>3</sup>، مما يعكس انتشارهم الواسع وقوتهم المتزايدة. وقد تحمل المؤمنون التعذيب بصبر نادر، معتبرين الاستشهاد "تاج الحياة" الأبدي، مما عزز إيمان الأتباع ووحدهم في مواجهة المحن<sup>4</sup>.

اعتبرت الإمبراطورية الرومانية المسيحيين تهديداً خطيراً لسلطتها، حيث رأت في رفضهم عبادة الآلهة الرومانية وتآليه الإمبراطور تحدياً صريحاً للنظام القائم<sup>5</sup>. وقد تجلّت هذه المواجهة في عدة جوانب: من ناحية أولى، اتخذت الدولة إجراءات قمعية صارمة ضد المسيحيين، حيث صنفت الإعلان عن الديانة المسيحية كجريمة يعاقب عليها بأقسى العقوبات، مع تجاهل تام لمبادئ العدالة في محاكمتهم<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> - Monceaux(P.),H .L.A.C.,T.II, p.42.

<sup>2</sup> - LARTHAGE (E.Thepenier) , «Romaine Chrétienne, Vandale et Byzantine », R. S.A.C, Vol. 12,1923-1924.p,109.

<sup>3</sup> - DICTIONNAIRE de Conciles, rédigé par M.L Abbé ad.-CH.Peltier, Catholiques, Paris, 1847, p.460.

<sup>4</sup> - Cyprien(Saint), lettre ;XII,2 ;3,34.

<sup>5</sup> Berthier ( André ), les vestiges du christianisme antique dans le département De Constantine, imprimerie, F.Fontany, S.D,p37.

<sup>6</sup> - TER TULLIEN,XI,9,6.

ومن ناحية ثانية، كان هذا القمع ينبع من رغبة الإمبراطورية في الحفاظ على هيبتها كقوة عظمى أخضعت العالم القديم وخصوصاً عندما شعرت أن هذا التمرد الديني يأتي من داخلها ومن رعاياها أنفسهم

أما من ناحية ثالثة، فقد تفاقم الصراع بسبب غياب أي قنوات للحوار بين الطرفين، حيث أصرت السلطة على مبدأ تأليه الإمبراطور كرمز للوحدة السياسية والدينية، بينما تمسك المسيحيون بعقيدتهم الجديدة. هذا التعنت من الجانبين أدى إلى استمرار حالة المواجهة وتصاعد وتيرة العنف، مما عمق الفجوة بين الدولة ورعاياها المسيحيين، وحول المسيحية من مجرد دين جديد إلى قضية سياسية تهدد أسس النظام الروماني.

### 2- سياسة الإمبراطورية الرومانية إزاء المسيحية:

اعتمدت الإمبراطورية الرومانية على عبادة الإمبراطور كعامل توحيد مركزي بين شعوبها المتنوعة، مما جعل المسيحية بتركيزها على التوحيد ورفضها لعبادة الأصنام عنصراً مناقضاً لهذا النظام. وقد سعت السلطات أولاً لدمج المسيحيين في المنظومة الدينية الرسمية، ولكن إصرارهم على رفض عبادة الإمبراطور وتحول المسيحية لدى البعض إلى وسيلة للمقاومة الروحية دفع الدولة لتكثيف سياساتها القمعية. فأخذت موجات الاضطهاد تتصاعد تدريجياً، مما أدى إلى تنامي ظاهرة الاستشهاد الديني من جهة، وإلى انتشار أوسع للمسيحية من جهة أخرى، حيث تحولت من دين مضطهد إلى قوة روحية جاذبة في عالم يتوق إلى المعنى الروحي، في مفارقة تاريخية لافتة<sup>1</sup>.

شهدت العلاقة بين الإمبراطورية الرومانية والمسيحية تطوراً تاريخياً مهماً يمكن تقسيمه إلى

مرحلتين رئيسيتين:

المرحلة الأولى: مرحلة العداء (منتصف القرن الأول - 311م)

• الفترة المبكرة (64-303م): شهدت اضطهادات متقطعة بدأت بأحداث عهد نيرون عام 64م

• الفترة الشرسة (303-311م): شهدت أقسى موجات الاضطهاد في التاريخ الروماني

<sup>1</sup> - TERTULLIEN, XXXIX, 39: 82-83.

المرحلة الثانية: مرحلة الاحتواء (من 311م فصاعداً)

• تبني المسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية

• تحول جذري في السياسة الرومانية تجاه المسيحية

وقد كان لهذا التحول السياسي الديني آثار عميقة سواءً على مستوى الإمبراطورية ككل و بشكل

خاص في مقاطعة المغرب القديم التي أظهرت ردود فعل مميزة تجاه كلا المرحلتين

المرحلة الأولى: مرحلة العداء (منتصف القرن الأول - 311م) :

### 1\_ الفترة المبكرة (64-303م)

اندلعت أولى موجات الاضطهاد المنظمة ضد المسيحيين في عهد نيرون (54-68م) عندما

حملهم مسؤولية الحريق الكبير الذي شبّ في روما عام 64م<sup>1</sup> مما أشعل فتيل صراع متصاعد بين

السلطة الرومانية والجماعة المسيحية. وقد تفاقم هذا العداء بسبب التوجهات الأخوية للمسيحيين

الأوائل الذين آمنوا باقتراب يوم القيامة ونزعوا عن العالم الدنيوي، مما أضر بمصالح الإمبراطورية خاصة

مع رفضهم الخدمة العسكرية ومعارضتهم للحروب وما تخلفه من معاناة إنسانية، فضلاً عن امتناعهم

عن إظهار الولاء للنظام الحاكم احتجاجاً على طابعه الديني الوثني<sup>2</sup>.

شهد المغرب القديم خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين سلسلة من الاضطهادات العنيفة

ضد المسيحيين، حيث قدّم الأفارقة العشرات من الشهداء، خاصة في النصف الثاني من القرن الثاني.

وبعد الأحداث الدموية التي رافقت بداية حكم "كومودوس" وعمليات الإعدام الجماعية عام

180م، بدأت المسيحية تترسخ في المنطقة. تمكن التبشير المسيحي خلال فترة الهدوء التي أعقبت

تلك الأحداث من استقطاب أعداد كبيرة من السكان<sup>3</sup> حيث ركز الدعاة على الدعوة إلى الثبات

<sup>1</sup> - ه ادريس بل، المرجع السابق، ص. 159-158

<sup>2</sup> - ديورانت ( وول)، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، دار الجليل، بيروت، د. ت، ص 177.

<sup>3</sup> - جنير ( شارل)، المسيحية، نشأتها وتطورها، ترجمة محمود عبد الحليم، المكتبة لعصرية للطباعة والنشر، بيروت، بلاتاء، ص 166.

في الإيمان، الوعد بالحياة الأبدية للأوفياء و تبشير المضطهدين بالخلاص إذا صبروا حتى النهاية<sup>1</sup>. هذا التوجه ساهم في تعميق الإيمان وتثبيت أقدام المسيحية رغم الظروف القاسية.

يؤكد ترتليانوس في كتاباته كيف حوّل المسيحيون الأزمات إلى فرص للتبشير، قائلاً: - "إننا نعتزف بالله كرب وكخالق لكل شيء... وإننا نتردد باستمرار على ساحاتكم (يقصد ساحات الوثنيين)، وعلى أسواقكم ودكاكينكم وفنادقكم، ومعارضكم ومختلف أماكن التجارة. إننا نسكن معكم في هذا العالم... ونخدم جنديكم. ونعمل في الأرض، ونمارس التجارة. وتبادل معكم منتجات فننا وأعمالنا. فكيف تريدون منا أن نظهر باننا غير مفيد في أعمالكم؟ إننا نعيش معكم ولكم"<sup>2</sup>

تمكنت الكنيسة في المغرب القديم، بفضل روح التسامح التي تبنتها واستراتيجياتها الحكيمة في التعايش، من جذب أفراد من مختلف الطبقات الاجتماعية، سواء من الأغنياء أو الفقراء أو العبيد (77). غير أن هذا الانتشار الواسع أثار قلق السلطات الرومانية، مما دفعها إلى تشديد قبضتها على المسيحيين عبر إصدار قانون عام 197م يحظر إقامة المقابر داخل المناطق السكنية أو حولها. واجه المسيحيون هذا التضييق بحنكة كبيرة، حيث أقاموا مقابرهم بالقرب من الأضرحة الوثنية، مع عزلها بأسوار متينة. وقد تحولت هذه المقابر إلى رمز حي لوحدة المجتمع المسيحي، حيث دفن الأغنياء والفقراء جنباً إلى جنب في تعبير صارخ عن مبادئ المساواة والإخاء. وتكشف الشواهد الأثرية أن معظم الكنائس اللاحقة بنيت فوق أضرحة الشهداء، مما يؤكد الدور المركزي لثقافة الاستشهاد في ترسيخ المسيحية بالمنطقة<sup>3</sup>.

شهد القرن الثالث الميلادي تحولاً ديموغرافياً ودينياً بارزاً في المغرب القديم، حيث تزايد عدد المسيحيين بشكل ملحوظ مقابل انحسار الممارسات الوثنية، مما أفرغ المعابد التقليدية من روادها وأثار

<sup>1</sup> - LEBRETON (J.) et autre ,histoire de l'Eglise, T.2, bland et GAY, Paris, 1948,p. 136.

<sup>2</sup> - Cyprien(Saint) ,lettre ;XIV,2,41.

<sup>3</sup> - LE BRETON (J.)et et Zeller (J),histoire de l'église, T,2( de la fin du II° siècle à la paix Constantienne, Bloud et Gay, Paris ,p.137.

مخاوف النخبة الحاكمة<sup>1</sup> وقد دفع هذا التحول الوثنيين إلى شن حملات عدائية مكثفة ضد المسيحيين، مستفيدين من تحالفهم مع السلطات الرومانية وفي خضم هذه الأجواء المضطربة، برزت أزمة الردة خلال عهد القديس قيريانوس<sup>2</sup>، خاصة بعد مرسوم الإمبراطور ديسيوس (249-251م) الذي أجبر المسيحيين على إثبات ولائهم علناً و فرض نظام "شهادات الولاء" المكتسبة كذلك تسبب في ارتداد العديد من المؤمنين<sup>3</sup>.

شهدت الإمبراطورية الرومانية تصعيداً غير مسبوق في اضطهاد المسيحيين خلال النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، حيث أصدرت سلسلة من المراسيم القاسية التي أجبرت جميع المواطنين على تقديم القرابين للآلهة الوثنية، مع اعتبار الممتنعين مسيحيين وخونة للدولة<sup>4</sup>. وقد أدى هذا الضغط إلى ارتداد بعض المسيحيين ضعاف الإيمان، الذين لجأوا إلى تزوير شهادات تثبت ولائهم للوثنية خوفاً من العقاب.

اتبعت السلطات أساليب قمعية بالغة القسوة، حيث استخدمت أشنع وسائل التعذيب والإعدام و وجهت للمسيحيين تهماً ملفقة مثل الانتماء لجماعات سرية والتآمر على السلطة و أيضاً عاقبت المتمسكين بإيمانهم بمصادرة الممتلكات والنفي والإعدام، وأسست لنظام قضائي جائر حيث منحت القضاة صلاحيات مطلقة في تحديد العقوبات و خضعت الأحكام لأهواء القضاة الشخصية كما تحولت المحاكم إلى أدوات للترهيب الجماعي<sup>5</sup>.

أمام سياسة الاضطهاد المنظمة، اضطر العديد من المسيحيين إلى إعلان التخلي عن إيمانهم علناً في الساحات العامة خوفاً من الموت، مما أثار جدلاً لاهوتياً حاداً داخل الكنيسة حول كيفية التعامل مع هؤلاء المرتدين<sup>6</sup> وقد تصدى القديس قيريانوس لهذه الأزمة عام 251م، معلناً موقفاً

<sup>1</sup> - Vaultrin (J.), les Basiliques Chrétiennes de Carthage, Rev. Afr., n° 73, 1932, p.201

<sup>2</sup> - نعيم (فرج)، تاريخ بيزنطة، ج، 1، من القرن ال4 إلى ال8 م، مطبعة طربين، دمشق، 1984، ص.12.

<sup>3</sup> - DUNAN (Marcel), et Autres, histoire Universelle, T.1, Librairie Larousse, Paris, 1960, p. 158

<sup>4</sup> - جوليان (شارل أندري)، المرجع السابق، ص.282-284.

<sup>5</sup> - ه ايدر بل، المرجع السابق، ص.13.

<sup>6</sup> - جنبيير (شارل)، المرجع السابق، ص.169-170.

صارماً: "لقد تنكروا لنعمة المعمودية المقدسة، ورفضوا ماء الحياة الأبدية، فأصبحوا نجسين. لذلك يجب أن يعاد تعميدهم كلياً كما في المرة الأولى"<sup>1</sup>.

عقدت الكنيسة في قرطاج سلسلة من المجمع الكنسية المهمة خلال الأعوام 253م و254م و255م و256م، بحضور عدد كبير من الأساقفة من مختلف أقاليم شمال أفريقيا، بما في ذلك البروقنصلية ونوميديا وموريطانيا. وقد ركزت هذه المجمع على قضيتين رئيسيتين: الأولى هي مسألة التعميد و الثانية تمثلت في التعامل مع الهرطقة (أصحاب البدع) وبعد نقاشات مستفيضة، توصل المجتمعون إلى إبطال مفعول التعميد السابق للمرتدين، اشتراط تعميد جديد لعودتهم إلى الكنيسة و التأكيد على وحدة سر التعميد وقد عبّر القديس قبريانوس، رئيس هذه المجمع، عن هذا الموقف بقوله: "لا أعترف سوى بمعمودية واحدة داخل الكنيسة، تجسد حقيقة الرجاء والإيمان". أثارت قرارات مجمع قرطاج حول إعادة تعميد المرتدين والهرطقة خلافاً عميقاً مع الكرسي الرسولي في روما. فعندما تم إبلاغ البابا إتيان الأول (Etienne I) بهذه القرارات<sup>2</sup> رفضها جملة وتفصيلاً، إذ كانت كنيسة روما تتبنى موقفاً أكثر تساهلاً يعتبر التعميد الأول صالحاً حتى في حالات الردة. هذا الخلاف العقائدي أدى إلى توتر غير مسبوق بين الكنيستين القرطاجية والرومانية<sup>3</sup>.

وفي خضم هذه الأزمات الكنسية، برزت نوميديا كقلعة للصمود المسيحي، قدمت عدداً كبيراً من الشهداء الذين ثبتوا على إيمانهم حيث كشفت النقوش الأثرية عن أسماء العديد من المستشهدين المحليين و برهنت آثار منطقة جيتول الجنوبية على انتشار واسع لثقافة الاستشهاد<sup>4</sup>، تكشف النقوش الأثرية المكتشفة في منطقة "ميلاف" النوميديية عن شهادات مؤثرة عن اضطهاد المسيحيين خلال

<sup>1</sup> - شنيقي ( محمد البشير)، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، المرجع السابق، ص.275.

<sup>2</sup> - Cyprien(Saint) ,lettre, LXXI,3.

<sup>3</sup> - البابا إتيان الأول، ترأس البابوية ما بين سنتي ٢٣٥-٢٣٧ م، طرحت أثناء بابويته مسألة صحة التعميد من قبل المبتدعة، لمزيد من المعلومات

أنظر: - Dic Unv. De hist. ,géo., p.584.

<sup>4</sup> - DICTIONNAIRE de Conciles, rédigé par M.L abbé ad.-CH. Peltier, Ateliers Catholiques, Paris, 1847,p.p261-268.

عهد القديس قبريانوس<sup>1</sup> فقد عُثر على قوارير طقسية يُعتقد أنها استُخدمت في حفظ دماء الشهداء، بالإضافة إلى شواهد قبور تحكي قصص مقاومة مسيحيي المنطقة بين هذه الشواهد، نقش يذكر قساً نوميدياً حُكم عليه بالأعمال الشاقة في المناجم عام 257م، وآخر يحمل اسم شهيد نوميدي يمكن تمييز أصله من اسم أبيه. هذه الاكتشافات لا توثق فقط أساليب القمع الروماني التي تراوحت بين الإعدام والنفي، بل تكشف أيضاً عن مدى تمسك المسيحيين النوميديين بإيمانهم رغم الاضطهاد، وتؤكد استمرار الهوية المسيحية المحلية في مواجهة سياسات القمع الإمبراطوري.

شهدت العلاقة بين المسيحيين والسلطة الرومانية تحولاً جذرياً خلال فترة السلم التي امتدت قرابة أربعين عاماً، والتي مثلت مرحلة حاسمة في تاريخ المسيحية المبكرة. خلال هذه الفترة الذهبية، تمكّن المسيحيون من إعادة تنظيم صفوفهم وتقوية نفوذهم، بينما انتهجت السلطة سياسة مرنة تجاههم، حيث منحت طبقة النبلاء المسيحيين امتيازات خاصة بإعفائهم من عبادة الإمبراطور<sup>2</sup>، كما سمحت بممارسة شعائرهم الدينية بحرية أكبر وبناء كنائسهم<sup>3</sup>.

وقد أدى هذا الانفتاح النسبي إلى تحوّل عميق في المواقف الاجتماعية للمسيحيين، حيث تحلّوا تدريجياً عن عزلتهم الأولى وانخرطوا بكثافة في الحياة العامة، سواء عبر الخدمة في الجيش أو شغل المناصب الإدارية، دون أن تواجههم معارضة تذكر من الكنيسة<sup>4</sup>. وهكذا تحوّل المسيحيون من جماعة منعزلة تنتظر يوم القيامة إلى قوة اجتماعية فاعلة، في واحدة من أهم التحولات التي مهدت لاحقاً لاعتراف الإمبراطورية بالمسيحية.

<sup>1</sup> - MESNAGE, op-cit. ,p.114.

<sup>2</sup> - Monceaux (Paul ),enquête sur l'épigraphie chrétienne d'Afrique, imprimerie retend ,Paris, 1897.p.51

<sup>3</sup> - شنيبي محمد البشير، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، مرجع سابق،ص.275.

<sup>4</sup> - جوليان ( شارل أندري)، المرجع السابق،ص.286.

الفترة الشرسة (303-311م) :

شهدت السياسة الرومانية تجاه المسيحيين انعطافة حادة مع صعود الإمبراطور "دقلديانوس"<sup>1</sup> (284-305م) Diocletianos إلى السلطة ، حيث أقدم فجأة على إلغاء سياسة التسامح التي سادت خلال العقود الأربعة السابقة. جاء هذا التحول بعدما لاحظ الإمبراطور تنامياً مقلماً للديانة المسيحية، التي نجحت في اختراق مختلف شرائح المجتمع، من المدن الكبرى إلى وحدات الجيش الروماني<sup>2</sup> وقد دفعت هذه التطورات دقلديانوس إلى اتخاذ إجراءات قمعية عنيفة، في محاولة يائسة لإيقاف المد المسيحي المتصاعد واستعادة الهيمنة الدينية التقليدية للإمبراطورية، مما أشعل واحدة من أشرس موجات الاضطهاد في التاريخ المسيحي.

في إطار حملته القمعية، أصدر دقلديانوس مرسوماً إلزامياً يفرض على جميع عناصر الجيش الروماني اعتناق الوثنية وممارسة عبادة الإمبراطور. وقد أدى هذا القرار إلى فرار العديد من الجنود المسيحيين من الخدمة العسكرية وتجمدت أبرز حالات الرفض في حادثة مؤثرة وقعت في مدينة "تفست" (تبسة الحالية شرق الجزائر) عام 295م، عندما وقف أحد أبناء العائلات العسكرية المسيحية أمام البروقنصل معلناً بنبات: "أرفض الخدمة العسكرية. أرفض ارتكاب الشر. أنا مسيحي... لن أكون جندياً. بإمكانكم قطع رأسي، لكنني لن أكون جزءاً من هذا الجيش. أنا جندي المسيح وحده... لا يمكنني أن أخدم في جيشكم الدنيوي. أنا مسيحي، كما أخبرتكم مراراً"، ورداً على هذا التحدي الصريح، أصدر البروقنصل أمراً بإعدامه فوراً، مما جعل منه أحد أوائل شهداء العصيان الضميري في التاريخ المسيحي المبكر.

شهدت موريطانيا القيصرية (منطقة حوض الشلف) حالة أخرى من حالات الرفض الضميري للخدمة العسكرية، عندما أعلن مجند قديم اعتنق المسيحية حديثاً رفضه القاطع للقتال،

<sup>1</sup> - دقلديانوس (جايوس أوريليوس دقلديانوس) Caius Aurelius Diocletianus وُلد الإمبراطور حوالي عام 245م في أسرة متواضعة، وتولى العرش خلفاً للإمبراطور كارينوس Carnus عام 284م. اشتهر دقلديانوس كقائد عسكري صارم وسياسي مخنك، تمتع برؤية إصلاحية واسعة .

<sup>2</sup> - جنيبير (شارل)، المرجع السابق، ص 171

قائلاً لقائده: "إني مسيحي، ولا يمكنني القتال تحت قيادتك" وقد أدى موقفه هذا إلى إعدامه فوراً بضربات السيف، مثلت هذه الحادثة نموذجاً للصراع بين الولاء الديني والواجب العسكري في الإمبراطورية الرومانية، حيث ازداد عدد الشهداء الذين فضلوا الموت على انتهاك مبادئهم المسيحية. وقد سجلت مناطق متعددة من الإمبراطورية حالات مشابهة لرفض الخدمة العسكرية، مما يدل على انتشار القيم المسيحية حتى في صفوف الجيش الروماني، وعلى الثمن الباهظ الذي دفعه أولئك الذين تمسكوا بإيمانهم رغم تهديده لحياتهم<sup>1</sup>.

نرى أن المسيحيين قد تبنا رؤية ترتليانوس الذي قال: 'إن المسيحي لا ينبغي له أن ينضم إلى الجيش، وإذا كان جندياً واعتنق المسيحية، فخير ما يفعله هو أن يفر'<sup>2</sup>، رغم أن هذه الدعوة إلى رفض الخدمة العسكرية كانت سابقة لفترة فرض الوثنية في الجيش، بعد مرحلة من التعايش السلمي، فإنها بلا شك مثلت تحريضاً على عصيان السلطة الإمبراطورية الوثنية. كما أنها تتناغم مع التعاليم المسيحية التي تدعو إلى السلام والتسامح والإخاء، وترفض العنف بكل أشكاله<sup>3</sup> وكانت الكنيسة المسيحية تنظر إلى كل ما هو وثني باعتباره عميلاً للشيطان، مع اقتناعها بأنها تمثل المستودع الوحيد للحقيقة الإلهية. لذا رفضت فكرة المساواة مع الوثنية، لأن ذلك - في نظرها - يُعد إهانة لمكانته<sup>4</sup>.

ومن الطبيعي أن تتعامل السلطة مع هذا التمرد بحزم وشدة، خاصةً وأنه يهدد هوية الدولة وقوتها الرمزية، التي أخضعت شعوباً عديدة في العالم القديم لسيطرتها واستنزفت خيراته. لكنها وجدت نفسها مهددة الآن من الداخل، بل ومن أبنائها أنفسهم. وفي اعتقادي، أن غياب الحوار بين السلطة ورعاياها، واستمرار تأليه الإمبراطور ورفضه التنازل عن هذه المكانة، قد أدى إلى حالة من الانسداد التاريخي. ففي وقت كانت الدولة الرومانية تواجه تهديدات خارجية من قبائل الشمال

<sup>1</sup> - MERMEUX, histoire romaine, Arthene Fayard et Cie éditeurs, Paris, 1930, p.639.

<sup>2</sup> - Albertini ;Harcais(G.),op-cit.,p. 110.

<sup>3</sup> - جوليان (شارل أندري)، المرجع السابق، ص.ص 287-288.

<sup>4</sup> - شنيبي (محمد البشير)، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية...ص.277.

الجرمانية، وجدت نفسها مهددة أيضاً من الداخل بمواطنين رفضوا المشاركة في الدفاع عنها<sup>1</sup> فقد رأت السلطة أن المسيحية تُشكل عامل تهديد لوحدة الدولة، خاصةً بعدما بدأت تنتشر في بلاد فارس، العدو التقليدي لروما، مما أثار مخاوف من تحولها إلى خطر استراتيجي محتمل<sup>2</sup>.

كن ذروة الاضطهاد جاءت في ربيع عام 303م، عندما ضغط القيصر "غاليريوس" على الإمبراطور "دقلديانوس" لإصدار مرسوم الاضطهاد، بشرط تجنب إراقة الدماء في البداية. غير أن الأمور اتخذت منحى أكثر قسوة بعد الحريق المشبوه الذي شبّ في القصر الإمبراطوري<sup>3</sup> ثم ازدادت الحملة شراسة بعد حريق ثانٍ اندلع بعد أسبوعين فقط، مما عزّز الشكوك بأن هذه الحرائق كانت مدبّرة لدفع الإمبراطور نحو تصعيد الاضطهاد. وقد وُجّهت أصابع الاتهام إلى المسيحيين، وبدأ "دقلديانوس" - في دعر واضح - وكأن المسيحية قد تسللت إلى أعتاب قصره نفسه.

ولم يسلم أحد من الشك، حتى أن زوجته "بريسكا" وابنته "فاليريا" - اللتين كشفت التحقيقات عن اعتناقهما المسيحية - أُجبرتا على تقديم القرابين للآلهة الوثنية. وهكذا تحوّل الاضطهاد من حملة قمع رسمية إلى موجة تعذيب وحشية طالت حتى أقرب المقربين للإمبراطور،<sup>4</sup> في 23 فبراير 303م، أصدر الإمبراطور "دقلديانوس" المرسوم الأول الذي مثّل نقطة التحول في سياسة الاضطهاد المنظم. فقد أمر بهدم الكنائس المسيحية وإحراق الكتب المقدسة، كما حظر على المسيحيين عقد الاجتماعات الدينية وسلب منهم الحقوق القانونية الأساسية، بما في ذلك حق التقاضي والدفاع عن النفس أمام المحاكم<sup>5</sup> و لم يكن هذا القرار مجرد حملة قمعية عابرة، بل جاء كإجراء استباقي لحماية الإمبراطورية وهويتها الوثنية التي بدت مهددة بانتشار المسيحية المتسارع.

<sup>1</sup> - جنيبير ( شارل )، المرجع السابق، ص173

<sup>2</sup> - LATOUCHE (R), les grandes invasions et la crise de l'occident au V<sup>e</sup> siècle, Aubier, éditeurs, Montaigne, Paris, 1946, p.63.

<sup>3</sup> - فرح (نعيم)، المرجع السابق، ص13.

<sup>4</sup> - ه ادريس بل، المرجع السابق، ص 158.

<sup>5</sup> - LE BRETON (J.), op-cit., p. 464 103

وتوالى على إثره سلسلة من المراسيم الإمبراطورية بين عامي 303-305م، التي فتحت الباب على مصراعيه لموجة عنف منهجية ضد المسيحيين، حيث مُنحت السلطات المحلية صلاحيات مطلقة في ملاحقتهم وفي عام 303م نفسه، أصدر دقلديانوس مرسومين إضافيين لتعزيز القمع: المرسوم الثاني الذي أمر بسجن المتمسكين بالمسيحية رغم التحذير، والمرسوم الثالث الذي فرض تقديم القرابين الوثنية تحت تهديد التعذيب، مما أدى إلى امتلاء السجون و اشتداد موجة الإعدامات. ثم جاء المرسوم الرابع عام 304م ليحجر جميع المواطنين على تقديم القرابين للإمبراطور<sup>1</sup>، مما خلق موقفاً صعباً للمسيحيين بين التخلي عن إيمانهم أو مواجهة الموت، حيث أثمرت هذه السياسة نتائج متناقضة: فبينما أعلن بعض المسيحيين تنازلهم خوفاً، ازداد آخرون تمسكاً بإيمانهم. وفي خضم هذا الاضطهاد، نجح رجال الدين في الحفاظ على التراث المسيحي بنقل الكتب المقدسة إلى أماكن آمنة<sup>2</sup> و هذه الإجراءات القاسية، بدلاً من القضاء على المسيحية، ساهمت في تعميق إيمان المؤمنين وتقوية تماسكهم الداخلي، بينما زادت من شرح الثقة بين المواطنين والسلطة الإمبراطورية.

### آثار السياسة الدينية الرومانية على بلاد المغرب القديم:

تكشف الشواهد الأثرية عن اتساع نطاق الاضطهادات الدينية، حيث توضح النقوش المكتشفة في موقع "ميلاف" بنوميديا تنوع المناطق الجغرافية لضحايا هذه الحملات. فمن بين الشهداء المسجلين على النصب التذكارية، نجد أسماء تعود إلى مدن كالاما (Calama) (قلعة بني عباس حالياً)، و تفتت (تبسة)، وروسيكادا (سكيكدة)، وستيفيس (Sitifis) (سطيف). كما كشف نصب آخر عُثر عليه في منطقة "أموديرة" (Ammodara) عن وجود عدد كبير من الشهداء، وإن كانت أسماءهم غير واضحة تماماً<sup>3</sup> بسبب عوامل التعرية أو التلف، مما يشير إلى أن عمليات الاضطهاد لم تكن مقتصرة على مراكز حضرية محددة، بل طالت مناطق متفرقة من نوميديا.

<sup>1</sup> - فرج (نعيم)، المرجع السابق، ص. 13؛ الملي (مبارك)، تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج. 1، مطابع بدران، بيروت، 1963، ص. 160.

<sup>2</sup> - LE BRETON (J), op-cit., p.465-466.

<sup>3</sup> - AUDOLLENT (Auguste), po-tic, p. 507

تكشف النقوش الأثرية في موقع ميلاف بنوميديا تفاصيل دقيقة عن طبيعة الاضطهاد الدقلديانوسي الذي تعرض له سكان المنطقة، حيث مرت الحملة القمعية بمرحلتين رئيسيتين: بدأت بمرحلة التفتيش والملاحقة في مايو 303م، ثم تلتها مرحلة إجبارية تقديم القرابين للآلهة الوثنية التي استمرت حتى 20 نوفمبر من نفس العام<sup>1</sup> وبالتوازي مع هذه الأحداث، عثر الباحثون على نصب تذكاري هام في ماسكولا (خنشلة حالياً) يعود لتاريخ 12 فبراير 304م<sup>2</sup>، وهو مخصص لتخليد ذكرى شهداء قرطاج وعلى رأسهم أبينا<sup>3</sup>، لقد كشفت سياسة الاضطهاد الدقلديانوسي عن مفارقة تاريخية عميقة في المغرب القديم، حيث أدت الحملات القمعية إلى نتائج عكسية تعززت معها روابط التضامن الاجتماعي بين المسيحيين فبدلاً من إضعاف الجماعة المسيحية، ساهمت هذه الاضطهادات في توحيد صفوفهم وخلق شبكات سرية للتضامن والمقاومة. الأكثر إثارة أن هذه الأزمة أبرزت أشكالاً غير متوقعة من التآزر العابر للانتماءات الدينية، حيث قام بعض الوثنيين - الراضين هم أيضاً لعبادة الإمبراطور - بحماية رجال الدين المسيحيين وإيواءهم، كما ساهموا في إنقاذ الكتب المقدسة من التدمير<sup>4</sup>.

شهدت نوميديا في يونيو 303م تصعيداً خطيراً في سياسة الاضطهاد تحت حكم البروقنصل "فلوريس" الذي نفذ الأوامر الإمبراطورية بمنتهى القسوة، حيث شن حملة منهجية شملت تدمير الكنائس وتحطيم ممتلكاتها، ومصادرة الكتب المقدسة وإحراقها علناً وواجه المسيحيون خياراً قاسياً

<sup>1</sup> - LE BRETON (J.), op-cit.,p.467.

<sup>2</sup> - MONCEAUX (Paul ), op-cit.,p.

<sup>3</sup> - أبينا، قرية قريبة من مقر البروقنصلية امتنع الكثير من أهاليها عن الاستجابة لأوامر السلطات الداعية إلى تسليم الكتب المقدسة والالتزام بالديانة الوثنية، وفضلوا العقاب الشديد على التعامل مع السلطة، التي قتلت منهم ١٩ امرأة و ٩ رجال و ٥ أطفال، وقد مات هؤلاء تحت التعذيب في السجن واعتبروا شهداء عقيدة.لمزيد من المعلومات أنظر : -

-MARTROYE(F.), « une tentative de révolution sociale en Afrique.Donatiste et circoncellions. »,R.Q.H., T.32,1904,p.365.

<sup>4</sup> - LESCHI(Louis), «Basilique et Cimetière Donatistes de Numidie(AinGhorab)»,R.AFR, N° 77,1936,p.34

بين الموت أو تقديم القرابين للإمبراطور، فاختار العديد من رجال الدين تحمل العذاب والاستشهاد، بينما اضطر قلة منهم للتخلي عن إيمانهم وتسليم الكتب والمقتنيات الدينية، مما أكسبهم لقب<sup>1</sup> الخونة"، إلا أن هذه الممارسات القمعية لم تحقق الهدف المرجو من القضاء على المسيحية، بل على العكس، عززت من تصميم المؤمنين على التمسك بعقيدتهم، وكشفت عن تعقيد المشهد الديني في نوميديا حيث تباينت ردود الأفعال بين الصمود البطولي والاستسلام تحت وطأة الاضطهاد.

لقد نجحت سياسة الاضطهاد إلى حد كبير في بثّ الخوف والرعب بين صفوف المسيحيين، حيث اضطر العديد منهم - تحت وطأة التعذيب والتهديد بالموت - إلى التخلي عن إيمانهم وتسليم الكتب المقدسة للسلطات التي قامت بإحراقها علانية. هذه الإجراءات القمعية لم تؤد فقط إلى انقسامات داخل المجتمع المسيحي، بل خلقت أيضاً خلافاً عميقاً بين أفرادها حول كيفية التعامل مع أولئك الذين ارتدوا تحت الضغط<sup>2</sup>. فبينما نظر البعض إلى المرتدين (Traditores) بعين الشفقة باعتبارهم ضحايا للظروف، اعتبرهم آخرون خونة للعقيدة، مما ولّد توترات دائمة داخل الجماعة المسيحية واستمرار النقاش حول شرعية هؤلاء المرتدين ومكانتهم في الكنيسة. لقد انقسم المسيحيون في موقفهم من المرتدين (Traditores) بين فريقين: فريق رأى فيهم ضحايا اضطروا إلى التظاهر بالكفر تحت وطأة التعذيب، وفريق آخر اعتبرهم خونة وخارجين عن الدين. هذا الانقسام كان بمثابة البذرة الأولى للصراعات الداخلية التي شهدتها الكنيسة في الفترات اللاحقة.

ويبدو أن دقلديانوس، رغم قسوة قراراته<sup>3</sup>، كان مدفوعاً بأسباب سياسية ودينية معقدة. إلا أن سياسة الاضطهاد هذه فشلت في تحقيق هدفها الأساسي المتمثل في القضاء على المسيحية، بل كان لها آثار عميقة على مستقبل الإمبراطورية ككل، وعلى منطقة المغرب القديم بشكل خاص.

<sup>1</sup> - WELTER (G.), histoire des sectes chrétiennes (des origines a-nous jours), Payot, Paris, 1950,p.67.

<sup>2</sup> - RAGOT (w), op-cit., p. 232.

<sup>3</sup> - GSEEL, (St.), L 'Algérie dans l'antiquité ...p. 113

في المغرب، تحولت المسيحية إلى وسيلة مقاومة اجتماعية ورمزاً للهوية المحلية، حيث حافظت على طابعها كديانة للطبقات المسحوقة، رغم اعتناق بعض الأغنياء لها. واللافت أن السلطات الرومانية عاملت مسيحيي المغرب بقسوة وعنف يفوق ما تعرض له نظراؤهم في المناطق الأخرى<sup>1</sup>، مما يعكس خصوصية الوضع في هذه المنطقة ودرجة التحدي التي مثلتها المسيحية للنظام القائم هناك.

### المرحلة الثانية: مرحلة الاحتواء (من 311م فصاعداً)

في منعطف تاريخي حاسم، أصدر الإمبراطور غاليريوس في 30 أبريل 311م مرسوماً بوقف جميع أعمال العنف ضد المسيحيين، وذلك خلال فترة صراعه مع مرض عضال ألم به. وقد تضمن المرسوم - في لحظة مفارقة - التماساً غريباً من المسيحيين بأن يرفعوا صلواتهم من أجل شفائه ومن أجل استقرار الإمبراطورية<sup>2</sup> يشكّل مرسوم غاليريوس عام 311م منعطفاً حاسماً في السياسة الرومانية تجاه المسيحية، حيث مثل تحولاً جذرياً من سياسة القمع إلى محاولة استرضاء هذه الديانة الصاعدة. فبعد أن أثبتت الإجراءات القمعية السابقة فشلها الذريع في القضاء على المسيحية، بدا أن الإمبراطورية أدركت أخيراً ضرورة احتواء هذه القوة الدينية المتعاظمة بدلاً من مواجهتها. غير أن التحول الأكثر جوهرية حدث في أعقاب أزمة العرش الإمبراطوري<sup>3</sup> التي هزت أركان الدولة الرومانية. ففي خضم صراعه مع منافسه مكسنتيوس عام 312م، شهد الإمبراطور قسطنطين

<sup>1</sup> - يذهب المؤرخ ه. أدرس بل إلى عدم تحميل المسؤولية كاملة على دقلديانوس، ويحمل جزءاً كبيراً منها إلى القيصر جاليريوس، الذي يكون قد أو عز بذلك إلى الإمبراطور ليصدر أوامره، واشترط الإمبراطور عدم إراقة الدماء قبل حادثة حرق القصر الإمبراطوري، وأن قرار فرض عقوبة الإعدام قد فرضه القيصر مستغلاً إصابة الإمبراطور بمرض خطير والذي يكون غير راض عن تلك السياسة فتنازل عن العرش سنة 305 للميلاد. للمزيد من المعلومات أنظر: - ه. أدرس بل، المرجع السابق، ص 158..

<sup>2</sup> - شنيتي (محمد البشير)، "حول الدوناتية وثورة الريفيين بنوميديا خلال القرن الـ28، 4.

<sup>3</sup> - في سنة 305 م استقال الإمبراطوران دقلديانوس ومكسميانوس (Maximianus) فال العرش من بعدهما إلى القيصرين المساعدين بموجب مرسوم

293 م. وهما جاليريوس في الشرق وكونستانيوس كلوروس (Constans Chlorus) في الغرب وعينا قيصرين مساعدين وفق المرسوم السابق الذي يعطي الحق للقيصر بأن يتولى العرش في حال استقالة الإمبراطور أو وفاته، وفي سنة 306 م توفي إمبراطور الغرب كونستانيوس في بريطانيا، وفي هذه الحالة فإن العرش يؤول إلى مساعده القيصر فلافيوس سويريوس (Flavius Soirius). لكن قسطنطين ابن الإمبراطور كونستانيوس أعلن نفسه قيصر على إسبانيا وغاليا وبريطانيا بدون تعيين من أحد مما أدى إلى أزمة سلطة واضطرابات واغتيالات ليؤول العرش بعد ذلك إلى قسطنطين

<sup>1</sup> وفقاً للرواية التقليدية رؤية غريبة غيرت مسار التاريخ: صليباً من نور يعلو شمس الغروب يحمل عبارة "بهذا تنتصر" (Hoc Vince)، تلاها حلم ليلي ظهر له فيه المسيح وأمره باتخاذ الصليب شعاراً لجيشه.

في محاولة لتحقيق الاستقرار السياسي وكسب تأييد المسيحيين الذين كانوا يشكلون قوة اجتماعية متنامية، اتخذ قسطنطين - الذي كان يعبد الشمس ولم يعتنق المسيحية رسمياً إلا في أواخر حياته - سلسلة من الإجراءات الذكية. فبعد تصفية خصومه السياسيين، أصدر بالاشتراك مع ليكينيوس (حاكم الشرق) "براءة ميلان" الشهيرة عام 313م، التي شكلت نقلة نوعية في سياسة الإمبراطورية و أهم ما جاء فيها: "نحن الأغسطين قسطنطين وليكينيوس:

وبعد تبادل الآراء في ميلانو، أتضح لنا أن مصلحة الدولة تقتضي منّا وضع تسوية لبعض المسائل، وخاصة منها تلك المتعلقة بأمور الدين واحترام العبادة. واتفقنا على منح الناس حرية الدين الذي يختارونه، وقررنا، وبمحض إرادتنا حرية الناس في اعتناق الدين المسيحي. ولن نمنع أحداً من ذلك. والجميع أحراراً في متابعة عباداتهم وطقوسهم الخاصة المنتهجة في أمور العبادة، ومتابعة النهج المختار ليرضى عنا الإله وننال بركته"<sup>2</sup>.

: بعد انتصاره الحاسم على غريمه "ليكينيوس" عام 324م، أعلن "قسطنطين" المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية، ثم أضحت لاحقاً الديانة الوحيدة المعترف بها في جميع أنحاءها<sup>3</sup>. ويبدو أن "قسطنطين" - الذي كان في الأصل من عبّاد الشمس - اقتنع بعد صراعه مع خصومه السياسيين بأن المصلحة العليا للدولة تقتضي كسب تأييد المسيحيين، خاصةً أنه كان يواجه أزمة شرعية بسبب وصوله إلى السلطة عبر انتزاعها بالقوة، وإلغائه لنظام الحكم الرباعي الذي أرساه دقلديانوس عام 293م ولتعزيز موقعه، اتخذ إجراءات جذرية لاسترضاء المسيحيين، منها: إصدار

وليكينيوس (Licinius) سنة 311م، ثم نشأ خلاف بينهما عام 323م انتصر فيه قسطنطين وأمر بقتل غريمه، وأعلن نفسه حاكماً فرداً للمزيد من

لمعلومات أنظر: - فرح (نعيم)، المرجع السابق، ص 49.

<sup>1</sup>-158, op-cit., p. (Marcel) DUNAN

<sup>2</sup>- فرح (نعيم)، المرجع السابق، ص 14.

<sup>3</sup>- ه ايدرس بل، المرجع السابق، ص 161.

مراسيم تُعيد لهم كنائسهم وممتلكاتهم المصادرة، تعويض المتضررين من الاضطهادات السابقة من خزينة الدولة<sup>1</sup> و منح المسيحية مكانةً مميزة كعقيدة موحّدة للإمبراطورية.

يتجلى هذا التحول السياسي-الديني بوضوح في الرسالة التي وجهها قسطنطين إلى أسقف قرطاج في أعقاب براءة ميلانو، حيث جاء فيها: "أنا قسطنطين أغسطس، إلى أسقف قرطاج، قررنا: - أن نُخصص في كل ولايات: "أفريقيا ونوميديا وموريطانيا " منحًا يستفيد منها خُدام الكنيسة. وأمرتُ مأمور الحسابات في أفريقيا أن يدفع إلى فطنتكم ثلاثة آلاف فلس... ولك أن تطلب من وكيل أملاكنا -بلا تردد - ما أنت في حاجة إليه، لقد أمرتُ شخصه أن يُقدم دون تأخير أي مبلغ يطلبُ جنابكم . "حيث تكشف رسالة قسطنطين إلى أسقف قرطاج عن استراتيجية مزدوجة للإمبراطورية في التعامل مع منطقة المغرب القديم. فمن جهة، سعت السلطة المركزية إلى كسب ولاء المسيحيين عبر منحهم الحريات الدينية واستعادة ممتلكاتهم، ومن جهة أخرى عملت على تعبئة موارد المنطقة البشرية والاقتصادية لخدمة مصالح الإمبراطورية<sup>2</sup>.

وقد تجلت هذه السياسة بوضوح خلال حروب قسطنطين ضد خصومه، حيث: تم تجنيد ما يقارب 40,000 فارس من مختلف أنحاء المغرب القديم ، ألغيت الضرائب على إنتاج القمح والزيتون لتحفيز المزارعين و زاد الإنتاج الزراعي بشكل ملحوظ لتلبية احتياجات روما<sup>3</sup>.

يشهد عهد قسطنطين تحولاً جذرياً في السياسة الدينية والقضائية للإمبراطورية الرومانية، حيث أقر نظاماً قانونياً جديداً يجمع بين الحفاظ على التعددية الدينية وترسيخ مكانة المسيحية. فمن ناحية كفل حرية المعتقد للوثنيين وحمائتهم من أي انتقام مسيحي، ومن ناحية أخرى قدم دعماً مؤسسياً غير مسبوق للكنيسة عبر تمويل بناء الكنائس وإثراء مؤسساتها. الأكثر إثارة منح الأساقفة صلاحيات قضائية واسعة جعلت من المحاكم الكنسية جهة قضائية موازية تتمتع بقرارات نهائية غير

<sup>1</sup> MERMEUX,op-cit.,p.716

<sup>2</sup> - DUNAN(Marcel),op-cit.,p. 159..

<sup>3</sup> - بوج ( ج. دي)، تراث العالم القديم، ترجمة، سوس زكي، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1965، ص.233.

قابلة للطعن ، مما مثل نقلة نوعية في تاريخ السلطة القضائية. كما شملت إصلاحاته المجال الاجتماعي عبر تنظيم شؤون الأسرة ووضع ضوابط للطلاق، مع حماية حقوق الفئات الضعيفة كالأطفال والعبيد من التعسف<sup>1</sup>.

تشير قراءة متأنية لهذه القرارات الإمبراطورية إلى رؤية قسطنطين الاستثنائية في دمج المؤسسة الدينية ضمن الهيكل الحاكم للإمبراطورية ، كما أدى ربط الدين بالسياسة إلى تسهيل مراقبة الأنشطة الدينية وتوجيهها وفقاً لأهداف الدولة. وفي المقابل، شكّلت هذه السياسة إغراءً للنخبة الثرية وأصحاب النفوذ لاعتناق المسيحية، ليس بدافع العقيدة، بل تقرّباً من السلطة وحفاظاً على امتيازاتهم. إلا أن هذا التحوّل ترك تداعيات عميقة على الطبقات الاجتماعية التي آمنت بالدين لذاته، لا وسيلةً للوصول إلى السلطة، وخاصةً الفئات المحرومة التي كانت ترى في المسيحية ملاذاً روحياً وأملاً في العدالة. كما امتدت تبعات هذه السياسة إلى شعوب مستعمرات الإمبراطورية، التي عانت لقرون من اضطهاد الأباطرة وقسوة حكمهم<sup>2</sup>.

### أهداف الإمبراطور قسطنطين الغير مباشرة:

كان الإمبراطور قسطنطين سعى إلى توحيد الإمبراطورية الرومانية تحت راية الدين المسيحي، فقد أظهر تحيزاً واضحاً لصالح الكنيسة الكاثوليكية على حساب المذاهب المسيحية الأخرى. ولم يتردد في اتخاذ إجراءات قمعية ضد المخالفين، حيث شملت سياساته هدم كنائس الطوائف المعارضة، وحظر تجمعاتهم، ونفي قادتهم الدينيين، وإحراق كتبهم، بل وصل الأمر إلى إعدام أتباعهم المتشددين<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - RAGOT (w.), op-cit., p.p. 228-229

<sup>2</sup> - شارل جنيبير، المرجع السابق، ص. 72

<sup>3</sup> - توفيق الطويل، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، ط، 1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1990، ص. 65.

وهكذا شهدت الفترة التي بدأت عام 317م ظهور شكل جديد من الاضطهاد، هذه المرة ليس ضد المسيحيين من قبل الوثنيين، بل ضد المسيحيين أنفسهم من قبل السلطة الحاكمة بسبب اختلافاتهم العقائدية مع المذهب الرسمي للدولة.

يبدو أن قسطنطين لم يُرد جعل المسيحية مجرد ديانة رسمية للإمبراطورية فحسب، بل سعى إلى القضاء على جميع المذاهب المخالفة وإعلاء الكاثوليكية كمذهب وحيد مدعوم من الدولة. وقد تجلّى ذلك من خلال حضوره الفاعل في مجمع ميلانو عام 316م، حيث اتخذ إجراءات صارمة ضد المنشقين، بما في ذلك مصادرة كنائسهم ومنع اجتماعاتهم.

ولم يكتفِ بذلك، بل أصدر في عام 317م مرسوماً بنفي زعماء هذه الطوائف، مما يمثل بداية حملة قمعية منهجية ضد كل من خالف المذهب الرسمي للدولة، ليُرسخ بذلك سيطرة الكنيسة الكاثوليكية ويقمع أي معارضة دينية داخل الإمبراطورية<sup>1</sup>.

ومنذ ذلك التاريخ، بدأ عهدٌ جديد من الاضطهاد الديني، تمثل في تحالف السلطة السياسية مع الكنيسة الكاثوليكية لقمع أي معارضة للعقيدة الرسمية. فقد استغل قسطنطين وخلفاؤه الكنيسة كأداة سياسية لتعزيز هيمنة الإمبراطورية، وقمع أي تمرد أو تيار ديني لا يتوافق مع مصالح روما. وكان لبلاد المغرب القديم نصيبٌ كبير من هذا القمع، حيث برز فيها انشقاق ديني واضح، فتعرضت لموجات اضطهاد<sup>2</sup>. شرسة بهدف إخضاعها فكرياً وسياسياً لمركزية الإمبراطورية الرومانية والكنيسة الكاثوليكية

### 3- نتائج احتواء المسيحية من طرف السلطة الرومانية على بلاد المغرب القديم:

لقد حوّل الإمبراطور قسطنطين انتماءه للمسيحية إلى أداة سياسية لتعزيز وحدة الإمبراطورية، حيث رأى في الكنيسة الكاثوليكية الموحدة قوةً داعمةً لتماسك الدولة. إلا أن هذا التوظيف السياسي للدين زاد من حدة الانقسامات، خاصة في شمال أفريقيا حيث رأى المنشقون في كنيسة

<sup>1</sup> - Monceaux (P.), H.L.A.C., T., IV, p7.

<sup>2</sup> - Audolent , op-cit ,p513.

قرطاج امتداداً للسلطة الإمبراطورية التي اضطهدت المسيحيين ذات يوم. وقد اعتبر المسيحيون الأفرقة أن منطقتهم هي الحصن الأخير للعقيدة المسيحية الأصيلة، حيث حافظوا على تعاليمهم وشعائهم بعيداً عن تأثيرات روما السياسية. مما عمق هوة الخلاف بين الكنيسة الرسمية المدعومة من الدولة والتيارات المسيحية المستقلة في أفريقيا<sup>1</sup>.

لتعزيز سيطرته على الكنيسة الأفريقية، عيّن الإمبراطور قضاةً من بلاد الغال للنظر في الخلافات الدينية المتفجرة، وذلك بناءً على شكوى تلقاها البروقنصل "أنيلينوس" (Anulianus). وبعد هذه الخطوة، أقرّ الإمبراطور رسمياً شرعية سيامة "كاسيليانوس" كأسقف لقرطاج، وأصدر أوامره بإخضاع كل المنشقين لسلطة الكنيسة الكاثوليكية في أفريقيا<sup>2</sup>.

أدى اندماج الكنيسة الكاثوليكية تحت سلطة الإمبراطور الزمنية إلى منحها وضعاً قانونياً مميزاً، خاصة بعدما تبنى الإمبراطور لقب "الحبر الأعظم"، مما جعل الكنيسة خاضعة لسيطرته المباشرة في إطار جهوده للقضاء على الانقسامات الدينية<sup>3</sup>. وكان لهذا التحول أثر كبير في انتشار المسيحية بين النخب الحاكمة، حيث تبني الأثرياء والنبلاء الديانة الجديدة اتباعاً لنهج الإمبراطور، حفاظاً على مصالحهم وضماناً لحمايته. كما حصل الأساقفة على مناصب رفيعة في الدولة وتحولوا إلى حلفاء سياسيين للإمبراطور، الذي كان يدعوهم لرئاسة المجالس الكنسية ويتدخل في قراراتها، مستخدماً الدين كأداة لتعزيز سياساته. وهكذا تحولت الكنيسة الكاثوليكية تدريجياً إلى مؤسسة ذات نفوذ سياسي واجتماعي، استغلها الإمبراطور لإصدار قرارات دينية تخدم أهداف الدولة. ففي مجمع "آرل" عام 324م، صدر قرار كنسي يُعتبر بمثابة قانون، يُكفّر الجنود الذين يتركون أسلحتهم أو يرفضون القتال إلى جانب الدولة، مما يعكس توظيف الدين لتعزيز الولاء للنظام الحاكم<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - كيفين كويل، مفهوم الشخصية لأفريقيا الشمالية المسيحية في عهد أو غسطين"، تر. محمد هناد، في أعمال الملتقى الدولي الأول، الفيلسوف الجزائري الأول، الفيلسوف الجزائري القديس أو غسطين، ج، 1، منشورات، م. إ. أ.، الجزائر، 2003، ص. 83.

<sup>2</sup> - Monceaux (P.), H.L.A.C., T., V, (Saint Optat et les premiers écrivains Donatistes), éd., Ernest Leroux, Paris, 1920

<sup>3</sup> - عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج، 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص. 156.

<sup>4</sup> - اندريه إيمار، المرجع السابق، ص. 263.

لذلك وقف مسيحيو المغرب القديم في معارضة صريحة للكنيسة الكاثوليكية، التي رأوا أنها خانت المبادئ المسيحية الأصيلة باستسلامها للسلطة الحاكمة. وقد استنكروا تحوّلها إلى أداة سياسية، حيث أصبح رجال الدولة والأثرياء - الذين لطالما اضطهدوا المسيحيين في السابق - يحتلون مناصب كنسية رفيعة بموافقة الكنيسة<sup>1</sup> وتعمّق هذا الانقسام بعد مجمع "نيقية" عام 325م الذي سمح بمزيد من التدخل الرسمي في شؤون الكنيسة، فتشكّلت علاقة غير متوازنة بين السلطة الدينية والسلطة السياسية، كان لها آثار سلبية عميقة على تاريخ المغرب القديم وعلاقته بالإمبراطورية الرومانية<sup>2</sup>.

وهكذا اتسع الانشقاق وتحوّل إلى حركة احتجاجية مناهضة للكنيسة الرسمية في قرطاج والسلطة الرومانية، التي سعت إلى فرض هيمنة هذه الكنيسة على مسيحيي المغرب القديم. وأثار هذا الصراع تجدد النقاش حول قضايا لاهوتية جوهرية، مثل: قضية التعميد للمرتدين والخونة: هل يُعاد تعميد من تخلّوا عن الإيمان تحت الاضطهاد ثم عادوا إليه؟ وحدة الكنيسة العالمية: أيّ كنيسة تمثل طريق الخلاص الحقيقي؟ وهل يجب أن تخضع جميع الكنائس لسلطة واحدة<sup>3</sup>؟

وظهرت حركة مناهضة للسلطة الرومانية والكنيسة الكاثوليكية تجسّدت في الحركة الدوناتية، التي دعا قادتها مسيحيي المغرب القديم إلى الانفصال عن الكنيسة الرسمية، مُطلقين شعارهم المشهور: "أهرب من كنيسة الخونة، ولا تدنس أجدادك بتكريس الباطل"<sup>4</sup> واعتبر الدوناتيون أن من يظل داخل الكنيسة الرسمية آثمًا وخائنًا للإيمان الحقيقي، ودعوا إلى مقاطعته تمامًا - برفض مناداته بـ "الأخ" أو "الأخت"، وقطع أي تواصل معه، كجزء من عقابهم الروحي والاجتماعي<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - Monceaux (P), H.L.A.C., T., IV, p.30.

<sup>2</sup> - سعدون محمد الساموك، موسوعة الأديان والمعتقدات القديمة، ج. 2 (العقائد)، ط، 1، دار المناهج، عمان، 2002، ص112.

<sup>3</sup> - روبرت أوستن ماركوس، "أفريقيا في قلب العالم، المشكل اللاهوتي"، تر. محمد هناد، في أعمال الملتقى الدولي الأول، لفيلسوف الجزائري القديس أوغسطين، منشورات، م.إ.أ. ج.2، الجزائر، 2003، ص.ص. 118-119.

<sup>4</sup> - Brisson (Jean Paul), Autonomisme et christianisme dans l'Afrique romaine (de Septème Sévère à l'invasion vandale), éd., Boccard, Paris, 1958, p.137

<sup>5</sup> - Optat de Milev, de schismate Donatistarum, libri VII, C, Ziwsa (C.S.E.L.), t. XXVI, Vienne, 1893, p.3.

وتعمّق الانقسام الاجتماعي في المغرب القديم، حيث تفاقمت الهوة بين فئتين متنافرتين: من ناحية النخبة الرومانية المتمثلة في المعمّرين والأثرياء والطبقة المترومة المنتمية للكنيسة الرسمية، ومن ناحية أخرى، السكان المحليون، خاصة المنتصرين المنضمين للحركة الدوناتية، الذين اعتبروا أنفسهم "حماة الطهارة" الإيمانية و وصل الأمر بالدوناتيين إلى تحريم مصافحة الكاثوليك أو الاختلاط بهم، معتبرين أي تواصل معهم "تدنيساً" للإيمان . بل إنهم عزلوا أنفسهم كلياً عن المجتمع، مُصرّين على أن هذه العزلة هي الضمانة الوحيدة لحماية نقاء عقيدتهم من "النجاسة" التي يمثلها - في نظرهم - أتباع الكنيسة الرسمية<sup>1</sup>.

لقد أدى اعتناق الإمبراطور "قسطنطين" للمسيحية إلى تحوّل جوهرى في طبيعة العلاقة بين الدين والسلطة، حيث أصبحت المسيحية أداة للرومنة والتوسع الإمبراطوري. فمن جهة، وجدت الكنيسة الرسمية في السلطة حامياً لها، ومن جهة أخرى، استغلت السلطة الكنيسة غطاءً شرعياً لقمع أي معارضة أو احتجاج. لكن هذه الشراكة غير المقدسة أنتجت نتائج عكسية لم تتوقعها روما، إذ ولّدت ردة فعل عنيفة تمثلت في الحركة الدوناتية التي رفضت هذا التحالف، واتخذت موقفاً راديكالياً معادياً لكل ما تمثله السلطة الرومانية. بل إن الدوناتيين تحولوا مع الوقت إلى حلفاء طبيعيين لكل حركات المقاومة المناهضة للاحتلال الروماني في المغرب القديم، مما جعل منهم قوة سياسية ودينية معارضة عصية على القمع. وهكذا تحولت محاولة روما توظيف الدين لخدمة مصالحها إلى سيف ذي حدي\*، حيث أشعلت سياساتها ناراً معارضة استعصت عليها، وكانت نقطة ضعف في مشروعها التوسعي بشمال أفريقيا.

<sup>1</sup> - خديجة منصورى، "الصراع الدوناتى الكاثوليكى"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر، العدد، 12، سنطينة، 2002، ص48.

# الفصل الثالث :

## الانشقاق الكنسي في بلاد المغرب القديم.

---

1\_النشأة والظهور (305-316م)

2\_مرحلة الاضطهاد والقمع (317-392م)

3\_مرحلة الانقسام و مواجهة أوغسطين (392-430م)

4\_مرحلة الضعف والزوال (430-533م)

عانت المسيحية في شمال إفريقيا، مثلها مثل مسيحيي الإمبراطورية الرومانية، من اضطهاد عنيف من قبل السلطات الرومانية، التي رأت فيها تهديداً لوحدة الإمبراطورية طالما رفضت عبادة الآلهة الوثنية وإعلان الولاء للإمبراطور. فقد آمن المسيحيون بإله واحد لا شريك له، مما جعلهم يرفضون المشاركة في الطقوس الوثنية الرسمية، فاعتبروا عنصرًا غريبًا وخطرًا على النظام السياسي والديني الروماني.

غير أن هذا الوضع تغير جذريًا مع صعود الإمبراطور "قسطنطين الكبير" (306-337 م)، الذي اعترف بالمسيحية عام 313 م (مرسوم ميلانو)، مساويًا إياها بالديانات الأخرى. فانتعشت المسيحية وانتشرت بسرعة، ولم يعد هناك مكان تقريبًا في شمال إفريقيا إلا وشُيِّدت فيه كنيسة. لكن هذا الانتصار لم يحقق وحدة الكنيسة، بل سرعان ما تحول الصراع من مواجهة بين المسيحيين والوثنيين إلى صراع داخلي بين المسيحيين أنفسهم، قسم الكنيسة إلى شقين: الكنيسة الكاثوليكية المدعومة من روما، والحركة الدوناتية المنشقة التي رفضت أي تعاون مع السلطة يعود أصل الانقسام داخل الكنيسة الأفريقية إلى مجمع سيرتا المنعقد في 5 مارس 305م، الذي شكّل لحظة فارقة في تاريخ المسيحية بالمنطقة. فخلال هذا المجمع الخاص بانتخاب أسقف جديد<sup>1</sup>، تبلورت المبادئ الأساسية للحركة الدوناتية التي أعلنت قطيعتها مع ما أسمتهم "المرتدين والمتخاذلين" - أولئك الأساقفة الذين تعاونوا مع السلطات الرومانية أثناء فترات الاضطهاد.

أصر الدوناتيون على أن كنيستهم تمثل الكنيسة الكاثوليكية الحقيقية الوحيدة، بحجة أنهم الحلقة الوحيدة التي حافظت على نقاء العقيدة المسيحية وثباتها أمام الاضطهاد. وقد تحول هذا الموقف العقائدي إلى تحدٍ مفتوح استمر لأكثر من قرن، حيث واجهت الدوناتية بصلابة كلاً من السلطة الدينية المتمثلة في الكنيسة الكاثوليكية الرسمية و السلطة الزمنية للإمبراطورية الرومانية التي دعمت الكنيسة الكاثوليكية.

<sup>1</sup> Augustin (St.), Contra. Litter. Petil, 1, 21, 23.

مرت الحركة الدوناتيية بأربع مراحل تاريخية رئيسية، تنقسم إلى ثلاث مراحل خلال الحقبة الرومانية، تليها مرحلة رابعة في العهد الوندالي. ثم أخذت تضعف تدريجياً أواخر العصر الوندالي، إلى أن اضمحلت تماماً خلال الفترة البيزنطية مع نهاية القرن السادس الميلادي. وسوف نتناول في هذا الفصل تحليلاً تفصيلاً هذه المراحل التاريخية وفق التسلسل الزمني الآتي:

### المرحلة الأولى: النشأة والظهور (305-316م)

تمتد هذه المرحلة التأسيسية من انعقاد مجمع سيرتا في 5 مارس 305م (قبل شهرين من تنحي الإمبراطور ديوكليتيانوس) حتى عام 316م، حين أصدر الإمبراطور قسطنطين الأول قراراً بإدانة الكنيسة الدوناتيية واعتبارها حركة منشقة.<sup>1</sup> حيث شهدت هذه الفترة تصاعداً حاداً في الاضطهاد الرومانية ضد المسيحيين، مما دفع بعض رجال الدين إلى\*التراجع عن إيمانهم تحت وطأة التعذيب، حيث سلموا الأواني المقدسة والكتب الدينية للسلطات الرومانية تنفيذاً لأوامرها وقد أثار هذا التصرف انقساماً عميقاً بين: المتخاذلين (الذين تعاونوا مع السلطة) وتمثلهم الكنيسة الكاثوليكية و المتمسكين بمبادئهم (الذين رفضوا التسليم) وتمثلهم الكنيسة الدوناتيية الناشئة.

كما شكل بروتوكول سيرتا نقطة تحول تاريخية، حيث: أرسى مبدأ القطيعة مع المرتدين، مهّد الطريق لسلسلة من المجمع الكنسية المتنازعة بين الكنيستين. و يمثل بداية الصراع المؤسسي بين الدوناتيية (كنيسة الشهداء) والكاثوليكية (كنيسة التسوية). وتفاقم حدة هذه الاضطهادات في إشعال حماس سكان المغرب القديم، خاصة بعد أحداث قرية "أبيتينا" (Abitina) التي تحوّلت إلى محطة مفصلية في التاريخ الديني للمنطقة. فقد تحوّل نداء ضحايا تلك الأحداث إلى ميثاق مقدّس يجسّد التمسك بالعقيدة، وعُرف باسم "تصريح شهداء أبيتينا" الذي مثّل: عهداً دينياً بتجدير قيم الثبات على الإيمان و ميثاقاً اجتماعياً يعبر عن رفض الخنوع للسلطة<sup>2</sup>

<sup>1</sup> Martroye (F.), op-cit, p.354

<sup>2</sup> Monceaux (P.), H.L.A.C., V, p. 4.

وقد تجسّدت مكانة هؤلاء الشهداء في: الأنصاب التذكارية التي انتشرت في مختلف أنحاء المغرب القديم و المواقع الأثرية المكتشفة في المدن والأرياف، والتي تؤكّد استمرارية إحياء ذكراهم<sup>1</sup>.

تذكر النقوش الأثرية أسماء عدد من شهداء "أبيتينا" مع الإشارة إلى مدنها الأصلية، ومن بينهم:

1- فيكتوريا (Victoria) ، فيكتورينوس (Victorinus) ، داتيانوس (Datianus) من منطقة تيكستار (Tixter)

2-أميريتوس (Emeritus) من هنشير تاغفاغت بالقرب من خنشلة و عين غراب (Ain Ghorab) بالقرب من تيفست (Theveste) تبسة حاليا ، 3-فليكس (Felix) عثر عليه في 10 مناطق، 4- لانوياريوس (Lanuarius) من تلبت (Thelepte)

\*- تيكستار Tixter، هي خنقة أم الأهدم حاليا (Kh.Oum El-Ahdam) تقع في منطقة المضاب العليا بين سطيف و برج بوعريرج، عثر بها على نقش مؤرخ في سنة 359م يحمل أسماء بعض شهداء أبيتينا منهم : داتيانوس وفيكتورينوس وفيكتوريا الذين استشهدوا سنة 259م، ونميسانوس (Nemessanus) وربما هو أسقف توبوناي (طبنة -Thubunae) الذي استشهد في سنة 238م .

Gsell(St),A.A.A.,Sétif, p335.; Mesnage, l'Afrique chrétienne..., pp.345-346.

\*\*- تلبت، Thelepte، هي مدينة "فريانة" حاليا في الجنوب التونسي، كانت تعرف قديما باسم "مدينة الخديمة" ذكرت في مسلك أنطونينوس، وكانت إحدى مدن الدوناتية الكبرى، عثر بها على سبع بازيليكات كبرى.

Mesnage J.P.), l'Afrique chrétienne.. pp.310-313.

5- ماريا (Maria) من عين القصر\* (Ain el-Ksar)، 6- مارتينوس (Martinus) من كالاما (Calama) قالمة حالياً، 7-ماترونا (Matrona) في عين رقادة قرب قالمة، و غيرها من أسماء الشهداء الذين استشهدوا في قرية "أبيتينا"<sup>2</sup>.

تشكل النقوش الأثرية مصدراً غنياً لدراسة شهداء أبيتينا، رغم ما يطرحه ذلك من تحديات منهجية. فمن ناحية، نجد تكراراً لبعض الأسماء مثل "فيكتوريا" و "فيكتورينوس" في نقوش متعددة، مما يجعل عملية الربط مع شخصيات أبيتينا التاريخية أمراً يحتاج إلى حذر علمي. ومن ناحية أخرى،

<sup>1</sup> Audollent (A.), « Mission épigraphique en Algérie », M.E.F.R., 1890 , p. 526.

<sup>2</sup> Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 466- 467.

تكشف الاكتشافات الأثرية الحديثة، مثل فسيفساء "أوبينا"\*\*\* (Uppena) التي تعود للقرن الرابع الميلادي، عن أسماء ستة عشر شهيداً، من بينهم شخصيات محورية كالكاهن "ساتورنينوس" و"لوكيل"، التي تشير المصادر التاريخية إلى دورها البارز في أحداث أبيتينا وعلاقتها بنشأة الحركة الدوناتية<sup>1</sup>.

تكشف النقوش الأثرية عن شخصية "أميريتوس" (Emeritus) الذي شغل منصب القارئ (Lector)، وكان من أبرز المتمسكين بإيمانهم خلال محنة "أبيتينا". وقد حظي هذا الشخص باحترام كبير بين معاصريه، مما يعكس مكانته الهامة ودوره الفاعل في الأوساط المسيحية خلال تلك الحقبة .

كشفت الاكتشافات الأثرية في عدة مواقع بشمال أفريقيا عن نقوش تبرز المكانة الرفيعة لشخصية "أميريتوس" في التراث الدوناتي. ففي خرائب كنيسة "بهنشير تاغفاغت" (Taghfaght)<sup>2</sup> القريبة من خنشلة، عُثر على صخرة منقوش عليها عبارة "المحامي المجيد" (Gloriosi Consulte) كإهداء لذكرى "أميريتوس"<sup>3</sup>. كما أسفرت التنقيبات في الكنيسة الدوناتية بـ"عين غراب"<sup>4</sup> جنوب غرب تبسة عن نقش آخر يحمل عبارة "إلى أميريتوس محامي الله"<sup>5</sup> (Dei Consulti Emeriti) والذي يُعتقد أنه استشهد خلال اضطهاد قرطاج سنة 304م.

\* عين القصر Ain el-Ksar، هي المعذر حالياً تقع شرق باتنة بجوالي 22 كلم، عثر بها على نقش يعود الى ما قبل سنة 400م يحمل أسماء "فليكس (Felix) ونابور (Nabor)، وهما جنديان أعدما في عهد الإمبراطور "ماكسيميان (Maximien)، ونقش آخر يحمل اسم القديسة "ماريا (Maria) وهي إحدى شهدات أبيتينا". (P.) Monceaux - H.L.A.C., III, pp.114, 185; Mesnage J.P.), l'Afrique chrétienne., p.318 ; Gsell (S.), A.A.A., f.27, Batna, 138.

<sup>1</sup> Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne..., p.46 ; Babelon (M.), A.A.T., f.43, Enfida, 148 ; Dominique Raynal, la Basilique d'Uppenna : de la Période Vandale à l'époque Byzantine, Interpretation des résultats des Fouilles de 1904-1906, Africa, T. VII-VIII, 1982, p. 179.

<sup>2</sup> Optat (S.), I, 16- 19.

<sup>3</sup> C.I.L., VIII, 17714.

<sup>4</sup> Monceaux (L.), H.L.A.C., IV, p. 468.

<sup>5</sup> C.I.L., VIII, 2220, 17614.

## الفصل الثالث : الانشقاق الكنسي في بلاد المغرب القديم

( على بعد 92 كلم جنوب تونس العاصمة، وشمال Hr.Chigarnia قرب هنشير شيجارنية ( ) ، تقع آثارها في منشير فراغا ، (Uppena coloria)أوبينا-\*\*)

هدرومات بما عدة نقوش في خرائب كنيسة مسيحية تعود الى الفترة البيزنطية تحمل أسماء عدة شهداء منهم الأسقف "بولوس" وهو أحد أساقفة موريطانيا توفى بها، ومن أشهر أساقفتها "هونوريوس" .

وقد سُيدت هذه الكنيسة على يد الأسقف الدوناتي البارز "أوبطاتوس التاموقادي" \* في أواخر القرن الرابع الميلادي، مما يؤكد استمرارية تقاليد تخليد الشهداء في الممارسات الدوناتية، ويُظهر الأهمية الخاصة التي حظيت بها شخصية "أميريتوس" كرمز للمقاومة والإيمان في الوعي الجمعي للمسيحيين الأفارقة الأوائل.

شكّل مجمع سيرتا المنعقد في 5 مارس 305م محطة حاسمة في تاريخ المسيحية الأفريقية، إذ مثل أول انعقاد كنسي يُقرّ القطيعة الرسمية مع الكنيسة الكاثوليكية. انعقد هذا المجمع أساساً لسيامة أسقف جديد لمدينة سيرتا<sup>1</sup> وبعد وفاة الأسقف مونسوريوس (Mensurius) أسقف قرطاجنة أواخر عام 311م، شهدت المسيحية الأفريقية تطوراً بالغ الأهمية تمثل انعقاد مجمع قرطاجنة سنة 312م الذي: ضم سبعين أسقفًا ، غلب عليهم الطابع النوميدي في تكوينهم انتُخب خلاله كاكيليانوس (Caecilianus) خلفاً لمونسوريوس المتوفى بحيث ترأس المجمع جثليق نوميديا سوكوندوس (Secundus) من التجيسي (Tigisi)<sup>2</sup>، يبدو أن اختيار مكان انعقاد المجمع لم يكن اعتباطياً، بل حمل دلالات سياسية ودينية عميقة، حيث مثل تحدياً صريحاً لسلطة الأسقف كايكيليانوس (Caecilianus) زعيم المسيحية الأفريقية الجديد بعد سيامته.

شهد مجمع قرطاجنة انقساماً حاداً بين الأساقفة المجتمعين، حيث رفضوا الاعتراف بشرعية سيامة الأسقف كايكيليانوس (Caecilianus)، معتبرين أنها تمت على يد مجموعة من "المتخاذلين" الذين تعاونوا مع السلطات أثناء فترات الاضطهاد. واتهموا بشكل خاص فليكس الأبتونجي (Félix d'Aptonge)، الذي قاد عملية السيامة، بالخيانة الدينية.

<sup>1</sup> Optat (St.), I, 14 ; Augustin (St.), Contra Cresconium, III, 27, 30.

<sup>2</sup> Optat (St.), 1, 19.

رداً على ذلك، انتخب المجمع الأسقف ماجورينوس (Majorinus) خلفاً لمونسوريوس المتوفى<sup>1</sup>، ليكون أسقفاً لكنيسة قرطاجنة. إلا أن وفاة ماجورينوس المفاجئة في أكتوبر 313م، تزامناً مع انعقاد مجمع روما في الثاني من الشهر ذاته، أدت إلى صعود دوناتوس الكبير (Donatus le Grand)<sup>2</sup> كزعيم جديد للتيار المنشق، مما عمق الأزمة وزاد من حدة الانقسام داخل الكنيسة الأفريقية.

\* أوطاتوس الثاموقادي، أسقف مدينة ثاموقادي Thamugadi " تيمقاد حالياً"، من 388م إلى 398م، من أصول نوميدية، كان مستشاراً للزعي الإفريقي "جيلدون" fildon الثائر على روما (398-396م)، وقد ربطتهما علاقات صداقة حميمة، لذلك لقب بالجيلدوني Gildonianus، أثار الرعب في كامل نومديا لمدة عشر سنوات، حارب الكاثوليك والمكسيميانين، وكان له الفضل في إعادة بعضهم إلى حظيرة الدوناتية، كان وفياً لفريق البريميانيين بعد مزينة جيلدون التي عليه القبض اثر اتهامه بالتبعية لجيلدون، وتوفي في السجن السنة 398م

شهدت الإمبراطورية الرومانية في تلك المرحلة أزمة حادة عُرفت باسم "أزمة العرش"، كادت أن تقضي على كيان الدولة. وقد أدت هذه الأزمة إلى تحول جذري في موقف السلطة الرومانية من المسيحية، خاصة بعد اعتناق الإمبراطور قسطنطين لهذه الديانة وإعلانها ديناً رسمياً للإمبراطورية، وذلك في أعقاب انتصاره على منافسه ماكسينتيوس<sup>3</sup>. وسعى قسطنطين إلى أن يرتبط اعترافه بالمسيحية بإنشاء معقلٍ جديدٍ لها، بعيداً عن تأثيرات الوثنية القديمة وعباداتها الزائفة. فأسس مدينة القسطنطينية، التي مثلت عاصمة جديدة على مضيق البوسفور، مؤكداً بذلك تصاعد النفوذ الشرقي في الحضارة الرومانية<sup>4</sup>.

في عام 313م، أصدر الإمبراطور قسطنطين بالاشتراك مع ليكينيوس (Licinius)، حاكم الشرق، مرسوم ميلانو (Édit de Milan)، الذي أنهى حقبة اضطهاد المسيحيين في الدولة الرومانية الوثنية، وأقر مبدأ التسامح الديني، كما أمر بإعادة الكنائس المصادرة إلى المسيحيين.

<sup>1</sup> Optat (St.), I, 18; Dict. des Hérésies, Op.cit., p. 646.

<sup>2</sup> Augustin (St.), Epist. 93, 10, 43; Brisson (J.P.), Op.cit., p.237.

-Albertini (E.), « Témoignage épigraphique sur l'évêque Donatiste, Optat de Thamugadi », C.R.A.I., 1939, pp.100-103.

<sup>3</sup> 1- Brisson (J.P.), Op.cit. , p. 247.

<sup>4</sup> العريبي السيد الباز، تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، 1965، ص 14.

3وهكذا أصبح الانقسام حقيقة لا مراء فيها، خاصة بعد القرارات الحاسمة التي اتخذتها المجامع الكنسية والسلطة الإمبراطورية. فبعد قرارات مجمع روما (313م) ومجمع آرل (314م)، أصدر الإمبراطور قسطنطين في 10 نوفمبر 316م مرسوماً أعلن فيه اعتراف الدولة بـ"كايكيليانوس" أسقفاً شرعياً لكنيسة قرطاج، بينما أدان الدوناتيين كمنشقين بل شمل أيضاً\*\*مصادرة كنائس الدوناتيين ونفي زعمائهم<sup>1</sup>

يرى "كامبس" أن دعم الإمبراطور "قسطنطين" للكنيسة الرسمية يمثل أول تجلي للبابوية القيصرية (Césaropapisme)، حيث تم توظيف الكنيسة لخدمة الأهداف والمصالح السياسية للإمبراطورية.<sup>2</sup> وقد أدى ذلك إلى وضع الدوناتيين تحت طائلة القانون، مما زاد من رسوخ حركتهم. وأصبحت الكنيسة الدوناتية تواجه الحظر والاضطهاد، الذي استمر حتى صدور قرار التسامح الديني عام 321م.<sup>3</sup> ومن الملاحظ في نص مرسوم ميلانو أنه أكد على مبدأ المساواة بين الأديان وعدم تفضيل ديانة على أخرى، خاصة أن "ليكينوس" (Licinius)، زميل "قسطنطين" (Constantin) في الحكم، كان وثيقاً متمسكاً بديانة أسلافه. وقد تعامل "قسطنطين" بذكاء سياسي، حيث حافظ على هذا المبدأ حتى بعد انتصاره على "ليكينوس" وتفردده بالعرش عام 324م، مؤكداً أن "لكل فرد الحرية في ممارسة الدين الذي يختاره".<sup>4</sup>

وقد تجسدت رؤية "قسطنطين" هذه في دعوته لعقد مجمع روما في قصر لاتران يوم 2 أكتوبر 313م، والذي ترأسه البابا "ميليادي" أو "ميليادي"، بمشاركة ثلاثة أساقفة من غاليليا، عينهم قسطنطين بنفسه و هم: "رتيكيوس" من أوتون (Reticius d' Autun)، و"ماتارنوس" من كولونيا (Maternuse Colone)، ومارينوس من آرل من كولونيا

3 أندري إمار، وجانين أوبوايه، المرجع السابق، ص 564.

2 4-Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.197 ; Julien(Ch), Histoire de l'Afrique du Nord, Paris :édition, Payot, (1969),, pp. 215- 216 ; Brisson (J.P.),Op.cit, p.290.

3 5-Camps (G.), les Berberes, mémoires et identité, 2 eme édit. Paris, 1987, p.179.

4 عقون محمد العربي، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، دار الهدى، عين مليلة، 2008، ص 291.

- \*ميلياد أو ميلكياد (Miltiade- Melchiade)، قديس كاثوليكي، انتخب بابا من 2/7/311م الى 11/1/314م خلفا للبابا أوزيبوس St. Eusèbe، وهو من أصول افريقية، حارب الدوناتية، وخلال فترة حكمه. أصدر "قسطنطين مرسوم ميلان"<sup>1</sup>.

وإلى جانب ذلك، استدعى "قسطنطين" خمسة عشر (15) أسقفًا إيطاليًا، ليصبح العدد الإجمالي لأعضاء مجمع روما تسعة عشر (19) أسقفًا - قاضيًا. وبعد ثلاث جلسات، أصدر المجمع قرارًا بالإجماع ببراءة "كايكيليانوس" من جميع التهم الموجهة إليه، مع إدانة "دوناتوس" وأتباعه. كما أكد المجمع أن انتخاب "كايكيليانوس" ورسامته تمًا بشكل سليم وشرعي، وفقًا للتقاليد المتبعة في الكنيسة الأفريقية.<sup>2</sup>

يتضح من الأحداث السابقة أن قرار إدانة "دوناتوس" وأتباعه كان نتيجة حتمية، نظرًا لأن أعضاء مجمع روما كانوا من الأساقفة الكاثوليك المعينين من قبل "قسطنطين" نفسه، ممثلًا للسلطة الزمنية الداعمة للكنيسة الكاثوليكية. ولكن في محاولة لاستيعاب مطالب المنشقين، استجاب "قسطنطين" لضغوطهم وأمر بفتح تحقيق قضائي حول تصرفات "فليكس الأبتونجي" (Félix d'Aptonge). حيث جرى التحقيق على عدة مراحل: بدأ في مدينة أبثونجي (Abthungi) ثم انتقل إلى قرطاج وانتهى في 15 فبراير 315م، وأصدر بروقنصل "إيليانوس" (Aelianus) حكمًا نهائيًا ببراءة "فليكس الأبتونجي" من جميع التهم الموجهة ضده.<sup>3</sup> رغم أن هذه المحاكمات بدت وكأنها أنهت القضية \*ظاهريًا\*، إلا أنها في الواقع زادت من تعقيدها. فقد اعترض المنشقون على تركيب المجمع وتعيين القضاة، بالرغم من أنهم هم أنفسهم كانوا قد طلبوا قضاة محايدين من غاليا (فرنسا حاليًا). واللافت أن من بين التسعة عشر (19) أسقفًا المشاركين، كان ستة عشر (16) منهم إيطاليين، مما أثار شكوكًا حول نزاهة المحكمة.

<sup>1</sup> Dict. Univ. Hist. Géo, p. 1227 ; Martroye (F.), « Tentative de révolution sociale.... », pp.368, 378

<sup>2</sup> Optat (St.), I, 23- 24 : Martrove (F.), Op.cit, p. 368

<sup>3</sup> Optat (St.), 1, 27 ; Augustin (St.), Epist., 43,2 ; d'après Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.22 ;

رداً على ذلك، دعا الإمبراطور "قسطنطين" إلى عقد مجمع آرل في 1 أغسطس 314م بمدينة آرل (Arles) في غاليا.<sup>1</sup> وقد شهد هذا المجمع تمثيلاً واسعاً لكل مقاطعات الغرب الروماني، بحضور وفدي الكنيستين الأفريقيتين المتنافستين. واتخذ المجمع عدة قرارات هامة، منها: تحديد الإجراءات التأديبية ضد المرتدين، معالجة قضايا الهرطقة والملحدين، التأكيد على ضرورة إعادة تعميد الذين اعتنقوا المسيحية بعد ارتدادهم.<sup>2</sup>

لقد أكد مجمع آرل بشكل قاطع وقاطع دون أي تحفظ على الحكم الصادر لصالح "كاكيليانوس" (Caecilianus) من قبل مجمع روما سنة 313م. وقد تم إبلاغ هذه القرارات رسمياً إلى: الإمبراطور "قسطنطين" و البابا "سلفستر"<sup>3</sup> "4".

(Silvestre) - الذي خلف البابا "ميلتياد" (Melchiades) بعد وفاته في يناير 314م.<sup>5</sup> كما توسع مجمع آرل في نطاق قراراته ليشمل قضايا أخرى، حيث اتخذ إجراءات صارمة تجاه الجنود المسيحيين الفارين من الجيش الروماني، حيث نص أحد قراراته على أن: «أي جندي مسيحي يتخلى عن سلاحه يُجرم من الشركة المسيحية».<sup>6</sup>

تشير هذه التطورات إلى أن الدوناتيين وُصفوا رسمياً من قبل السلطات المدنية كهراطقة وخارجين عن القانون، في إطار تحالف استراتيجي بين الإمبراطورية والكنيسة الكاثوليكية لمواجهة هذه الحركة وقد أدى هذا التحالف إلى تصعيد العداء من الجانبين، حيث رد الدوناتيون بإعلان معارضتهم الصريحة لسلطة اضطهدتهم بقسوة. وجدير بالذكر أن إدانة الانشقاق الديني في شمال إفريقيا تمت عبر مسارين متكاملين: أولاً عبر الإدانة الدينية الصادرة عن مجععي روما (313) م وآرل 314 م، وثانياً

<sup>1</sup> Martroye (F.), Op.cit, pp. 370- 372.

<sup>2</sup> Duchesne (L.), « le Dossier du Donatisme », M.E.F.R., X, 1890., pp. 640- 644 ; Martroye (F.), Op.cit., p. 377.

<sup>3</sup> - \* سلفستر (Sylvestre)، قديس كاثوليكي، من مواليد روما، عين بابا من سنة 314 إلى سنة 336م، بعد وفاة "مليكياد" في شهر جانفي سنة 314م. تميزت فترة حكمه بنهاية الاضطهاد، وانعقاد مجمع نيقية (Nicée) سنة 325م الذي يعتبر أول مجمع مسكوني. - Dict. Univ. Hist. Géo., p. 1827.

<sup>4</sup> Ibid., p.380.

<sup>5</sup> Eusèbe, de Césarée, Histoire de la vie de Constantin , X, 5, 21.

<sup>6</sup> Gsell (S.), l'Algérie dans l'antiquité....p. 114

عبر الإدانة القضائية التي جاءت بقرار لجنة التحقيق الرسمية - وهي اللجنة نفسها التي طالب بها المنشقون. وقد كان لمقررات مجمع آرل بشكل خاص صدى عميق في أرجاء المغرب القديم، حيث حظيت بقبول واسع بين كنائس الغرب الروماني، التي أجمعت على رفض أفكار دوناتوس ودعت إلى إنهاء حركته، بينما أكدت شرعية كايكيليانوس واعتبرته الرئيس الشرعي للكنيسة.

أدت هذه القرارات إلى تفجير موجة احتجاجات عارمة، حيث انتشرت الاضطرابات وعمّت الفوضى، مما دفع بالدوناتيين إلى المطالبة بتدخل الدولة العاجل. وقد استجاب الإمبراطور "قسطنطين" في البداية، لكنه ظل متردداً لمدة عامين تقريباً، يُغير خلالها القرارات والإجراءات بشكل متكرر. فقد تردد بين عدة خيارات: أحياناً يفكر في إرسال قضاة إلى المغرب القديم، وأحياناً أخرى يفكر في الذهاب بنفسه لتسوية النزاع، أو يحوّل القضية إلى روما. وفي هذا السياق، أصدر أمراً إلى البروقفصل بإرسال "إنجنتيوس" (Ingentius) - المتهم بتزوير الحقائق خلال محاكمة "فليكس الأبتونجي" - إلى البلاط الإمبراطوري.<sup>1</sup> كما استدعى الطرفين المتنازعين إلى روما، حيث حضر "دوناتوس" بينما تغيب "كايكيليانوس" عن الجلسة.<sup>2</sup> في محاولة منه لوضع حد للصراع المتصاعد بين الكاثوليك والدوناتيين، اتخذ الإمبراطور قسطنطين إجراءات حاسمة لإنهاء النزاع الدائر في المغرب القديم. فأوفد في بعثة رسمية كلاً من الأسقفين "أولمبيوس" و"أونوميوس" إلى قرطاجنة، مكلفين بمهمة التحقيق الميداني وإيجاد حل يضمن وحدة الكنيسة الأفريقية، حتى لو تطلب الأمر عزل المتنافسين وتعيين أسقف جديد محل إجماع. وبعد أربعين يوماً من البحث والتحري، خلص الموفدان إلى تأكيد شرعية "كايكيليانوس"، وغادرا قرطاجنة بعد إعلان قرارهما.<sup>3</sup>

وتوجت هذه الإجراءات بإصدار قسطنطين حكمه النهائي في 10 نوفمبر 316م، الذي أقر رسمياً بشرعية انتخاب وسيامة "كايكيليانوس" وأعلنه الأسقف الشرعي الوحيد لكنيسة قرطاجنة.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> Augustin (St.), Epist., 88, 4; Contra Cresconium, III, 70, 81 ; Duschene (L.), Op.cit.,p645.

<sup>2</sup> Augustin (St.),Epist,43,7,20.

<sup>3</sup> Optat (St.), I, 26 ; Martroye (F.), « tentative de révolution sociale... », pp. 383- 384

<sup>4</sup> Augustin (St.), Contra Cresconium, III, 71, 82 ; Epist., 43, 2,5.2'

وكان لهذا القرار تداعيات كبرى، حيث اعتبرت الكنيسة الدوناتيية حركة منشقة وخارجة عن القانون، مما شكل ضربة قاصمة للتيار الدوناتي ومحاولة لاستعادة السيطرة الإمبراطورية على المشهد الديني في المنطقة.

وهكذا أسهمت تلك الأحكام القضائية في تحوّل جذري في مسار الحركة الدوناتيية، حيث تحولت من حركة دينية إلى حركة احتجاجية سياسية، وهو ما أدى إلى توسع نفوذها وانتشارها في مختلف أرجاء المغرب القديم. وقد تجلّى هذا الانتشار بشكل واضح في عدة مناطق: ففي قرطاج والمناطق الداخلية للبروقنصلية، ولا سيما في بيزاكينا (Byzacène)، لقي الأساقفة الدوناتيون الذين أرسلهم "دوناتوس" ترحيباً حاراً من السكان المحليين، مما يعكس مدى التأثير الذي حققته الحركة في هذه المناطق<sup>1</sup> كما امتد هذا التأثير إلى الطرابلسية (Tripolitaine)، حيث انضم أعداد كبيرة من السكان إلى صفوف الدوناتيين، محاكين في ذلك نجاح الحركة في بيزاكينا المجاورة.<sup>2</sup>

وفي هذا السياق، يذكر القديس "أوغسطين" أن الأغلبية الساحقة من المسيحيين في المقاطعات الشرقية الثلاث ظلت محافظة على ولائها للكنيسة الكاثوليكية.<sup>3</sup> بيد أن المشهد اختلف جذرياً في نوميديا، التي تحولت منذ بواكير الحركة الدوناتيية وحتى أواخر القرن السادس الميلادي إلى معقل رئيسي للدوناتيية، حتى أُطلقت عليها تسمية "الانشقاق النوميدي" الدالة على عمق التأثير الدوناتي في المنطقة وقد تمكّن الأساقفة النوميديون من مد نفوذهم إلى مقاطعات موريطانيا الثلاث خلال أواخر القرن الرابع الميلادي.<sup>4</sup> كما ارتبطت الحركة ارتباطاً وثيقاً بالثورات المحلية، حيث انضم أتباعها إلى الثائرين "فيرموس" و"جيلدون"، وتحديداً إلى قائدهم العسكري "أوبطاتوس الثاموقادي".<sup>5</sup> وهكذا استقطبت الكنيسة الدوناتيية فئات اجتماعية متنوعة، ضمت كلاً من: المستوطنين الرومان (المعمرين)، السكان المحليين (الأهالي) و عناصر من مختلف مناطق نوميديا .

<sup>1</sup> Monceaux (P.), H.L.A. C., IV, p. 112.

<sup>2</sup> Augustin (St.), Epist., 93. 8. 24.

<sup>3</sup> Augustin (St.), Epist., 129, 6.

<sup>4</sup> Optat (St.), II, 17- 19.

<sup>5</sup> Augustin (St.), Contra Litter. Petil., I, 24, 26 ; Epist., 43, 8, 247.

شكّلت الكنيسة الدوناتية قوة دينية وسياسية مؤثرة في العديد من المراكز الحضرية الرئيسية بالمغرب القديم، حيث بلغت ذروة نفوذها في مدن رئيسية مثل تاموقادي (Thamugadi) التي أصبحت حصنها المنيع، وبغاي (Bagai)

التي تحولت إلى مركز إشعاع ديني وسياسي للحركة. كما حافظت الحركة على حضور قوي في مدن مهمة مثل سيرتا وهييو-ريجوس (Hippo-Regius)، حيث استمر تأثيرها حتى أواخر القرن السادس الميلادي، مما يؤكد صمودها وقدرتها على الصمود أمام التحديات التي واجهتها.<sup>1</sup>

يتضح من التحليل السابق أن الحركة الدوناتية ترسخت بقوة في مقاطعة نوميديا، لدرجة أن المجمع الكنسي الكاثوليكية والتشريعات الإمبراطورية وحملات القمع العنيفة لم تتمكن من القضاء عليها أو اجتثاثها من تلك المنطقة. ويظهر أن الدوناتية خلال مرحلتها الأولى - حتى صدور مرسوم الإمبراطور قسطنطين في 10 نوفمبر 316م - كانت محدودة الانتشار في نوميديا ومناطق محيطة بقرطاج، حيث ظلت انشاقاً ذا طبيعة إقليمية، غير أن هذا الوضع شهد تحولاً لاحقاً.

### المرحلة الثانية: مرحلة الصراع والقمع (317-392م)

شهدت هذه المرحلة تصاعداً حاداً في النزاع بين الحركة الدوناتية من جانب، والكنيسة الكاثوليكية المدعومة من الإمبراطورية الرومانية من جانب آخر. وقد امتد هذا الصراع من بداية حملات الاضطهاد المنظمة عام 317م تحت حكم الإمبراطور قسطنطين، حتى عام 392م حين انخرط القديس أوغستين في مواجهة الدوناتيين ومناظرتهم بعد تعيينه أسقفاً على هييو ريجوس (مدينة عنابة الحالية).<sup>2</sup>

شهدت هذه المرحلة (317-392م) سلسلة من الأحداث الحاسمة التي شكلت منعطفات تاريخية في مسار الصراع بين الكنيسة الرسمية والحركة الدوناتية. فبعد أولى موجات الاضطهاد في عهد قسطنطين عام 317م التي شملت مصادرة الممتلكات الكنسية ونفي القادة، تلاحقت الإجراءات

<sup>1</sup> Optat (St.), III, 4; Augustin (St.), Epist., 43, 8. 24 ; Contra. Litter. Petil., II, 23, 53-55

<sup>2</sup> منصورى خديجة، المرجع السابق، ص 45.

الرسمية بين مد وجزر. حيث بدأت بمرسوم التسامح عام 321م الذي منح هامشاً من الحرية، ثم تصاعدت مجدداً مع مرسوم الوحدة عام 347م الذي أطلق موجة قمعية جديدة. وقد شهدت الفترة اللاحقة تقلبات حادة، بين انتعاش نسبي أيام جوليان المرتد (362م) الذي أضعف موقف الكنيسة الرسمية، وعودة سياسة القمع المنظم بدءاً من عام 373م عبر سلسلة مراسيم استهدفت تقويض أسس الحركة الدوناتية. هذه التحولات المتعاقبة رسمت ملامح مرحلة ديناميكية اتسمت بالصراع المستمر بين محاولات القضاء على الانشقاق من جهة، واستمرار المقاومة الدوناتية من جهة أخرى.

أصدر الإمبراطور تعليمات صارمة إلى ولاة الأقاليم بضرورة التنفيذ الحرفي للقوانين، فشكّلت السلطات السياسية بالتعاون مع الكنيسة الرسمية طوقاً أمنياً حول الكنائس لمنع الدوناتيين من الوصول إليها أو الاحتماء بها.<sup>1</sup> ورداً على هذه الإجراءات، لجأ الدوناتيون إلى المقاومة المسلحة للدفاع عن أماكن عبادتهم، حيث شهدت قرطاجة سلسلة من المواجهات الدامية داخل الكنائس - وفقاً لرواية المؤرخ مونصو - أسفرت عن مقتل عدد من المتشددون الذين دُفِنوا في نفس الأماكن التي سقطوا فيها.<sup>2</sup> ويقدم القديس أغسطين وثيقة تاريخية مهمة عن مجمع قرطاجة سنة 336م، حيث يشير إلى مشاركة مئتين وسبعين أسقفاً دوناتياً في اجتماع استمر خمسة وسبعين يوماً. ومن بين القرارات التي خلص إليها هذا المجمع - وفقاً للمصادر المتاحة - يبرز قرار بالغ الأهمية يتعلق بقبول "الخونة" و"المذنبين" من الكاثوليك الذين أرادوا العودة إلى الكنيسة الدوناتية، حيث أقر المجمع قبولهم دون شروط وإعفاءهم من إعادة التعميد.<sup>3</sup>

لقد مثل هذا المجمع - وفقاً لشهادة القديس أغسطين - منعطفاً حاسماً في تعزيز الوحدة مع ما أسماهم "المتخاذلين" و"الخونة". وقد حافظ دوناتوس على تحالفه الاستثنائي مع الأسقف دوتريوس (أسقف ماكريانا) ومع أساقفة موريطانيا طيلة أربعين عاماً متواصلة. ومن اللافت أن هذه التحالفات الكنسية ظلت متماسكة في موقفها المتمثل في قبول المرتدين الكاثوليك في الكنائس الدوناتية دون

<sup>1</sup> Martroye (F.), « tentative de révolution sociale... », p. 387-388

<sup>2</sup> Monceaux (P) H.L.A.C., IV, p. 469.

<sup>3</sup> Augustin (St.), Lettres, XCII, X, 43

اشتراط إعادة تعميدهم، وهو الموقف الذي استمر حتى بداية حملات الاضطهاد التي قادها ماكاربوس عام 347م.<sup>1</sup>

اتسع المد الجغرافي للحركة الدوناتيية ليشمل كافة أرجاء المغرب القديم، حيث امتد نفوذها من قرطاجة ونوميديا إلى موريطانيا، حتى أصبحت التيار الديني المهيمن في هذه المناطق. وقد علق المؤرخ "أوبطاميلي" على هذا الانتشار الواسع بقوله: «لقد أبدى الدوناتيون دهاءً غير مسبوق في استقطاب الأتباع»<sup>2</sup> (Subtiles In Seductio Ibus)

وقد أسهمت السياسة التوفيقية التي انتهجها الإمبراطور قسطنطين في تعزيز نفوذ الحركة، حيث شهدت الطوائف المنشقة نمواً سريعاً وغير مسبوق. وفي هذا السياق، اتخذ مجمع قرطاجة سنة 336م قراراً جريئاً سمح بموجبه للكنائس الدوناتيية بقبول المهتمدين من الكاثوليك دون اشتراط إعادة تعميدهم<sup>3</sup> وفي نوميديا على وجه الخصوص، بلغت ثقة الدوناتيين بمكائنتهم مبلغاً جعلهم يستولون على أملاك خصومهم دون تردد، حيث اغتصبوا بازيليكاً سيرتا رغم وجود القوانين الإمبراطورية التي تحظر مثل هذه التصرفات، مما يعكس مدى قوتهم وتحديدهم للسلطة المركزية.

رغم إصدار الإمبراطور قسطنطين للقانون المؤرخ في 5 فبراير 330م الذي منح الحصانة الكاملة لرجال الدين الكاثوليك<sup>4</sup>، إلا أنه اتخذ موقفاً متساهلاً في قضية بازيليك سيرتا، حيث أثر تركها في أيدي الدوناتيين لتجدد أعمال العنف بين الطرفين وقد حاول تعويض الكاثوليك بوعد ببناء كنيسة جديدة على نفقة الدولة. وتفاقت حدة الأزمة في عهد الإمبراطور قسطنطينوس\*

<sup>1</sup> Ibid, 43- 44

<sup>2</sup> Optat (St.), II, 17.

<sup>3</sup> Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 30

<sup>4</sup> 1-Cod. Theod., XVI, 2, 7.

\*-قسطنطينوس (317- 361) (Flavius Julius Constantius) : (م) إمبراطور روماني (361- 337م) الابن الثاني لقسطنطين ورث العرش عن أبيه سنة 337م واقتسم مع أخويه : قسطنطين I1 و قنسطانس Constance ، الشرق واليونان Grèce ، عرف بوحشيته وفضاعته توفي وهو في طريقه إلى مقاومة القيصر "جوليان Julien -الذي أعلن نفسه إمبراطوراً-451. Dict. Univ. Hist. Géo., pp.

<sup>1</sup>Constantius) الذي خلف والده قسطنطين (المتوفى في 22 مايو 337م)، حيث شهدت الفترة تصاعداً ملحوظاً في حدة الصراع بين الطرفين. وقد تبني الإمبراطور قسطنطينوس اعتقاداً بأنه قادر على تحقيق ما عجز عنه والده. فسار في المرحلة الأولى على نهجه، حيث أصدر تشريعاً إمبراطورياً موجهاً إلى ولايات أفريقيا عام 338م<sup>2</sup> اعتمد سياسة التهدئة والتسامح. وفي إطار هذه السياسة، عين واليين إمبراطوريين هما "بولوس" (Paulus) و"ماكاريوس"\*\*\* (Macarius)، وكلفهما بمهمة تحقيق الوحدة الكنسية بين الطائفتين المتناحرتين. وقد اتبع الموفدان - وفقاً لشهادة أوبطاميلي - أسلوبين متوازيين: محاولة استمالة المتشددين الدوناتيين عبر الحوار والإقناع، توزيع المساعدات المادية على مختلف الفئات و تقديم الهدايا للنخب المؤثرة في الحركة الدوناتية<sup>3</sup> وقد اكتسب الموفدان الإمبراطوريان خلال هذه المهمة لقب "بناة الوحدة" (Operarii Unitatis)<sup>4</sup>، مما يعكس الطبيعة الإصلاحية التي ميزت هذه المرحلة من الصراع. تصدى دوناتوس الكبير بحزم لسياسة الإمبراطور قسطنطينوس القائمة على استمالة الأتباع عبر الإغراءات المادية، إذ رأى في منح المساعدات والهبات محاولةً مبطنَةً لتفتيت الحركة الدوناتية من داخلها. فبادر إلى إصدار منشور دوري حرّم فيه على أتباعه قبول أي معونات من الموفدين الإمبراطوريين، مما أفشل الخطة الإمبراطورية تماماً. ولم يجد المبعوثان الإمبراطوريان بولوس وماكاريوس بعد هذا الفشل الذريع سوى اللجوء إلى القوة، بعد استئذان الإمبراطور الذي أصدر في يونيو 347م مرسوم الوحدة الجذري الذي نص على: دمج الكنيستين المتنافستين قسراً، حل جميع الطوائف المنشقة .

<sup>1</sup> Martroye (F.), « tentative de révolution sociale... », p. 392 ; Augustin (St.), 151, 154 ; 164-171 ; (B.A.28, pp. 171- 177)

Cod. Théod., IX, 34, 5.

\*\*\*-بولوس وماكاريوس: مبعوثان إمبراطوريان أرسلهما الإمبراطور قسطنطينوس وكلفهما بتوزيع المؤن سنة 347م في المغرب القديم خاصة في نوميديا معقل الدوناتية لمحاولة إقناع الدوناتيين بالرجوع إلى الوحدة الدينية الكاثوليكية، لكن دوناتوس لم يستقبلهم بل أمر الفقراء برفض المساعدات المقدمة لهم وقد اشتهر مكاربيوس بعنفه في معاملة الأساقفة الدوناتية خلال قيامه بمهمته.

-Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.34 ; Martroye (F.), la Répression du Donatisme, pp. 60- 73.<sup>2</sup>

<sup>3</sup> Optat (St.), III, 3

<sup>4</sup> Oprat (St), 1, 6-7, III, 9- 10; Brisson (J.P.), Op.cit, p.292

مصادرة ممتلكات الدوناتيين لصالح الكنيسة الكاثوليكية<sup>1</sup>.

يمثل مرسوم الوحدة الذي أصدره الإمبراطور قسطنطينوس استمراراً للسياسة التي بدأها والده قسطنطين منذ عام 316م، والتي ظلت سارية رغم تعليق تنفيذها بعد مرسوم التسامح عام 321م<sup>2</sup> وقد نفذ هذا المرسوم بسهولة في مقاطعات البروقنصلية وبيزاكينا والطرابلسية، حيث لم تواجه السلطات مقاومة<sup>3</sup> ويعود ذلك لضعف الوجود الدوناتى في تلك المناطق، أو ربما لآثار ثلاثة عقود من السلام والازدهار (321-347م) التي خففت من حدة الصراع الدينى. بالمقابل، شهدت قرطاجنة - باعتبارها العاصمة الروحية والسياسية للدوناتية ومقر زعيمهم - مواجهات دموية عنيفة فقد كانت مركزاً للنشاط الدوناتى، وشهدت انعقاد أهم مجامعهم الكنسية<sup>4</sup>، كما تمتعت بقاعدة شعبية كبيرة و متماسكة جعلتها تقف بقوة في وجه سياسة الوحدة القسرية.

اندلعت أعمال العنف في قرطاجنة عندما قام أحد المتعصبين الدوناتيين ويدعى "ماكسيميانوس" (Maximianus) بتمزيق القرار البروقنصلي الخاص بتوحيد الكنيستين، والذي كان قد نُشر في 15 أغسطس 347م وقد تعرض المعتقلون لتعذيب وحشي في السجن، حيث لقي "ماكسيميانوس" ورفيقه "إسحاق" (الذي وجه إهانات للكاثوليك) نفس المصير المأساوي. وبعد انتهاء التعذيب، أُلقي بهما في البحر، إلا أن الأمواج لفظت جثتيهما، فقام الدوناتيون باسترجاعهما وإعطائهما دفناً لائقاً<sup>5</sup>.

أثار مرسوم قسطنطينوس صراعاً دينياً واسع النطاق في نوميديا، حيث تحولت الدوناتية في مدن تاموقادي (Thanugadi) وتيفست (Theveste) وبغاي (Bagai) إلى ما يشبه الديانة الوطنية وقد برزت هذه المناطق كمعقل رئيسية للمقاومة نظراً للكثافة العددية والقوة التنظيمية التي تمتعت بها الطوائف المنشقة فيها مقارنةً بالكاثوليك وتميزت مدينة بغاي بكونها مركزاً للتمرد ضد

<sup>1</sup> Optat (St.), III, 1, 3; Augustin (St.), Lettres, CV, 2, 9; Julien (Ch.A.), Op.cit., p.217

<sup>2</sup> Cod. Theod.. XVI. 6. 22

<sup>3</sup> Optat (St.), III, 4

<sup>4</sup> Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, P. 125..

<sup>5</sup> Ibid., pp. 35- 36.

قرار الوحدة، حيث قاد دوناتوس بنفسه تنظيم الدفاع عن المدينة بالاستعانة بالثوار الريفيين المعروفين باسم "الدوارين" كما شن حملة دعائية واسعة عبر منشورات وزعت في أنحاء نوميديا وأسواقها الرئيسية، حث فيها أتباعه على المقاومة والدفاع عن كنائسهم باعتبارهم ممثلي "المسيحية الحقيقية".<sup>(1)</sup> حصن "دوناتوس" مدينة بغيي وحول كنائسها إلى مخازن للحبوب وجمع المؤمن استعدادًا للمواجهة.<sup>(2)</sup> وعندما وصلت أخبار استعداداته الحربية إلى المحافظين، طلبوا الدعم من كونت\*<sup>3</sup> (Conte) أفريقيا "سلفستر" (Silvestre)، فأرسل فرقة عسكرية بقيادة أسقف إلى بغيي، لكن الدوناتيين استقبلوهم بإهانات في ضواحي المدينة، مما دفع الجيش إلى القضاء عليهم،<sup>4</sup> ثم شهدت بغيي معارك دموية بين الجيش والدوناتيين صيف عام 347م، ويُرجح أن "دوناتوس بغيي" قُتل خلالها، ليُكرّم لاحقًا كشهيد.<sup>5</sup> و في صيف عام 347م، انعقد مجمع إقليمى دوناتي في نوميديا احتجاجًا على حملات العنف التي قادها "ماكاريوس" (Macarius)، ودعا إلى إعادة الأمن والاستقرار إلى المنطقة. وقد علّق أحد مؤرخي الحركة الدوناتية على هذا التدخل الكنسي قائلاً: «اجتمع أساقفتنا واختاروا عشرة من أبرزهم لمواجهة ماكاريوس، حاملين تحذيرات صارمةً بوقف جرائمه التي أزهقت أرواح العديد من أتباعنا في هذه المعركة الدينية.»<sup>6</sup> جتمع الأساقفة الدوناتيون بالمبعوث الإمبراطوري "ماكاريوس" في مدينة "فيجيزيلا" (المعروفة اليوم باسم "قصر الكلب")، وتقع شمال جبال الأوراس بين مدينتي "تيفست" (تبسة حاليًا) و"ماسكولا" (خنشلة حاليًا) وقد حاولوا بكل وسيلة إقناعه بوقف العنف واستعادة السلام، لكن أسلوبهم جاء فظًا، مما دفع "ماكاريوس" إلى الرد بعنف، حيث أمر بضربهم بالعصي والقائهم في السجن.<sup>7</sup>

<sup>1</sup> Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, P. 36

<sup>2</sup> Pallu de Lessert, Fastes des provinces Africaines sous la domination romaine, Tome 2, Paris, 1901, p. 243.

<sup>3</sup> \* الكونت Conte، وهو منصب استحدثه الإمبراطور قسطنطين الذي عين عددا من أتباعه في مهام متنوعة: مالية، عسكرية وإدارية بجانب الحكام والولاة، وكان كونت إفريقيا يعوض الوالي Vicerius أو يعمل قائدا للجيش. Petit (P.), H.G.E.R., t. III, p.73.

<sup>4</sup> Optat (St.), III, 4

<sup>5</sup> Optat (St.), III, 6 ; Augustin (St.), Contra. Litter. Petil., II, 20, 46

<sup>6</sup> Passio Marculi, p. 761 ; d'après Monceaux (P.), H. L.A. C., IV, pp. 335- 336.

<sup>7</sup> Monceaux (P.), H. L.A. C., IV, p. 37

أثارت هذه الأحداث غضبًا عارمًا لدى سكان "فيجيزيلا"<sup>1</sup>، مما أدخلهم في مواجهات مباشرة مع قوات "ماكاربوس"\*\*\* (Marculus)، أسفرت عن سقوط ضحايا عدة، من بينهم "فليكيانوس" (Felicianus) الذي لقي حتفه في 29 يونيو 347م بالمدينة ذاتها، تحت ضغط التصاعد، أفرج المبعوث الإمبراطوري عن تسعة أساقفة ممن أرسلهم مجمع سيرتا، بينما احتفظ بالأسقف العاشر "ماركولوس" - الأكثر تشددًا - وقاده عبر مدن نوميدية في مسيرة إذلال، قبل أن يُلقى به من فوق جرفٍ شاهق وقد روج الكاثوليك روايةً مفادها أن "ماركولوس" انتحر بهذه الطريقة<sup>2</sup>\*\*\*، في محاولة لتبرير الواقعة في مدينة "نوفابترا" (Nova Petra) في 24 نوفمبر سنة 347م.<sup>3</sup>

وفقًا لرواية "أوبطاميلي"، أكد الدوناتيون أن "ماركولوس" أُلقي به حيًّا من قمة جرفٍ على يد جنود "ماكاربوس"، وتحول قبره لاحقًا إلى مزارٍ مقدسٍ لأتباع الحركة<sup>4</sup> وفي سياق متصل، أثار مرسوم الإمبراطور "قنسطانوس" - حسبما نقل القديس أوغسطين - سخطًا واسعًا بين سكان المغرب القديم، مما دفع العديد من الأساقفة والدوناتيين إلى الفرار من قرطاج ونوميديا نحو مناطق أكثر أمانًا هربًا من القمع<sup>5</sup> وقد نتج عن هذه الأحداث سلسلة من المواجهات الدامية، أضيف

<sup>1</sup> Birebent (J.), *Aquae Romanae, service des antiquités de l'Algérie*, p. 364- 365 ; Gsell(S.), *Notes d'archéologie Algérienne*, B.C.T.H., 1899, p. 455 ; Id., *A.A.A.*, f: 28, n°171.

<sup>2</sup>\*\*\*- نلاحظ التناقض والتردد في تصريحات أوغسطين حينما تعرض في بعض الفقرات إلى وفاة "ماركولوس" إذ يرجح الإنتحار على القتل تارة إذ قال: « أما دوناتوس "أسقف بغاي الذي قاوم المبعوثين الإمبراطوريين" وماركولوس الذين تستعملون اسميهما لإذكاء حقدكم، فلا يعرف بصراحة هل رميا نفسيهما من المرتفعات تلقائيًا، أو أنه قرار السلطة التي حكمت عليهما بذلك. » ويعترف أوغسطين في فقرة أخرى بأنه لا يملك الحجة على ذلك فيقول: لد أنا أحكي ما سمعت عن ماركولوس، ولماذا أرجح هذه الرواية "انتحار ماركولوس"، الله وحده يعرف الحقيقة. « على كل مهما اختلفت الروايات حول وفاة ماركولوس فإن ذكره ظلت خالدة في أذهان الدوناتيين الذين أقاموا له ضريحًا في فيجيزيلا (Negesela) قصر الكلب حاليًا قرب خنشلة، كما دخل قائمة الشهداء وخصص له كتاب "آلام ماركولوس" (Passio Marculi) لازال محفوظًا الى اليوم. - » (P. Courcelle . une Seconde Campagne

de Fouilles à Ksar El Kelb », M.E.F.R., 1936, pp. 166- 197 ; Augustin (St.), *Cont. Cresc.*, III, XLIX, 54. Augustin (St.), *Cont. Litter. Petil.*, II, XX, 46

<sup>3</sup> Julien (Ch.A.), *Op.cit.*, p. 217.

<sup>4</sup> Optat (St.), III, 6 ; Augustin (St.), *Cont. Litter. Petil.*, II, 20, 46 ; *Cont. Cresc.*, III, 49, 54.

<sup>5</sup> Augustin (St.), *Lettres*, LXXXVIII; Julien (Ch. A.), *Op.cit.* p.217.

ضحاياها إلى قائمة شهداء الحقبة التي عُرفت لدى الدوناتيين باسم: "زمن ماكاربوس" (Macarius Tempora).<sup>1</sup>

بلغ القمعُ درجةً من العنف جعل حتى الكاثوليك يتحفظون في الدفاع عن "بناة الوحدة" (Operarii Unitatis)، حيث ترك هؤلاء سمعةً قريبةً من سمعة الجلادين، كما أقرّ القديس أوغسطين نفسه ولإكمال مشروع "الوحدة بالقوة"، نفى ماكاربوس "دوناتوس القرطاجي" خارج أفريقيا مع عددٍ من كبار أساقفة الكنيسة الدوناتية، وصادر كنائسهم لصالح الكنيسة الكاثوليكية وقد أبلغ المسؤولون الإمبراطوريون بعد ذلك أن "السلام والوحدة" قد تحققا في المغرب القديم – في إشارةٍ إلى نجاح الحملة القمعية.<sup>2</sup>

تسببت الأحداث الدموية التي قادها "ماكاربوس" في تصاعد العداء تجاهه وتجاه الكنيسة الرسمية، مما أدى paradoxalement إلى انتشار الدوناتية بين عامة الشعب، الذين رأوا في هذه الأعمال عنفاً غير مبرر<sup>3</sup> وقد عبّر الدوناتيون عن رفضهم لهذه السياسة عبر نصوص احتجاجية، منها ما نقله "بريصوصن" على لسانهم: «أليس معروفاً للجميع أن هؤلاء المرتدين – بعد اضطهادنا – أجبرونا على تقديم عرائض مزورة إلى حكام هذا العصر؟ تحت التهديد بالنفي، حاولوا إجبارنا على تبني أفكارهم المنحرفة، متكرين لوصايا الله. لقد أرسلت السلطة الدنيوية حكماً مثل "ليانتيوس" (Leontius) و"أورسაკيوس" (Ursacius) و"ماكاربوس" (Macarius) و"بولوس" (Paulus) و"طورينوس" (Taurinus) و"رومانوس" (Romanus) وغيرهم، ليريقوا دماء أتباع المسيح الأبرياء.»<sup>4</sup> وثق "بريصوصن" أحداث العنف في بغاي بتفاصيل مروعة، حيث نقل على لسان الدوناتيين: «سقط خلال تلك الفترة عددٌ من الأساقفة القديسين، بين نفي وتعذيب، وانتهكت حرمة العذارى الطاهرات، ونهب الأغنياء وفقراء،

<sup>1</sup> Optat (St.), III, 11

<sup>2</sup> Augustin (St.), Lettres, XLIV, 2, 4.

<sup>3</sup> Optat (St.), II, 15 ; 1, 4 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 37- 38.

<sup>4</sup> Brisson (J.P.) , Op.cit., p. 290..

وصودرت دور العبادة، ولاذ الأساقفة بالفرار. ولا يُحصى عدد الجرائم التي ارتكبت، حتى أنّ دماءً كثيرةً سالت في بغاي وحدها على أيدي هؤلاء الخونة.<sup>1</sup> كان للأحداث الدموية عام 347م - كما ذكر سابقاً - تأثيرٌ عكسيّ أدى إلى انتشار الدوناتية، خاصة في نوميديا التي شهدت أفسى موجات الاضطهاد. وقد تجلّى صدى هذه المأساة في خطاب "بتيليانوس" \* أسقف سيرتا الذي واجه به خصومه الكاثوليك بقوله: «إن الكتاب المقدس ينادي: لا تقتل أخاك، بينما أنتم سفكتم دماءنا... وينهى عن أخذ متاع الغير، بينما أنتم نهبتم ممتلكاتنا وادعيتهم ملكيتها.»<sup>2</sup>

خلّفت أحداث العنف سجلاً شهيدياً دُوّنت أسماءهم في نقوش أثرية، منها نقشٌ عُثر عليه في "هنشير بوسعيد" قرب "فيجيزيلا" (قصر الكلب حالياً، بالقرب من خنشلة)، حيث يُصوّر هذا النقش - المنحوت على صخرة (0.57م × 0.23م) عُثر عليها في كنيسة - شخصيةً مكبّلةً بالسلاسل، تحمل عصاً في يدها اليسرى، بينما تُقيد اليمنى بسلسلة حديدية. وعلى صدرها حرف (X)، وفوق رأسها بابٌ يُرجح أنه باب سجن ويحمل النقش عبارة "Donatus Milex" ("جنود دوناتوس")، مما يشير إلى: أن الدوناتيين اعتمدوا العصي كوسيلة دفاع (امتثالاً لنهي المسيح - حسب معتقدهم - عن حمل السكاكين).<sup>3</sup>

تُظهر هذه النقوش تلاحماً واضحاً بين الحركة الدوناتية وثورات الفلاحين (الريفيين) في نوميديا. وقد أشار الباحث "بول مونسو" (P. Monceaux) إلى أن: الدوناتيين كانوا يُسمّون أنفسهم "جنود دوناتوس والمسيح" (Donatus Mile(s) Ch(risti))، بينما عُرف الثوار الريفيون باسم "الدوارين"<sup>4</sup> ويعرفون بـ "Miles Christi" (جندي المسيح)، حيث أكد القديس

<sup>1</sup> Brisson (J.P.), Op.cit., pp. 290-291.

بتيليانوس (Petiliatls)، أسقف قرطبة (Cirta) قسنطينة حالياً، أحد كبار أساقفة الدوناتية وواحد من بين ممثليهم السبعة في مناظرة قرطاجنة سنة 411م، كتب في حوالي سنة 398-399م "رسالة إلى الأساقفة والشمامسة" الدوناتيين ضمنها انتقادات لاذعة للكنيسة الكاثوليكية، ورد عليه أوغسطين بثلاثة كتب في حوالي 400-403م (Quinot (B.), Introduction Générale au « Contra Litteras Petiliani », B.A., 30, pp.9-41.

<sup>2</sup> Augustin (St.), Contra Litteras Petiliani.

<sup>3</sup> Jacques-Paul (dir.), Pluquet (l'abbé), Dictionnaire des Hérésies, p. 649.

<sup>4</sup> Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, P. 476.

"أوغسطين" أن العصا المصورة في نقش "هنشير بوسعيد" ترمز إلى الأداة الرئيسية التي استخدمها الدوناتيون في مهاجمة الكاثوليك ، السلاح النمطي لثوار الأرياف النوميديين وتكشف هذه الدلالة أن الموقع كان معقلاً دوناتياً مهماً (حيث تضمن النقش عبارة "Donatus Milex") الشخصية المنقوشة تمثل شهيداً دوناتياً من ضحايا الصراع<sup>1</sup> و بعد الحملة القمعية الشاملة التي شنها "ماكاربوس" ضد الدوناتيين، والتي شملت الاغتيالات والنفي والمصادرات، دعت الكنيسة الكاثوليكية إلى مجمع قرطاجنة سنة 348م لترسيخ انتصارها. ترأس المجمع "غراتوس" أسقف قرطاجنة، بهدف إعادة هيكلة الكنيسة الأفريقية بعد أن منحها الإمبراطور قنسطانس الشرعية الكاملة.<sup>2</sup>

في افتتاح أعمال مجمع قرطاجنة سنة 348م، ألقى الأسقف "غراتوس" خطاباً افتتاحياً حمد فيه الله على نصره في مواجهة المنشقين، كما وجه الشناء للإمبراطور على قراره بتحقيق الوحدة الكنسية، معتبراً أن جهود المبعوئين "ماكاربوس" و"بولوس" كانت حاسمة في هذا الإنجاز وقد خلص المجمع في نهاية أعماله إلى إصدار حزمة من التشريعات الكنسية، تضمنت بندين خاصين بالدوناتيين: أولهما قرار بعدم إعادة تعميم أولئك الذين يرتدعون عن انشقاقهم ويعودون إلى الكنيسة الأم، وثانيهما منع صريح لوصف ضحايا الدوناتية بلقب "شهداء"، في محاولة لحرمانهم من الشرعية الدينية والتاريخية.<sup>3</sup>

ورغم هذه الإجراءات القمعية، فشلت القوانين الكنسية في استئصال الحركة الدوناتية التي ازدادت رسوخاً في وجدان العامة بالمغرب القديم. وفي مفارقة تاريخية، حاول "أوبطا المليي" تصوير الوضع بشكل مغاير تماماً، حيث ادعى في خطابه الموجه للدوناتيين: «لقد توحدت شعوب أفريقيا والشرق ومسيحيو ما وراء البحار في سلامٍ كنسيٍّ شامل، وأعادوا بناء الكنيسة في انسجام تام. بينما في المقابل، وجد زعمائكم المنشقون أنفسهم في المنفى - وهو مصيرهم المستحق

<sup>1</sup> Augustin (St.), *Contra Litteras Petilianas*, II, 88, 195 ; *Contra Cresconium*, III, 42, 46.

<sup>2</sup> Monceaux (P.), *H.L.A.C.*.. III. p. 221 : Brisson (J.P.). *Op.cit.*... p. 312

<sup>3</sup> Monceaux (P.), *H.L.A. C.*, IV, p. 350.

- إذ لم يعد هناك مكان للانقسام في الكنيسة الجامعة التي عمّها السلام في كل أرجاء العالم المسيحي.<sup>1</sup>

لقد أثبتت الأحداث لاحقاً أن القضاء على الحركة الدوناتية لم يكن بالسهولة التي تصورها "أوبطاميلي"، حيث مرت الحركة بمراحل متباينة من المد والجزر. فعلى الرغم من الهدوء النسبي الذي ساد المغرب القديم خلال الفترة 347-352م، والتي تعتبر من أخطر المراحل في تاريخ الحركة حيث فقدت خلالها العديد من قادتها وأتباعها<sup>2</sup>، إلا أن الأمور شهدت تحولاً جذرياً عام 355م بوفاة "دوناتوس الأكبر" في منفاه وانتخاب "بارمينيانوس" (Parmenianus) خلفاً له كأسقف للكنيسة الدوناتية في قرطاجنة. وقد مثل هذا التحول - كما وصفه المؤرخ "بول مونصو" - "ناراً تحت الرماد تنتظر نسمة لتعود اشتعالاً"<sup>3</sup>، حيث أعاد "بارمينيانوس" تنظيم الحركة وحافظ على جذورها الشعبية، مهياً الأجواء لانتعاشة جديدة تثبت أن القمع الرسمي لم يستطع اقتلاعها من جذورها. ظل "بارمينيانوس" على رأس أبرشية قرطاجنة الدوناتية لمدة أربعين عاماً، نجح خلالها في إحياء الحركة من جديد. تميز هذا الزعيم الفذ بمواهب متعددة - خطيباً مفوهاً، وكاتباً بارعاً، وصاحب رؤية لاهوتية، بالإضافة إلى كفاءته الإدارية النادرة. ولا شك أن انتشار الدوناتية الواسع يعود بالدرجة الأولى إلى جهوده، حتى أن خصمه اللدود "أوبطاميلي" اضطر للإعتراف بقوة تأثيره بقوله: «كان أتباعه يعبدونه كعبادة الله»<sup>4</sup> من جهة أخرى، تمتعت الكنيسة الكاثوليكية في المغرب القديم بفترة من الهدوء النسبي استمرت 15 عاماً (348-362م)، حققت خلالها الوحدة والأمن بعد أن قضت على خصومها عبر حملة).

منهجية شملت القتل والنفي والقمع، وذلك بدعم كامل من السلطة الإمبراطورية. وقد مثل هذا التحالف بين الكنيسة والدولة نقلة نوعية، خاصة بعد تردد الكنيسة الأولى في الاستعانة بالسلطة

<sup>1</sup> Optat (St.), II, 15.

<sup>2</sup> Optat (St.), III, 3.

<sup>3</sup> Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 40, 336.

<sup>4</sup> Julien (Ch.A.), Op.cit, pp. 218- 219..

الزمنية لمواجهة الدوناتيين منذ عهد الإمبراطور "قنسطانس" (337-350م) حيث استغل الدوناتيون فترة حكم الإمبراطور "جوليان" \* (361-363م) - رغم قصرها - لإعادة إحياء حركتهم، حيث قام بإلغاء السياسات القمعية التي انتهجها سلفه. وفي غضون أشهر قليلة، تمكنوا من إعادة بناء هياكل كنيستهم المنشقة و استعادة نفوذهم الذي ازداد بشكل غير مسبوق.<sup>1</sup>

في محاولةٍ خادعةٍ لإضعاف المسيحية، انتهج الإمبراطور جوليان (361-363م) سياسةً ظاهرها التسامح الديني وباطنها التفرقة، حيث قام بسحب امتيازات رجال الدين الكاثوليك، وأطلق سراح المنفيين الدينيين، وأعلن حرية العبادة لجميع الطوائف. وقد أدت هذه الإجراءات - رغم ادعاء الحياد - إلى إثارة الفتنة بين المذاهب المسيحية، مما سمح للدوناتيين باستغلال الوضع لتعزيز نفوذهم وإعادة بناء كنيستهم المنشقة خلال هذه الفترة القصيرة من الحكم.<sup>2</sup>

لقد انتهز الدوناتيون هذه الفرصة الذهبية، فأرسلوا وفداً من أساقفتهم البارزين - ومن بينهم "بونتيوس" (Pontius) و "روقاتيانوس" (Rogatianus) و "كاسيانوس" (Cassianus) - إلى الإمبراطور جوليان، قدموا خلاله عرائض رسمية يطالبون فيها استعادة حرياتهم الدينية الكاملة، إلغاء مرسوم الإمبراطور قنسطانس القمع و عودة جميع المنفيين والمبعدين من أتباعهم ، مستندين في ذلك إلى المبدأ القانوني الذي يضمن المساواة في الحقوق بين جميع الطوائف الدينية.<sup>3</sup>

بموجب المرسوم الإمبراطوري الذي أصدره جوليان<sup>4</sup> المرتد في مطلع عام 362م، والذي كرس مبدأ الحرية الدينية، استطاع الدوناتيون تحقيق مكاسب كبيرة تمثلت في استعادة كنائسهم ومعابدهم،

<sup>1</sup> Meynier Gilbert, Op.cit., p. 163.

<sup>2</sup> Optat (St.), II, 16- 17 ; Augustin (St.), les Confessions, trad. par Joseph Trabucco, Paris, G.F. Flammarion, 1964, VIII, 5, 10.

<sup>3</sup> Monceaux (P.), H.L.A. C., IV, pp. 40- 41 ; Martroye (F.), Op.cit., p. 410.

<sup>4</sup> -جوليان (Julien أو يوليانيوس)، 331-363م) Flavius Claudius Julianus إمبراطور روماني (361-363م) لقب بالمرتد l'Apostat ابن قنسطانس، ولد بالقسطنطينية، كان حاكماً على غاليا (فرنسا)، رفض المسيحية، وحاول إحياء الوثنية، وارتدى ثوب الغنوصية Stoicism كان متعصباً للتراث اليوناني، فيلسوف غامض الفكر، وعدوا لدوداً للمسيحيين الذين جردهم من كل امتيازاتهم، ومن أبرز أعماله: القياصرة الإثني عشر والرسائل les douzes cesars et les lettres الكاملة Euvres Completes توني في 26 جوان 363م و عمره 32 عام شارل جنيير، المسيحية نشأتها وتطورها، تر. عبد الحليم محمود، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ص. Dict.

وممارسة شعائرهم الدينية بحرية، فضلاً عن عودة المنفيين واسترداد ممتلكاتهم المصادرة<sup>1</sup>، غير أن هذه الإجراءات التي بدت ظاهرياً كتسامح ديني، كانت في جوهرها أداة لإشعال فتيل الحرب الدينية، حيث استخدمها الإمبراطور كاستراتيجية ذكية لزعزعة استقرار الكنيسة الرسمية وتفجير الصراعات المذهبية الكامنة.

إذا كان القديس "أوغسطين" يصف الإمبراطور "جوليان" بأنه "المرتد" (l'apostat) و"الوثني" (Païen)، فإن الدوناتيين قد مدحوه وأثنوا عليه وتشهد على ذلك نقوش وُجدت في نوميديا تمجده، منها نقش يحمل عبارة: "مصلح الحرية والعبادات الرومانية"<sup>2</sup> ويُظهر هذا مدى تأييد بعض الفئات، خاصةً بين الموظفين، لعودة الديانة الوثنية في عهد جوليان ومن هؤلاء الموظفين حاكم نوميديا "كاينيوس ألبينوس" (Caconius Albinus) بين عامي 364 و367م، الذي قام بترميم معبد نبتون\* (Neptune) في "مباريس" (تازولت حالياً، قرب باتنة)<sup>3</sup>.

أقام "كاينيوس ألبينوس" أيضاً معبداً تحت الأرض في سيرتا مكرساً للإله "ميثرا"\* (Mithra)، كما قام بترميم مقر الكابيتول (Capitole) في تيمقاد<sup>4</sup> وعقب صدور مرسوم جوليان، عزم الدوناتيون على تنفيذ بنوده، فعاد المنفيون إلى ديارهم، واستأنفت الكنائس نشاطها الديني، ورفع الأساقفة دعاوى قضائية لاستعادة المعابد والممتلكات المصادرة غير أن هذه الفترة شهدت أيضاً أعمال عنف من قبل بعض المتعصبين، الذين تجولوا في مدن وقرى نوميديا وموريطانيا،

<sup>1</sup> Julien, Œuvres Completes de l'empereur Julien, par Eugène Talbot, Henri Plon, Paris, 1863, Epitres XXVI, LII.

<sup>2</sup> Augustin (St.), Contra. Litter. Petil., II, 97.

\*-نبتون(Neptunle)، إله البحر عند الرومان، ومماثلة الإله "بوسيدون Poséidon" عند الإغريق، كان نبتون يعبد في سواحل كل من "شولو Chulu" وصدادي بجاية Saldae كاله للبحر، ثم يتحول إلى المياه الجارية في المناطق الداخلية مثل السهول العليا بقسنطينة وتونس، وكانت عبادته تختص ببلاد المغرب القديم. محمد الصغير، الملامح الباكرة للفكر الديني غانم الوثني في شمال إفريقيا، دار الهدى، عين مليلة، 2005، ص 126.

\*\* - Optat (St.), II, 16. <sup>3</sup>ميثرا(Mithras-Mithra)، اله فارسي قديم، يرمز إلى الخصب والخلود، دخلت هذه العبادة إلى روما سنة 67 ق.م، ويرمز لها بشاب يرتدي قبعة وسترة خضراء ومعطف يتدلى على الكتف الأيسر، يحمل سيفاً غرزته في عنق ثور، وقد احتفت هذه العبادة في نهاية القرن الرابع الميلادي- 1265-1264. Dict. Univ. Hist- Géo, pp. 1264-1265.

<sup>4</sup> Gsell (S.), L'Algérie dans l'antiquité..., pp. 68- 69

سعيًا لإحياء الطوائف الوثنية بالقوة<sup>1</sup> ، حيث أثارت أعمال السلب والنهب والقتل التي نفذها المنشقون ذهول حكام المقاطعات الأفريقية، حيث سارعوا إلى إرسال تقارير إلى الإمبراطور يُفصّلون فيها فظائع العنف التي شهدتها المنطقة<sup>2</sup> ومن بين هذه التقارير، برز تقرير حاكم موريطانيا القيصرية "أثنيوس" (Athenius) ، الذي شهد بنفسه هجوم المنشقين على كنيسة تيبازا (Tipasa)<sup>3</sup> .

يشير "أوبطاميلي" إلى أن الفظائع التي ارتكبت في كنيسة تيبازا الكاثوليكية - من قتل للأطفال والأساقفة، واغتصاب النساء، وإلقاء الأساقفة طعاماً للكلاب - لم تكن لتحصل لولا تواطؤ سلطات موريطانيا القيصرية. فبينما بادر حكام المقاطعات الأخرى بإرسال تقارير إلى الإمبراطور لإبلاغه بأعمال العنف، يظهر أن حكام هذه المنطقة قد تخلوا عن واجبهم في حماية المواطنين.<sup>4</sup>

لقد تجاوز التعصب الديني لدى الدوناتيين كل الحدود عندما أصدر الأسقف "فوستينوس" (Faustinus)، أسقف "هيون" (هيون/عنابة حالياً)، قراراً بمنع الخبازين في أبرشيته من بيع الخبز للكاثوليك.<sup>5</sup> وقد مثل هذا القرار حكماً بالإعدام جوعاً على الأقلية الكاثوليكية، مما يكشف عن مدى التطرف الذي وصلت إليه هذه الفترة. غير أن انتصارات الدوناتيين لم تدم طويلاً، فبعد عشرين شهراً فقط من حكم الإمبراطور "جوليان"، لقي حتفه في 26 يونيو 363م إثر إصابته خلال معركة ضد الفرس في الشرق<sup>6</sup> وكانت وفاته نقطة تحول كبرى، حيث انقلبت الأوضاع رأساً على عقب، وتم فرض عقوبات جديدة، مما أشعل فتيل صراعات دينية جديدة في المنطقة.<sup>7</sup>

<sup>1</sup> Optat (St.), II, 17- 19, III, 3 ; Augustin (St.), Contra. Epist. Parmen., 1, 12, 19.

<sup>2</sup> Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, P. 244.

<sup>3</sup> Optat (St.), II, 18.

<sup>4</sup> Optat (St.), II, 17 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 43 ; Martroye (F.), Op.cit, p.414.

<sup>5</sup> Augustin (St.), Contra Litteras Petilian, II, 83 ; Poujoulat (M.), Histoire de Saint Augustin, 5<sup>e</sup> édition, Alfred Mame et Fils, Tours, 1866, p.230.

<sup>6</sup> Ammien Marcellin, XXV, 3 ; Christol (M.), et Nony (D.), Rome et son empire, librairie Hachette, Paris, 1990, pp. 249, 260 ; Martroye (F.), Op.cit, p. 416.

<sup>7</sup> Julien (Ch.A.), Op.cit., p. 219.

وخلف الإمبراطور "جوليان" في الحكم "جوفيانوس" \* (363-364م)، الذي أعلن عن نيته في اتباع سياسة التسامح تجاه جميع الطوائف المسيحية.<sup>1</sup> لكن فترة حكمه لم تدم سوى ثمانية أشهر (من 26 يونيو 363م إلى 17 فبراير 364م)، مما حال دون تحقيق الاستقرار المنشود. فبالرغم من إلغاءه للإجراءات التي اتخذها "جوليان" ضد المسيحيين، وإصداره مرسوماً عاماً للتسامح، فإنه لم يتمكن من: إحلال السلم والأمن في المقاطعات و توحيد الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية، حيث يثير مرسوم الإمبراطور جوليان الصادر عام 362م إشكالية تاريخية حول دوافعه الحقيقية. فمن جهة، يبدو التناقض واضحاً بين عدائه المعروف للمسيحية - الذي أكسبه لقب "المرتد" من خصومه - وبين إصداره لمرسوم يظهر تسامحاً ظاهرياً. فهل كان هذا المرسوم محاولة خادعة لإضعاف المسيحيين عبر إذكاء صراعاتهم الداخلية؟ أم أنه يعكس رؤية سياسية تهدف لإدارة الاختلافات الدينية في الإمبراطورية؟

يُبرز المؤرخون الكنسيون مثل سقراط \* (Socrate) وسوزومين \*\*\* (Sozomene) تفسيراً سياسياً محضاً لمرسوم جوليان عام 362م، حيث يرون أنه استهدف من خلاله تحقيق غايتين رئيسيتين: أولاً، كسب التأييد الشعبي عبر التبعاد عن سياسات سلفه قنسطانس (Constance) الذي أصبح مكروهاً بسبب مرسوم الوحدة القسري عام 347م، وثانياً، تشويه صورة العهد السابق

---

\*- جوفيانوس Flavius Claudius Jovianus ، إمبراطور روماني (363-364م)، ولا في "سنغيدونوم Singidunum إحدى مقاطعات "Dacie" في رومانيا حالياً، كان قائدا للحرس الإمبراطوري ، لما توفي "جوليان كان الجيش الروماني في حملة ببلاد فارس، وكانت الإمبراطورية تمر باضطرابات خطيرة، لذلك قام الجيش بإعلان "جوفيان إمبراطورا، فتفاوض مع ملك الفرس "سابور الثاني Sapor II واضطر الى التخلي عن المقاطعات الرومانية في بلاد الرافدين للفرس، واتجه إلى القسطنطينية لتولي العرش فوافته المنية هناك في 17 فيفري 364م. - Dict. Univ. Hist- Géó, p 972.

<sup>1</sup> Martroye (F.), Op.cit., p. 416.

\*- سقراط Socrate ، كاتب مسيحي، عرف بالفيلسوف المدرسي le Scholastique ، ولد بالقسطنطينية في نهاية القرن الرابع الميلادي، أكمل كتابة التاريخ الكنسي لأوزيبوس Eusébius بإضافة سبعة كتب تمتد من سنة 306م الى سنة 439م، لم يكن نزيها ومتجردا في كتابه التاريخ.

Dict. Univ. Hist. Géó, p. 1780.

\*\* سوزومان، Sozomene، مورخ إغريقي، ولد بفلسطين في بداية القرن الخامس الميلادي، كان محاميا بالقسطنطينية، كتب التاريخ الكنسي في 9 أجزاء يمتد من 324م إلى 439م. -Ibid., p. 1794.

عبر تقديم نفسه كبديل متسامح<sup>1</sup> ، و يقدم أميان مارسلين (Ammien Marcellin)، المؤرخ الوثني المعاصر لجوليان: « والمذاهب للعضور إلى قصره، وأوعز لهم بلطف أن الخلافات بينهم يجب أن تنتهي، ولكل الحق في الحرية الدينية، وإذا بدا متسامحا فلأنه كان يعتقد أن هذه الحرية ستعمق أكثر الخلافات والانشقاقات وبذلك لن يكون هناك إجماع ضده في المستقبل، مع العلم أن المسيحيين إذا انقسموا حول العقيدة، فإنهم سيكونون أشرس من الحيوانات من معاملة بعضهم البعض. »<sup>2</sup>

لقد مثل عهد الإمبراطور جوليان منعطفاً حاداً في السياسة الدينية الرومانية، حيث أظهر تناقضاً صارخاً بين شخصيته كفيلسوف هلنستي مثقف وبين ممارساته السياسية الخادعة. فبعد ارتداده عن المسيحية، انتهج سياسة متدرجة بدأت بإظهار زائف للتسامح، سرعان ما كشف عن وجهه الحقيقي من خلال إجراءات قمعية صريحة. وقد بلغت سياسته ذروتها عندما فرض على المعلمين المسيحيين خياراً وجودياً قاسياً بين التخلي عن إيمانهم أو التخلي عن مهنتهم، في محاولة واضحة لاجتثاث المسيحية من المنظومة التعليمية واستبدالها بالقيم الهلنستية (Hellénisme).

شهدت الفترة ما بين 363م (وفاة جوليان) و392م تصاعداً حاداً في الصراع بين الكاثوليك والدوناتييين، حيث تواترت المراسيم الإمبراطورية القمعية ضد المنشقين. وفي خضم هذه الأجواء المضطربة، برز الكونت رومانوس قائداً للجيش الإفريقي (363-372م)، الذي اشتهر بأساليبه القمعية الفظة، إذ مارس الابتزاز المنظم ضد السكان و أشرف شخصياً على جباية الأموال

<sup>1</sup> Socrate, Op.ci..., III, 1 ; Sozomene, Histoire de l'église, trad. Mr.Cousin, Paris, Damien Foucault, 1686, V, 5.

\*\*\*-أميان مارسلان، Amien Marcellin، مؤرخ لاتيني ولد بأنطاكية سنة 320م، توفي بروما سنة 390م، شارك في حرب جرمانيا وغاليا حيث كان ضابطاً في الجيش الروماني، صاحب الإمبراطور " جوليان في حملته ضد الفرس، استقر بروما وكتب "التواريخ Histories - في 13 كتاباً لم يصلنا جلها، تمتد من عهد نرفا (Nerva) إلى عهد فالانس (Nalens) من سنة 96م إلى سنة 378م، وما وصلنا تلك الفترة التي عاشها من 352م إلى 378م.

- Dict. Univ. Hist. Géó, pp. 68- 69.

<sup>2</sup> Ammien Marcellin, XXII, 5

بطرق غير شرعية و تحول إلى رمز للاضطهاد في الأدبيات الدوناتية بحيث وصف بأشد المضطهدين عنفاً وفقاً للمصادر الدوناتية.<sup>1</sup>

وقد حاول الإمبراطور "فالنتيانوس الأول"\*(Valentinianus I) خلال تلك لفترة أن يوقف حملة رسائل الهجاء والقدح بين الكاثوليك والدوناتيين، بأن أصدر مرسومين إمبراطوريين ( de Famosis Libellis) في 20 فيفري 373م وجههما إلى بروقنصل إفريقيا "يوليانوس" (Julianus) و ينص المرسوم الأول على منع تطبيق التعميد الثاني، وينص الثاني على عزل كل أسقف ثبت أنه أعاد التعميد.<sup>2</sup>

شهد عهد الإمبراطور "غراتيان"\*(Gratianus) (375-383م) تصعيداً غير مسبوق في سياسة القمع ضد الدوناتيين، حيث تجلت سياسته في سلسلة من المراسيم القمعية المتتالية. ففي 22 أبريل 376م، أصدر قانوناً صارماً يأمر بمصادرة جميع أماكن تجمع الدوناتيين، مع تهديد واضح للمسؤولين المتساهلين بعقوبات شديدة<sup>3</sup> ثم أتبع ذلك بمرسوم أكثر تشدداً في 17 أكتوبر 377م، موجهاً إلى "نيكوماكوس فلافيانوس" (Nicomachus Flavianus) حاكم أفريقيا، والذي تضمن ثلاثة إجراءات جوهرية: مصادرة الممتلكات الواسعة (fundi) التي كانت تضم تجمعاتهم، ومنع ممارسة طقس إعادة التعميد الذي مثل أساس عقيدتهم، ونقل كنائسهم إلى السلطة الكاثوليكية.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> Ammien Marcellin, XXVIII, 6 ; Augustin (St.), Cont. Litter. Petil., III, 25, 29.

\*-فالنتيانوس الأول (375-321م) ، Flavius Valentinianus إمبراطور روماني (375-364م) ابن غراتيانوس كونت إفريقيا، أعلن أغسطس من طرف الجيش في نيقية Nicée ، منح لأخيه فالانس Valens الشرق واحتفظ هو بالغرب، عرف بوحشيته تجاه معارضيه، ترك ولدين هما "غراتيانوس" و"فالنتيان الثاني اللذان خلفاه بعد وفاته سنة 375م. هـ. آيدرس بل، المرجع السابق، ص Dict. Univ. Hist. Géol. p. 1934 . 218.

<sup>2</sup> Cod. Theod., IX, 34, 7- 8, d'après Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 44, 244- 245.

\*-غراتيانوس (359-833م): (م) إمبراطور روماني (383-375م)، ابن فالنتيانوس "الأول شارك والده في الحكم وهو ابن ثمان سنوات، ثم خلفه سنة 375م، قتله أحد ضباطه يدعى "ماكسيميانوس" سنة 383م في ليون ب'غاليا فرنسا حاي gin

- Dict. Univ. Hist.Géol. p. 787.

<sup>3</sup> Augustin (St.), Epist., 87, 8 ; 105, 2, 9 ; Cod. Theod., XVI, 5, 4 ; XVI, 6, 2.

<sup>4</sup> Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 47.

سعى الإمبراطور فالنتينيانوس وخلفاؤه من خلال سلسلة المراسيم الإمبراطورية إلى تحقيق هدفين رئيسيين: حماية الكنيسة الكاثوليكية من ناحية، وتفكيك الوحدة الدوناطية من ناحية أخرى. وقد أثمرت هذه السياسة بين عامي 375-378م عن ظهور انشقاق داخلي في صفوف الدوناطيين، تمثل في قيام الأسقف "روفاتوس" (Rogatus) - أسقف مدينة "كارتناي" (Cartennae) (تنس حالياً في موريطانيا القيصرية) - بقطع صلته بالكنيسة الدوناطية وتأسيس كنيسة جديد عرف بـ"الروقاتية" أو "حزب الروقانيين" \* (Pars Rogati).<sup>1</sup>

تشهد النقوش الجنائزية (Epitaphes) المنتشرة في مختلف أنحاء المغرب القديم على التنوع الكنسي الذي ميز تلك الفترة، حيث تكشف عن وجود شبكة من الكنائس الموازية للتيار الدوناتي الرئيسي. ويشير القديس أوغسطين إلى أن هذه الجماعات كانت تشكل خليطاً معقداً من الطوائف المحلية الصغيرة، لدرجة يصعب معها حصرها بدقة. وقد بلغ التشرذم داخل الكنيسة الدوناطية "الأرثوذكسية" حداً جعل أوغسطين يصفه بقوله: "انقسم الدوناتيون إلى ما لا نهاية، وتحولوا إلى مجموعة لا تحصى من الفرق في أفريقيا وحدها...".<sup>2</sup>

تُظهر النقوش الجنائزية المكتشفة في مدينة "ستيفيس" (Sitifis) دليلاً مادياً على التشرذم الذي أصاب الكنيسة الدوناطية، حيث عُثر على شهادة قبر تحمل عبارة (Pars Trigari) تشير إلى انشقاق "تريغاروس" (Trigarius) وتأسيسه لطائفة مستقلة. كما تُظهر عبارة (Pars Maximiani) الانقسام الذي قاده الأسقف الدوناتي المنشق "ماكسيميانوس".<sup>3</sup>

-\*\*الروقاتيون، انشقاق داخل الكنيسة الدوناطية تزعمه "روفاتوس Rogatus -أسقف مدينة كارتناي" Cartennae تنس " غرب مدينة الجزائر حالياً، بموريطانيا القيصرية حوالي سنة 370م، لكنه ظل محصوراً في أسقفية كارتناي وقد واجه هذا الانشقاق رد فعل قوي من طرف الخط الدوناتي الأرثوذكسي الذي كان يتزعمه "بارمينيانوس" الذي استغل ثورة "فيرموس" (375-372م) للقضاء عليهم. اختفت الروقاتية في بداية القرن الخامس الميلادي.

(.Gsell (S -(-Gsell (S ),Observations Géographiques, p. 13; Augustin (St.), Epist., XCIII; Martroye (F.), R.Q.H., t. 33, 1905, p. 11 ; Monceaux (P.), R.H.R., 1. 63, 1911. P. 187.

<sup>1</sup> Augustin (St.), Epist., 87, 10; 93, 1; 20, 21; Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 254.

<sup>2</sup> Augustin (St.), Contra. Epist. Parmen., XVIII, 37.

<sup>3</sup> Id., Epist., 93, 8, 24 ; Contra Cresconium, IV, 6, 7.

تمكنت الحركة الدوناتية من إعادة توحيد صفوفها وقمع الحركات الانفصالية داخلها، خاصة بعد تحالفها الاستراتيجي مع الثائر "فيرموس" (Firmus) عام 372م، مما مكنها من تعزيز سيطرتها على نوميديا ومناطق واسعة من المغرب القديم. وعلى الرغم من المرسوم الإمبراطوري الصادر في 17 أكتوبر 377م الذي أصدره الإمبراطور "غراتيانوس" والذي وجه بموجبه كاهن أفريقيا "نيكوماكوس فلافيانوس" (377-376م) بحظر ممارسة إعادة التعميد، إلا أن المفارقة تكمن في أن فلافيانوس نفسه أظهر تعاطفاً واضحاً مع الدوناتيين، حتى أنه اكتسب لقب "رجل حزب المنشقين"<sup>1</sup>.

في منعطف حاسم أواخر عام 378م، تصاعد الصراع الكنسي عندما تقدم مجمع روماني بعريضة احتجاج ضد "كلوديانوس" (Claudianus)\*، الأسقف الدوناتى لروما\*\* وقد استجاب الإمبراطوران "فالنتيانوس الثاني" و"غراتيانوس" (Gratianus) بإصدار مرسوم يقضي بنفيه، بناءً على توجيهات "أكيلينوس" كاهن أفريقيا وكان كلوديانوس - الذي يُعتبر من أبرز خصوم البابا

<sup>1</sup> Id., Epist., 87, 8 ; 105, 2,9 ; Cod. Theod., XVI, 6, 2.

، أسس في Claudianiste "، ، أسقف دوناتي ورئيس طائفة عرفت باسمه "الكلوديانين Claudinus كلوديانوس\* - قرطاجة بعد عودته من روما، كنيسة متميزة في أواخر القرن الرابع الميلادي حوالي 380م، وحسب أوغسطين فإن هذا الانشقاق لم يتعد - على ما يبدو - مدينة قرطاجة، ولم يعمر إلا بضعة سنوات، وفي سنة 392م في بداية أسقفية تصالح الكلوديانين مع الكنيسة الدوناتية وبذلك التحقوا بالخط الأرثوذكسي Primianus "بريميانوس الدوناتى. Augustin (St.), Contra Cresconium, IV, 9, 11 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 48, 129 ; R.H.R., t.LXIII, 1911, p. 189.

دوناتيين روما، كانوا يشكلون أهم مجموعة خارج إفريقيا رغم قتلهم، وقد عرفوا لدى الكاثوليك باسم\*\* -  
i ال أي الجيليون وكانوا يسمون أيضا الريفيون

كانوا يجتمعون في ضواحي روما على جبل صخري، في مغارة Spelunca ذات مدرجات محاطة بسياج، وقنعوا بهذا المصلى تحت الأرض وتجهيزات بدائية لمدة طويلة، ثم أصبحت لهم كنيسة فيما بعد في عهد القديس جيروم St. وكان أسقف هذه الكنيسة يعين من إفريقيا التي لم تلعب أي دور إلا في عهد أسقفية "كلوديانوس، لكن i نفيه، دخلت طي النسيان بالرغم من أنها استمرت قرابة قرن من الزمن من أواخر القرن 4م إلى أواخر القرن 5م.

- Optat (St.), II, 4 ; Augustin (St.), Epist., L III. 1, 2 ; Contra Cresconium, III, 34, 38 ;

tren esel كان للدوناتيين أسقف بروما يعينونه هناك، وكان أولهم الاون ي الذي يكون قد حضر مناظرة قرطاجة سنة 411 م Félix ، وأخرهم فليكس Victor de Garbe غارب

- Monceaux (P.), l'église donatiste après Saint-Augustin, R.H.R., t. LXIII, 1911, p p. 182-

183 ; Id., H.L.A.C., IV, p. 124.)

"داماسوس" (Damasus)<sup>1</sup> - قد عاد لاحقاً إلى قرطاجنة حيث أشعل فتيل انشقاق جديد داخل الصفوف الدوناتيية نفسها.<sup>2</sup>

شهدت العقود الأخيرة من القرن الرابع الميلادي تشرذماً غير مسبوق في الحركة الدوناتيية، حيث تنامت الطوائف المنشقة إلى حدّ جعل القديس أوغسطين يصفها بأنها "كثيرة لا تُحصى"<sup>3</sup> وفي خضم هذه التحولات، برز المفكر "تيكونيوس"<sup>\*\*</sup> (Tyconius) كأحد أكثر الشخصيات إثارة للجدل، حيث أثار ضجة كبيرة بين عامي 370-375م عبر نشر كتابين ثوريين هاجم فيهما العديد من المبادئ الدوناتيية الأساسية، بل وذهب إلى حد الإقرار بصحة بعض مواقف الكنيسة الكاثوليكية<sup>4</sup> ولم يكن رد فعل القيادة الدوناتيية متساهلاً، إذ عقدت مجمعاً خاصاً عام 380م أصدرت خلاله قراراً قاسياً بطرد تيكونيوس وتكفيره، مما اضطره لقضاء ما تبقى من حياته في عزلة قسرية.<sup>5</sup>

سعى بارمانيانوس جاثليق قرطاجنة وقائد الكنيسة الدوناتيية لأربعة عقود، لاحتواء الأزمة التي أثارها تيكونيوس فأرسل إليه رسالة تفنيدية أواخر عام 378م في محاولة لإرجاع هذا "المتهور المغامر"

<sup>1</sup>- داماس Damasus هو البابا داماس الأول، ولد في البرتغال، انتخب على رأس البابوية من سنة 366م إلى سنة 384م، عقد العديد من المجمع ضد الأريوسية، يحتمل أنه من أصول إسبانية، كلفه القديس جيروم بترجمة الإنجيل فعرفت بالترجمة اللاتينية للكتاب المقدس، ترك بعض الأشعار المسيحية والكتابات اللاهوتية، توفي سنة 384م. - (1.), l'empire chrétien, Dict. Univ. Hist.Géo, p. 493 ; Pignaniol, p. 412.

<sup>2</sup> Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 124, 245

<sup>3</sup> Augustin (St.), Epist, 93, 8, 25 ; Contra. Epist. Parmen., III, 4, 24.

<sup>\*\*</sup>- تيكونيوس Tyconius ، أحد كبار الفقهاء الدوناتيين، ألف عدة كتب وصلنا بعضها، منها كتاب "في الحرب الداخلية De Bello intestino" كتبه في حوالي 370م، وكتاباً آخر في حوالي 375م "عرض فيه مختلف القضايا" ورد عليه بارمانيانوس سنة 378م، وبالرغم من حرمانه وطرده من الكنيسة الدوناتيية بموجب قرار صدر عن مجمع دوناتي سنة 380م، إلا أنه لم يلتحق بالكنيسة الكاثوليكية، وأصدر كتاب القواعد Liber regularum حوالي سنة 382م تناول مناهج تفسير الكتاب المقدس Exégèse ، ويبدو أن تيكونيوس كان له تأثير كبير على القديس أوغسطين وعلى المفكرين المسيحيين اللاحقين خلال العصور الوسطى بأوروبا، خاصة أنه كان يرى أن الدوناتيين كانوا مخطئين في قضية إعادة التعميد، وفي اعتبار كنستهم كنيسة القديسين والأطهار.

- Monceaux (P.), H.L.A.C., V, pp. 219 ; Martroye (F.), une tentative de révolution sociale., R. Q.H, T. 33, 1905, p. 12.

<sup>4</sup> Augustin (St.), Epist., 93, 8 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 49.

<sup>5</sup> Augustin (St.), Contra Epist. Parmen., I, 1 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., V, pp. 170-171 ;

Brisson (J.P.), Op.cit., p. 198- 199.

## الفصل الثالث : الانشقاق الكنسي في بلاد المغرب القديم

- كما وصفه أوغسطين - إلى حظيرة الكنيسة. (3) غير أن تيكونيوس أصرّ على موقفه الرفض، مما دفع المجمع الدوناتي حوالي عام 380 م إلى إصدار حكم نهائي بطرده وتكفيره رسمياً، منهياً بذلك علاقته بكنيسة دوناتوس الكبرى. (4)

يبدو أن "تيكونيوس" أسس طائفة قوية لكن انشقاقه زال في فترة قصيرة، لذلك انصرف - بما أنه فقيه ولاهوتي - إلى تفسير وشرح الكتاب المقدس..

في تلك الفترة، ظهرت طوائف ونحل محلية أخرى، مثل طائفة "أوريانيس" \* (Urbanenses) <sup>1</sup> وطائفة "الأرزوج" \*\* (Arzuges) <sup>2</sup> في مقاطعة الطرابلسية (Tripolitana) ومناطق جنوب بيزاكينا (Byzacena) <sup>3</sup> - جنوب تونس حالياً - إلا أن المعلومات المتاحة عنها تظل قليلة وغير كافية لتزويد الباحثين بمعرفة شاملة عنها.

وفي نفس الفترة، تحديداً أواخر القرن الرابع الميلادي مع صعود الإمبراطور "ثيودوسيوس" <sup>4</sup> الأول (Theodosius 1<sup>er</sup>) إلى الحكم عام 379م، تزايدت المراسيم الإمبراطورية ضد

<sup>1</sup> - \* الأوربانيون Urbanenses، إنشقاق ظهر في أحد أقاليم نوميديا لا تتوفر عنه إلا إشارة واحدة عند القدم أوغسطين الذي قال: «... والأوربانيين في ناحية من نواحي نوميديا، وغيرهم...» .

Augustin (St.), Contra. Cresconium, LX, 73; Epist. Parm., 1, XI, 17; Brisson (J.P.), . Op.cit., p. 222

<sup>2</sup> - \*\*الأرزوج Arzuges، منطقة يصعب تحديدها نظراً لعدم دقة المصادر، وحسب ش. كورتوا Ch. Courtois أن النص الأصلي هو النص الذي أورده بول أوروبوز P. Orose وذكر فيه أن الكلمة كانت تطلق على سكان الإقليم الطرابلي Tripolitana، وحسب بريسون Brisson على القبائل المنتشرة على طول خط الليمس Limes، وحسب إشارات أوردها أوغسطين فإن هناك حياة مسيحية في إقليم كنسي هو Arugitana الذي ورد ذكره في وثائق كنسية تعود إلى القرن الرابع الميلادي ووجود انشقاق في صفوف الدوناتيين في ذلك الإقليم.

Orose (P.), Adversus Paganos, 1, 2, 90. (C.S.E.L., V. pp. 32-33) ; Brisson (J.P.), ;Op.cit., p. 222

<sup>3</sup> ويرفض ديسانج - على عكس كورتوا- أن تكون تسمية الأزوج قد وصلتنا على شكل "المازيك" التي هي قبيلة من قبائل الشطوط في جنوب براكينا- Byzacena في الجنوب التونسي حالياً، إذ يصعب تفسير اختفاء حرف "الميم"، وإذا اعتبرنا ذلك أقرب إلى الصواب نلمس تقارباً بين الكلمتين "أرزوج" و "زازيك".

Desanges (1.), Catalogue des Tribus africaines de l'antiquité classique à l'ouest du Nil, Dakar, 1962, pp. 78- 80

<sup>4</sup> - \*\*\* ثيودوسيوس (395م-346م)، (Theodosius fer) إمبراطور روماني (379-395م) من مواليد كوكا Cauca بسبانيا، هو ابن الكونت ثيودون سنة 376م، جعل من المسيحية ديانة الدولة الرسمية سنة 380م، منع كل الطقوس الوثنية، بعد وفاته في 15 جانفي 395م بميلانو قسمت الإمبراطورية بين ولديه هونوريوس إمبراطور الغرب، وأركاديوس إمبراطور الشرق، أعطى اسمه للقانون التيبودوزي (438م-435م) Code Théodosien والذي جمع فيه كل المراسيم والقوانين الإمبراطورية منذ عهد قسطنطين. Dict. Univ. Hist- Géo. P. 1863-

## الفصل الثالث : الانشقاق الكنسي في بلاد المغرب القديم

المنشقين، حيث شن حملة قوية ضد الهرطقات. وتصاعدت حدة القوانين المضادة للانشقاق عامًا بعد عام، ففي<sup>1</sup> أغسطس 379م، أصدر ثيودوسيوس مرسومًا يحظر جميع البدع والفرق الدينية، ويُجرّم على المنشقين الدعوة أو التبشير بمذاهبهم، كما منع إعادة التعميد وعقد الاجتماعات الدينية غير المرخصة.

شهد العصر الثيودوسي تصاعدًا في سياسة فرض الأرثوذكسية الكاثوليكية وقمع المعارضة الدينية، حيث بدأ بمرسوم 380م الذي أعلن المسيحية النيقية ديناً رسمياً للإمبراطورية. ثم تطورت الإجراءات إلى مصادرة ممتلكات المنشقين عام 381م. وفي منعطف حاسم عام 386م، تحولت السياسة إلى قمع فكري وسياسي عبر تجريم النقد الديني (19 يناير) ثم فرض عقوبة الإعدام على المساس بسلطة الكنيسة أو الإمبراطور (23 يناير)، مما مثل ذروة في توحيد السلطتين الدينية والدنيوية تحت هيمنة الدولة الثيودوسية.<sup>2</sup>

يبدو أن المنشقين الأفارقة في تلك الفترة لم يلقوا بالألأ لهذه المراسيم الإمبراطورية. ففي رد فعل مباشر على مجمع روما (6 يناير 386م) الذي حظر إعادة التعميد، أصدرت الكنيسة المنشقة وثيقة (Forma) تنص صراحة على إعادة تعميد كل كاثوليكي ينضم إلى الكنيسة الدوناتية، في تحدٍ واضح للسلطة المركزية وقد أقر هذا المرسوم وأكدته عدة مجامع دوناتية عقدت بين 386م و392م. ومع ذلك استمر صدور المراسيم الإمبراطورية، ففي 16 يونيو 388م صدر مرسوم يمنع مناقشة العقيدة في الأماكن العامة ويحكم بالإعدام على المخالفين<sup>3</sup> وفي 26 نوفمبر 389م صدر مرسوم آخر يحظر عقد الاجتماعات الكنسية<sup>4</sup> (conciliala) لقد خاب أمل الكاثوليك الأفارقة عندما لاحظوا تزايد الطوائف المنشقة، خاصة بعد فشل مجمع قرطاجنة المنعقد في 16 يونيو 390م في إصدار أي قرارات أو تشريعات تستهدف تلك الطوائف.<sup>5</sup>

<sup>1</sup> Cod. Theod., XVI, 5,5.

<sup>2</sup> Cod. Theod., XVI, 1, 2 ; 1, 3 ; 34, 9.

<sup>3</sup> Augustin (St.), Epist., 23, 3, 5 ; Cod. Theod., XVI, 5, 5 ; 6, 1-2

<sup>4</sup> Monceaux (P.), H.L.A. C., IV, p. 50

<sup>5</sup> Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 51

لقد حاول الأسقف "جنثليوس" (Genethlius)، رئيس مجمع قرطاجنة ورأس الكنيسة الأفريقية، بكل جهده منع السلطات المدنية من تنفيذ هذه المراسيم القمعية. إلا أن الإمبراطور واصل سياسة القمع، فأصدر في 19 مايو 391م مرسوماً يؤكد على قراره السابق الصادر عام 389م بمنع اجتماعات المنشقين.<sup>1</sup> وتوجت هذه الإجراءات المتصاعدة بإصدار الإمبراطور "ثيودوسيوس الأول" قانوناً جديداً في 15 يونيو 392م، فرض بموجبه غرامة مالية ثقيلة قدرها عشر ليرات ذهبية على رجال الدين التابعين للكنيسة الدوناتية.<sup>2</sup>

على الرغم من أن هذه المراسيم الإمبراطورية صدرت ليطبقها جميع رعايا الإمبراطورية نظرياً، إلا أن هناك فجوة واضحة بين التنظير والتطبيق. فمدى تنفيذ هذه القوانين كان يعتمد بشكل كبير على الظروف المحلية والمواقف الشخصية لحكام المقاطعات و في البداية، لم يُصنف الدوناتيون كهراطقة بل مجرد منشقين. ولكن مع تصاعد الصراع بين الكنيسة الرسمية والكنيسة الدوناتية، ووصوله إلى مرحلة العنف المتبادل، تحولت نظرة السلطة للدوناتية من مجرد انشقاق إلى بدعة وهرطقة تستوجب القمع.<sup>3</sup>

وهكذا امتد نفوذ الحركة الدوناتية وتشعبت فروعها عبر مقاطعات البروقنصلية وبيزاكينا والطرابلسية والموريطانيتين، مستفيدةً من الظروف السياسية والدينية السائدة. وقد استطاعت أن تقف نداءً للكنيسة الكاثوليكية في مختلف أنحاء المغرب القديم، لكنها سيطرت بشكل خاص على نوميديا حيث حظيت بتأييد شعبي واسع في المدن الرئيسية مثل هييون (Hippôe) وبغاي - المعقل الرئيسي للدوناتية - حتى أن الأسقف الكاثوليكي كان يجد معارضة شديدة في بعض المناطق . وبينما كانت الكنيسة الدوناتية تتقدم بثبات سنة بعد أخرى، كانت الكنيسة الكاثوليكية تتراجع

<sup>1</sup> Cod. Theod., XVI, 5, 20

<sup>2</sup> Cod. Theod., XVI, 5, 21; Augustin (St.), Cont. Litter. Petil., II. 83 ; Cont. Epist. Parmen, 1, 12, 19 ; Benoist (Stephane), Mémoire et Histoire, les procédures de condamnation dans l'Antiquité Romaine, C.R. U., Metz, 2007, p.226

<sup>3</sup> Optat (St.). I, 10, 12: Augustin (St.). Epist, 43. 1 : Cod. Theod.. XVI. 6. 4

بشكل ملحوظ، لدرجة أن منطقة المغرب القديم كادت تصبح دوناتية بالكامل قبل عام 392م، وهو العام الذي شهد بداية مشاركة القديس أوغسطين في هذا الصراع الديني.

### المرحلة الثالثة: مرحلة الانقسام والمواجهة في عصر أوغسطين (392-430م)

حافظت الحركة الدوناتية على تماسكها وقوتها طوال ثمانين عامًا، متحديّة الكنيسة الكاثوليكية المدعومة من السلطة الرومانية، وقاومت كل محاولات القضاء عليها. استمر هذا الصمود منذ انتخاب الأسقف "ماجورينوس" (Majorinus) خلفًا لـ "مونسوريوس" (Mensurius) عام 312م، وحتى عام 392م، الذي شهد حدثين محوريين في المغرب القديم:

أولاً: وفاة زعمي الكنيسة الكنيستين وفاة "جنثليوس"<sup>1\*</sup> (Genethlius)، أسقف قرطاجنة الكاثوليكي، وخلفه "أوريليوس" (Aurelius) و وفاة "بارمينيانوس" (Parmenianus)، الزعيم الدوناتى الذي قاد الكنيسة المنشقة وأعاد تنظيمها على مدى أربعين عامًا. (2) ثانياً: صعود أوغسطين بتعيين "القديس أوغسطين" أسقفًا على "هيبو ريجوس" (Hippo Regius) (عناية حاليًا)، (3) حيث قاد حملة شرسة ضد الدوناتيين، مستخدمًا كل الوسائل — بما في ذلك شرعنة القوة — لإجبارهم على العودة إلى الكنيسة الكاثوليكية. (4)

دعا القديس أوغسطين إلى استخدام "الإرهاب المقدس" من قبل السلطة الزمنية لإجبار الدوناتيين على العودة إلى الكنيسة الكاثوليكية، مستنداً إلى مقولة المسيح (عليه السلام): " ادفعوهم إلى دين الله دفعا " (Compelle Intrare).<sup>5</sup> وعندما رفض الدوناتيون حضور مناظرة قرطاجنة

<sup>1\*</sup> -جنثليوس Genethlius، أسقف كنيسة قرطاجنة الكاثوليكية في حوالي 390م، وخلفه "أوريليوس" الذي كان في البداية شماساً في كنيسة قرطاجنة في سنة 388م في فترة عودة القديس أوغسطين إلى إفريقيا، ثم عين في أواخر سنة 392م أسقفاً لنفس الكنيسة، وترأس مجمع هيبون، توفي سنة 392م. ;

Augustin (S1.), Epist., XLIV. 5, 12 ; XXII ; Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne..., p - 5.

<sup>2</sup> Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.337

<sup>3</sup> منصورى خديجة، المرجع السابق، ص 45

<sup>4</sup> شنييتي محمد الشير، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، المرجع السابق، ص 300

<sup>5</sup> -Julien (Ch.A.), Op.cit., Pp. 226-227.

سنة 411م - التي أمر الإمبراطور هونوريوس بعقدتها بين الكاثوليك والدوناتيين - لم يحضروها إلا مكرهين تحت التهديد.

وساهمت هذه المناظرة في تطوير الجدل اللاهوتي بين مفكري الكنيستين، وبرز شخصيات بارزة من الجانبين، لعب بعضها أدواراً محورية في تطور الفكر المسيحي ككل، وعلى رأسهم "القديس أوغسطين<sup>1</sup> والفقيه الدوناتى "تيكونيوس"\*.

تشكل هذه المناظرة حدثاً محورياً في تاريخ المسيحية بالمغرب القديم، غير أن الدوناتيين - الذين خبروا صراعات سابقة مع الكنيسة الكاثوليكية والسلطة الزمنية التي أصدرت بحقهم سلسلة من القوانين القمعية - لم يبدوا حماساً للمشاركة فيها. وقد أدركوا أن هذه المحاولة الجديدة تمثل استمراراً للسياسة التقليدية ذاتها، خاصة مع علمهم بأن رئيس الجلسة سيكون كاثوليكياً. رغم ذلك، قرروا خوض غمار هذه التجربة بعد تأكيدات "ماركيلينوس" (Marcellinus) بحياده ونزاهته.<sup>2</sup> استمرت التحضيرات للمناظرة ستة أشهر<sup>3</sup> كاملة، من تاريخ إصدار المحافظ "ماركيلينوس" أول مرسوم يدعو للمناظرة في 19 يناير 411م، وحتى انعقادها الفعلي في 1 يونيو 411م.<sup>4</sup> ولإغراء الدوناتيين بالمشاركة، اتبع المحافظ الإمبراطوري سياسة الترغيب، حيث وعد بإعادة الكنائس والممتلكات المصادرة لكل الأساقفة المنشقين الذين يوافقون على حضور المناظرة.<sup>5</sup>

<sup>1</sup> دفعت المساجلة الكلامية مع الدوناتيين "أوغسطين" إلى إعادة التفكير في مشكل الكنيسة والأسرار. عن هذا الجانب اللاهوتي يمكن الرجوع إلى المقدمة التي وضعها "كونغار" لكتاب أوغسطين "عن الدوناتية".

-Brisson J.P.), Op.cit., P. 84

\*- تيكونيوس Tyconius بعد فقيه دوناتي من الشخصيات الدوناتية التي كان لها تأثير على الفكر اللاهوتي المسيحي، الذي انفصل عن الدوناتيين، لكنه لم يلتحق بالكاثوليك، والذي كان له تأثير على القديس "أوغسطين

- Congar (Y.M.J.), Note complémentaire n° 10, « Parmenianus et Tyconius », B.A., - 28, p. 718.

<sup>3</sup> تبدأ هذه المدة من صدور المرسوم الذي أعلنه "ماركيلينوس" في 19 جانفي 411م إلى 1 جوان 411م تاريخ انعقاد المناظرة، وكانت هذه الفترة حافلة بالأحداث: كنعين مساعدي رئيس المؤتمر، واستقبال الوفود المشاركة، وانتخاب المندوبين، وتوجيه العرائض والرسائل إلى المحافظ الإمبراطوري "ماركيلينوس". وفي 18 ماي دخل الأساقفة الدوناتيين قرطاج في موكب رسمي، كما حضر الأساقفة الكاثوليك، وفي 20 ماي أصدر "ماركيلينوس" مرسوم ثان يحدد فيه مكان انعقاد المؤتمر وتاريخه والإجراءات المتعلقة بالمناظرة، وفي 25 ماي اجتمع الأساقفة الدوناتيين وحرروا عريضة أرسلت إلى رئيس المؤتمر إجابة على المرسوم الثاني تضمنت بعض التحفظات، ثم انتخبوا مندوبيهم - وأبلغوهم التعليمات. (Mandatum).

.Augustin (St.), Brevic. Collat., I, 3,4,5,7; Epist.,CXXVIII, 2-

<sup>4</sup> Augustin (St.), Brevic. Collat., I, 1.

<sup>5</sup> Augustin (St.), Brevic. Collat., I, 2; II, 3.

يبدو أن جهود المحافظ أثمرت، حيث تراجع "بريميانوس" (Primianus) - الزعيم الدوناتي المتشدد - عن موقفه الرفض، وأصدر تعليماته لكل الأساقفة الدوناتيين بالمشاركة في المناظرة وقد أظهرت خريطة التمثيل الكنسي تقارباً في توزيع ممثلي الكنيستين الكاثوليكية والدوناتية من مختلف المقاطعات وانطلقت فعاليات المؤتمر رسمياً في 1 يونيو 411م بمدينة قرطاجنة.<sup>2</sup>

يذكر القديس أوغسطين في مؤلفه "ملخص محضر المناظرة مع الدوناتيين"<sup>3</sup> (Breviculus collationis cum Donatistis) أن المؤتمر ترأسه السيناتور ماركيلينوس، بمساعدة فريق من المحضرين القضائيين والكتبة، وممثلي الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية. عقد المؤتمر<sup>4</sup> ثلاث جلسات بين 1 و8 يونيو 411م، انتهت بإدانة صريحة للدوناتية. وبعد هذه الإدانة النظرية، أصدر المحافظ الإمبراطوري ماركيلينوس - بناءً على تعليمات الإمبراطور هونوريوس - مرسوماً في 26 يونيو 411م يقضي بحظر الدوناتية وإلغائها رسمياً، ونُشر هذا المرسوم في قرطاجنة.<sup>5</sup> رداً على ذلك، حاول الدوناتيون تأخير تنفيذ الحكم عبر نشر المقالات النقدية وخطب الوعظ، كما شنوا حملة ضد الكاثوليك و ضد رئيس المؤتمر ماركيلينوس، متهمين إياه بالرشوة والتحيز والمحاباة.

<sup>1</sup> لما كان محضر مناظرة قرطاجنة الذي كتب وقائعه قاضي المؤتمر "ماركيلينوس" طويلاً، فقد سهر أوغسطين على تلخيصه لتسهيل قراءته وتوجيه الرأي العام، ويعد الكتاب مصدراً هاماً لمعرفة وقائع جلسات المؤتمر. وقد كتبه بعد انتهاء المناظرة في سنة 411م.

<sup>2</sup> انعقد المؤتمر في قاعة واسعة وفاخرة في مدينة قرطاجنة تعرف باسم (Thermae Gargiliane) ويبدو من اسمها أنها كانت منطقة غنية بالحمامات المعدن.

- Augustin (St.), Brevic. Collat., I, 14.

<sup>3</sup> دار نقاش حاد بين الكاثوليك والدوناتيين استمر مدة ثمانية أيام (8-1 جوان 411م) في ثلاث جلسات وتتلخص أهم محاور هذا النقاش في الآتي: أصحة أو بطلان التهم الموجهة إلى الأساقفة الكاثوليك والتي تتعلق بالتخاذل والضعف أثناء فترة الإضطهاد الكبرى في عهد ديوكليتيانوس (303-304م) (Diocletianus) وقضية الارتداد وتسليم الكتب والأواني المقدسة.

ب- أين توجد الكنيسة الحقيقية؟ هل هي الكنيسة الدوناتية أو الكنيسة الكاثوليكية؟ ج- احتجاج ممثلي الكنيسة الدوناتية على اضطهاد السلطة الزمنية لهم. د- احتجاج ممثلي الكنيسة الدوناتية على العرائض التي تقدم بها الكاثوليك ودعم السلطة السياسية لهم.

Actes de la conférence de Carthage en 411, édition de Serge Lancel, Tome III, - Paris, Sources chrétiennes, 1972-1975, pP.929, 997.

<sup>4</sup> Augustin (St.), Brevic. Collat., II, 2, 2.

<sup>5</sup> Augustin (St.), Epist., CXLII, 12; Brevic. Collat., II, 18,



الخريطة رقم 2:

نقلا عن :

- Morizot (P.), Nasraoui (A.), A propos des ruines de la vallée de Mellagou (Aurès, Algérie). Les vestiges chrétiens de Bâinou et la mosaïque découverte à Bouzouamel, C.R.A.I., 145e année, n°2, 2001, pp. 877-892.), p.887.

### المرحلة الرابعة: مرحلة الضعف والزوال (430م-533م)

لقد نجحت الحركة الدوناتية في توسيع نطاق انتشارها، حيث امتدت من نوميديا لتشمل البروقنصلية وبيزاكينا والطرابلسية شرقاً، ووصلت حتى الدوريطانية غرباً. واستغلت الظروف السياسية والدينية السائدة لتعزيز وجودها، فتمكنت من مواجهة الكنيسة الكاثوليكية على قدم المساواة. غير أن نوميديا ظلت المعقل الأقوى للدوناتية، حيث سيطرت الحركة على المراكز الحضرية الرئيسية مثل هيبو ريجيوس (عنابة حالياً) وبغاي، التي أصبحت معقلاً دوناتياً بامتياز. بلغ التأيد الشعبي للدوناتيين حداً جعل الأسقف الدوناتي لا يلقى معارضة تذكر في بعض المناطق. وخلال هذه الفترة، شهدت الكنيسة

الدوناتية تقدماً مطرداً سنة بعد أخرى، بينما تراجعت الكنيسة الكاثوليكية تراجعاً ملحوظاً، لدرجة أن المغرب القديم كاد يصبح دوناتياً بالكامل قبل تدخل القديس أوغسطين في المشهد. ساهم الغزو الوندالي للمغرب عام 439م بشكل غير مباشر في إحياء الحركة الدوناتية، حيث أدى إلى إضعاف السلطة الرومانية التي كانت تشكل العدو الرئيسي للدوناتيين، كما عرض الكنيسة الكاثوليكية نفسها لموجة اضطهاد جديدة تحت حكم الوندال\*<sup>1</sup>. وهكذا، وجدت الحركة الدوناتية - التي كانت على وشك الاندثار تحت الضغط الروماني - فرصة جديدة للتنفس والاستمرار في ظل الأوضاع السياسية والدينية المتغيرة، حيث تحولت من حركة مضطهدة إلى حركة وجدت متنفساً في ظل ضعف خصومها التقليديين.

غير أن الانشقاق الدوناتي اختفى نهائياً من التاريخ سنة 598م، بعد ثلاثة قرون من الوجود والمقاومة. ويعود هذا الزوال المفاجئ في أواخر القرن السادس الميلادي إلى سببين رئيسيين: أولاً: غياب أي ذكر للدوناتيين في مراسلات البابا غريغوار الأكبر\*\*<sup>2</sup> خلال السنوات الست الأخيرة من حبريته (598-604م)، مما يشير إلى تراجع نشاطهم في نهاية القرن السادس، ثانياً: عدم وجود معلومات واضحة عن وضعهم بين 590-598م، رغم سيطرتهم المعروفة على أجزاء من نوميديا حتى مطلع القرن السابع. ويبدو أن المصادر التاريخية توقفت فجأة عن الإشارة إليهم، إما لانقراضهم الفعلي أو لتجاهل المؤرخين لهم.

تشير بعض الأدلة التاريخية إلى أن التأثير الدوناتي استمر بشكل محدود حتى الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا في منتصف القرن السابع الميلادي، حيث وثق المؤرخون وجود جماعات محلية لا تزال تحتفظ

<sup>1</sup> - \* الوندال Vandali، اسم مشتق من "Wendes" أو "Vendel" وهو اسم قرية سويدية في أوبلاند قد تكون الموطن الأصلي للوندال حسب ما ذكره كورتوا. وهم شعب جرمانى كان سكن ما بين نهرى الفستولا(Vistule) والأودر (Oder) في بولونيا حالياً، على ضفاف بحر البلطيق خلال القرن الثاني الميلاد

-Evagre, Histoire Ecclésiastique, trad. M. Cousin, Paris, 1686, IV, 16; Courtois (Chr.), les Vandales et l'Afrique, Paris, 1955, pp. 15-19.

<sup>2</sup> - \*\*غريغوار الأكبر، (540م-604م) ولد في روما، انتخب بابا سنة 590م، حينما غزا اللومبارديون إيطاليا ووقع اتفاقية مشرفة معهم وتنصير بعضهم، ساهم في إلغاء الرق، واهتداء بريطانيا والأريوسيين، أتم بحرق الكتب المدنسة ومعابد الوثنيين، ترك العديد من الكتابات، المتعلقة بطقوس وشعائر العبادة في الديانة المسيحية. - Dict. Univ. Hist. Géo, p.792.

## الفصل الثالث : الانشقاق الكنسي في بلاد المغرب القديم

---

ببعض الممارسات والعقائد الدونانية عند وصول الفاتحين المسلمين. ويُعزى هذا الاستمرار إلى عدة عوامل أهمها: عمق التأثير الاجتماعي للحركة في المناطق النوميديّة، وقدرة التقاليد الدينية على الصمود رغم انهيار البنى المؤسسية، فضلاً عن طبيعة المجتمع المغربي القديم الذي تميز بالتمسك بالهوية المحلية في مواجهة السلطات المركزية. ويظل مدى انتشار هذه البقايا الدونانية ودرجة تنظيمها موضوعاً مفتوحاً للبحث التاريخي، خاصة في ظل ندرة المصادر التي تتناول هذه الفترة الانتقالية الحاسمة في تاريخ المنطقة.

# خاتمة

---

خاتمة:

سلطت هذه الدراسة على مبادئ المسيحية بين المنصوص و الظاهر في بلاد المغرب القديم وقد تمكنت من الوصول إلى بيض النتائج و التي تتمثل فيما يلي:

1- يُعدّ الفرق بين مصطلحي "التوراة والإنجيل" و"العهد القديم والعهد الجديد" فرقاً جوهرياً من حيث المحتوى والتصنيف. فالعهد القديم - الذي يضم بين 39 إلى 46 سفرًا حسب المذاهب المسيحية المختلفة - يتضمن التوراة كجزء منه، حيث تشير التوراة تحديداً إلى الأسفار الخمسة المنسوبة لموسى عليه السلام. أما العهد الجديد فيتألف من 27 سفرًا، تشمل أربعة أناجيل (متى، مرقس، لوقا، يوحنا) التي تسرد سيرة المسيح وتعاليمه، دون أن تمثل الإنجيل الأصلي المنزل من عند الله وفق العقيدة الإسلامية. وهكذا يبرز الفرق بين المفهومين: فبينما يشير المصطلح الأول إلى النصوص المقدسة الأصلية في الديانتين اليهودية والمسيحية، فإن المصطلح الثاني يعكس التقسيم اللاهوتي المسيحي للأسفار المقدسة بصورتها الحالية، والتي تختلف في تكوينها ومصادرها عن النصوص الأصلية التي تؤمن بها الأديان الإبراهيمية الأخرى.

2- يُميّز الباحثون بين "النصرانية" و"المسيحية" كديانتين مختلفتين في المنشأ والمضمون. فالنصرانية تمثل الديانة السماوية الأصلية التي أنزلها الله على عيسى عليه السلام، والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم كدين توحيدي خالص. أما المسيحية فهي المنظومة الدينية التي تطورت لاحقاً، حيث لعبت تعاليم بولس ومجامع الكنيسة الأولى دوراً محورياً في صياغة عقائدها، مما أدى إلى ظهور مفاهيم لاهوتية جديدة كالتثليث والعقيدة الفدائية. وبينما حافظت النصرانية على طابعها التوحيدي كما جاء في الوحي الإلهي، شهدت المسيحية تحولات عقائدية جذرية ابتعدت بها عن بعض الأسس الأصلية للدين المنزل على المسيح عليه السلام.

3- يُقسّم الكتاب المقدس في المسيحية إلى عهدين رئيسيين: العهد القديم والعهد الجديد الذي يُشكّل العمود الفقري للعقيدة المسيحية. ويتألف العهد الجديد من ثلاثة أقسام أساسية: الأسفار التاريخية وتشمل الأناجيل الأربعة (متى، مرقس، لوقا، يوحنا) التي تسرد حياة المسيح وتعاليمه، بالإضافة إلى سفر أعمال الرسل الذي يوثق نشأة الكنيسة الأولى. ثم الأسفار التعليمية المتمثلة في رسائل بولس الأربع عشرة والرسائل الجامعة السبع، التي تحتوي على التعاليم اللاهوتية والتوجيهات الروحية. وأخيراً الأسفار النبوية المتمثلة في سفر الرؤيا (رؤيا يوحنا)

الذي يحوي نبوءات عن نهاية الزمان. هذا التنظيم الثلاثي يجمع بين السرد التاريخي والتأمل اللاهوتي والرؤى المستقبلية، مشكلاً معاً الإطار العقائدي الذي تركز عليه المسيحية.

4- انتشرت المسيحية في المغرب القديم عبر عدة وسائل، منها تبشير الحواريين، أو عن طريق اليهود وغيرهم من العناصر الشرقية، أو عبر البعثات التبشيرية التي أرسلتها كنيسة روما لتنصير الولايات الرومانية في شمال إفريقيا، كما ساهم التجار في نشرها أيضاً. وقد وجدت الفئات الاجتماعية البسيطة، مثل العمال والفلاحين والعبيد، في المسيحية ملاذاً روحياً واجتماعياً، كما وجدت فيها إطاراً فكرياً ونفسياً ساعداً على مقاومة المجتمع الوثني الذي عارضها. على عكس الديانة الرومانية الرسمية، التي عززت النظام الطبقي والفوارق الاجتماعية، جاءت المسيحية لتمثل أملاً جديداً لهذه الفئات المهمشة.

5- تسببت السياسة الاقتصادية التي اتبعتها الإمبراطورية الرومانية بين القرنين الثاني والثالث الميلاديين في أضرار بالغة لأهالي المغرب القديم، حيث أدت إلى تركيز الثروة في يد طبقة الأغنياء والأرستقراطيين، الذين استغلوا نفوذهم السياسي لتعزيز تحالفهم مع السلطة الرومانية. وسيطرت هذه النخبة الثرية على مقدرات المجتمع، فاستغلت سكان المدن والأرياف، الذين كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة.

نتيجة لذلك، اتسعت الهوة الطبقية بين الفئتين، مما أشعل صراعاً اجتماعياً حاداً بين الفقراء والأغنياء. وقد تفاقم هذا الصراع بفعل العوامل الدينية، حيث وجد السكان المهمشون في المسيحية ملاذاً يعبر عن تطلعاتهم ويوفر لهم إطاراً للاحتجاج على النظام القائم. وهكذا، ساهمت هذه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في انتشار المسيحية بين أهالي المغرب القديم، كرد فعل على الظلم والاستغلال الذي مارسته النخبة الحاكمة.

6- ساهم تداخل عوامل اقتصادية واجتماعية ودينية في انتشار المسيحية وترسخها في المغرب القديم، رغم التحديات والعقبات التي واجهتها على مدى ثلاثة قرون، حتى اعتمدها الإمبراطور قسطنطين ديانةً رسميةً للإمبراطورية الرومانية مطلع القرن الرابع الميلادي.

وقد كان لهذه العوامل تأثيرٌ بالغ في تعزيز روح التكافل والتآخي بين المسيحيين، كما عمقت إيمان المظلومين والمضطهدين، فزادتهم صلابَةً في مواجهة السلطات الرومانية والوثنيين. وهكذا تحوّلت المسيحية من عقيدةٍ مضطهدةٍ إلى قوةٍ روحيةٍ واجتماعيةٍ موحّدةٍ، ساعدت في صمود أتباعها أمام الاضطهاد والتمييز.

7- شهد المسيحيون في المغرب القديم خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد موجات متتالية من الاضطهاد، بلغت ذروتها في حملة الإمبراطور ديوكليتيانوس (Diocletianus) (303-305م)، التي تُعد الأشد عنفاً في تاريخهم. ففي 23 فبراير 303م، أصدر قراره الإمبراطوري الأول الذي أمر بمصادرة الأناجيل وإحراقها، وهدم الكنائس، ومنع ممارسة الشعائر المسيحية، وذلك في أعقاب تمرد بعض عناصر الجيش.

ورغم تنازل ديوكليتيانوس عن العرش، استمرت حملات الاضطهاد حتى عام 311م، ووصلت حدّاً من القسوة كاد يقضي على الكنيسة الأفريقية بشكل تام. فقد استهدفت هذه الإجراءات القمعية أسس الوجود المسيحي في المنطقة، مما وضع المؤمنين أمام اختبار صعب لقوة إيمانهم وتمسكهم بعقيدتهم.

8- ظهرت المسيحية في شمال إفريقيا (المغرب القديم) كدعوة إلى المساواة والمحبة، خاصة بين الفئات المهمشة التي وجدت فيها تعبيراً عن تطلعاتها الروحية والاجتماعية. لكن الواقع كشف عن فجوة بين هذه المبادئ والممارسة الفعلية، حيث أدى الارتباط المبكر بين الدين والسلطة السياسية إلى تحويل المسيحية إلى أداة للهيمنة بعد تبني قسطنطين لها، مما أدى إلى تهميش المبادئ الروحية التي نادى إليها الإنجيل "محبة القريب" و"العدل"، استخدمتها الإمبراطورية الرومانية لاحقاً كأداة لتوحيد الشعوب تحت حكمها، مما أضعف الجانب الروحي الأصيل لدى بعض المؤمنين.

وظهرت الدوناتية كرد فعل لهذه السياسة الدينية الرومانية : حاول الدوناتيون تطبيق مبدأ "طهارة الكنيسة" بحذافيره، فرفضوا أي تواصل مع من اعتبروهم "خونة" (مقاطعة المصافحة، العزلة الاجتماعية). هذا يعكس محاولة حرفية لتطبيق النصوص الدينية، لكنها تحوّلت إلى تطرف.

9- يعود أصل الانقسام داخل الكنيسة الأفريقية في المغرب القديم إلى مطلع القرن الرابع الميلادي، حيث بدأت بوادره مع مجمع سيرتا عام 305م، ثم تجذر رسمياً بعد مجمع قرطاج عام 312م. وقد نشأ هذا الانشقاق أساساً حول شرعية انتخاب الأسقف كايكيليانوس (Caecilianus) خلفاً للأسقف مونسوريوس (Mensurius)، الذي أتهم بتسليم الكتب المقدسة للسلطات الرومانية الوثنية خلال فترة الاضطهاد الكبير في عهد الإمبراطور ديوكليتيانوس.

وتشكلت على إثر ذلك حركة دوناتية (Donatist) رفضت شرعية الكنيسة الكاثوليكية، ووصفت أتباعها بـ"كنيسة المتخاذلين" أو "حزب كايكيليانوس"، معتبرة أن الدوناتيين هم وحدهم الممثلون الحقيقيون للكنيسة

المسيحية الأصيلة. وقد تحول هذا الخلاف اللاهوتي والإداري إلى انشقاق عميق هزّ كيان المسيحية في شمال أفريقيا لقرون طويلة.

10- صدر قرار الإمبراطور ليسينيوس (Licinius) عام 311م بإنهاء الاضطهادات ضد المسيحيين، ورفع السيف عن رقابهم. غير أن الانقسام الذي شهدته الكنيسة الأفريقية عام 312م - بين الكنيسة الكاثوليكية والحركة الدوناتية المنشقة - دفع السلطة الرومانية إلى تأييد الكنيسة الكاثوليكية باعتبارها الممثل الشرعي للمسيحية، مما زاد من عداوة الدوناتيين تجاهها.

ثم جاء التحول المفصلي عام 313م، عندما اعتنق الإمبراطور قسطنطين (Constantin) المسيحية، فتحوّلت الكنيسة من مضطهدة إلى محمية بقوة القانون، بل وأصبحت حليفة للدولة الرومانية. وهكذا، انتقلت المسيحية من مرحلة الاضطهاد إلى مرحلة الدعم الرسمي، مما أحدث تحولاً جذرياً في وضعها ومكانتها داخل الإمبراطورية.

11- أحيى بارمنيانوس (Parmenianus) الحركة الدوناتية بعد انتخابه أسقفاً لقرطاج ورئيساً للأساقفة الدوناتيين عام 355م خلفاً لدوناتوس الكبير. وخلال فترة رئاسته التي امتدت 37 عاماً، نجح في إعادة تنظيم الكنيسة الدوناتية وتقويتها، مما أعاد لها نفوذها بعد فترة من التراجع.

وهكذا، مثّل بارمنيانوس مرحلة جديدة في تاريخ الدوناتية، حيث أعاد إحياء الحركة ووحد صفوف أتباعها، مؤكداً استمرارها كتيار منافس للكنيسة الكاثوليكية في شمال إفريقيا.

12- شددت السلطات الرومانية من إجراءاتها القمعية ضد الحركة الدوناتية المنشقة، حيث وضعت منظومة عقابية متدرجة تراعي الفروق الطبقية والاجتماعية. فكان رجال الدين الدوناتيون - من أساقفة وقساوسة - يواجهون عقوبات كالنفي إلى المناطق النائية والإبعاد القسري، بالإضافة إلى الغرامات المالية والعزل من مناصبهم. بينما تعرض العبيد والعمال الزراعيون (المعمرون) للعقاب الجسدي المباشر من قبل ملاك الأراضي. ولم تسلم حتى الطبقات الحاكمة المحلية من العقوبات، حيث فرضت غرامات مالية ثقيلة على الحكام الإمبراطوريين الذين يتقاعسون عن تطبيق هذه الإجراءات أو يتهاونون في الإبلاغ عن المنشقين. وقد كشفت هذه السياسة القمعية عن تصميم الإمبراطورية الرومانية على استئصال الحركة الدوناتية من جذورها، مستخدمة في ذلك كل أدوات الضغط الاجتماعي والاقتصادي المتاحة.

13- على مدار ثمانين عاماً (312-392م)، فشلت الإمبراطورية الرومانية في القضاء على الحركة الدوناتية رغم ما انتهجته من أساليب قمعية. بل تفاقمت الأوضاع مع نهاية القرن الرابع الميلادي، عندما تحالفت الدوناتية مع ثورة الريفيين والحركات الاحتجاجية الأخرى. ولمواجهة هذا التحدي المتصاعد، لجأت السلطات إلى استراتيجية جديدة تعتمد على الاختراق الداخلي وتفكيك الحركة من الداخل، فشجعت ظهور انشقاقات متعددة داخل الصف الدوناتى. وهكذا برزت تيارات منشقة مثل الماكسيميانين والروغاتييين والكلوديانيين، في محاولة لإضعاف التماسك الداخلي للدوناتية وإفراغها من قوتها.

غير أن هذه المحاولات أيضاً لم تنجح في القضاء النهائي على الحركة، التي ظلت تمثل تحدياً لسلطة الكنيسة الكاثوليكية والدولة الرومانية في شمال إفريقيا.

14- ارتبطت ظاهرة الاستشهاد عند الدوناتيين بممارسة دينية ذات أهمية كبرى، وهي تكريم الشهداء وتقديس رفاتهم، حيث أقاموا الأضرحة والكنائس تخليداً لذكراهم. إلا أن هذه الظاهرة لم تكن حكراً عليهم، بل شهدت انتشاراً واسعاً في أنحاء الإمبراطورية الرومانية بدءاً من القرن الرابع الميلادي، حيث تنافس المؤمنون على اقتناء رفات الشهداء ودفن موتاهم بالقرب من قبورهم طلباً للبركة.

15- غير أن هذه الممارسات اتخذت في المغرب القديم بُعداً أعمق، حيث تحولت إلى شكل من أشكال المقاومة السياسية والحضارية ضد الهيمنة الرومانية. فمن خلال تكريم الشهداء وتخليد ذكراهم، عبّر الدوناتيون وغيرهم من المسيحيين عن رفضهم للسلطة القائمة، محوّلين الأضرحة والمواقع الدينية إلى رموز للصمود والهوية المحلية في مواجهة الاستعمار الروماني. وهكذا، تجاوزت هذه الظاهرة طابعها الديني لتصبح أداة للاحتجاج الاجتماعي والسياسي.

16- شهدت الحركة الدوناتية توسعاً كبيراً وانتشاراً واسعاً في مختلف أرجاء شمال إفريقيا، حيث امتد نفوذها عبر مقاطعات البروقنصلية وبيزاكينا والطرابلسية والموريطانييتين وقد نجحت في مواجهة الكنيسة الكاثوليكية مباشرةً في معظم مناطق المغرب القديم، لكنها برزت بشكل خاص في نوميديا، حيث سيطرت سيطرةً كاملةً وحظيت بتأييد شعبي واسع.

ففي المدن الكبرى مثل هيبو ريجيوس (عنابة) وبارغاي (مقل الدوناتية الرئيسي)، تمكنت الحركة من كسب ولاء السكان إلى درجة أن الأسقف الدوناتى لم يكن يجد منافسين حقيقيين في بعض المناطق. وبقيت الحركة قويةً متماسكةً، تقف بصلابة في وجه الكنيسة الكاثوليكية المدعومة من السلطة الرومانية، مما أفشل كل المحاولات

الرامية إلى القضاء عليها، سواءً عبر القمع السياسي أو الضغوط الدينية. وهكذا، ظلت الدوناتية تمثل تحدياً مستمراً للهيمنة الرومانية-الكاثوليكية في المنطقة.

17- اتسمت مواقف الكنيسة الدوناتية بالمرونة والبراغماتية في تعاملها مع السلطة الزمنية، حيث تجنبت التطرف في التمسك بجميع مبادئها الأساسية. ففي سبيل كسب تأييد المعتنقين الجدد وتفادي الصدام المباشر مع الكنيسة الكاثوليكية والدولة الرومانية، تنازلت عن مبدأ رئيسي من مبادئها وهو إعادة تعميد المنشقين. غير أن هذا الموقف المعتدل للقيادة الدينية الدوناتية قابلته حركة متطرفة من أتباعها عُرفوا بالـ"دوارين"، الذين انتهجوا العنف والسطو والتهديد كوسائل لحماية المظلومين من استغلال الطبقة الحاكمة، مدّعين أنهم ينفذون إرادة "القديسين" ويحملون راية الكنيسة الدوناتية. وهكذا ظهر تناقض صارخ بين الاعتدال الرسمي للكنيسة الدوناتية وتطرف بعض فصائلها المنشقة.

18- حققت الحركة الدوناتية انتشاراً واسعاً في شمال أفريقيا الرومانية، مركزاً قوتها في نوميديا حيث سيطرت على مدن رئيسية مثل هيبو ريجيوس (عنابة) وبغاي. وعلى الرغم من اضطهاد السلطات الرومانية، استفادت الحركة من الغزو الوندالي عام 439م الذي أضعف خصومها. إلا أن الحركة شهدت تراجعاً مفاجئاً في نهاية القرن السادس الميلادي، حيث اختفت الإشارات التاريخية إليها بحلول عام 598م. تشير بعض الأدلة إلى استمرار تأثيرها المحدود حتى الفتح الإسلامي، رغم انهيار بنيتها التنظيمية، مما يعكس عمق جذورها في المجتمع النوميدي وتمسك السكان بالهوية المحلية.

19- الالتزام بالمبادئ الإنجيلية بين النظرية والتطبيق لم يُطبّق التعاليم المسيحية بنقاوتها بسبب تشوّه التطبيق حيث الكنيسة الرسمية تخلّت عن دورها الروحي لتصبح ذراعاً للإمبراطورية (مثال: إدانة الجنود المتمردين في مجمع آرل 324م). أما الدوناتيون حاولوا الالتزام الحرفي بالمبادئ، لكنهم حوّلوا إلى هوية مقاومة ضد روما، مما أفرغها من بعدها العالمي. الصراع بين "مسيحية الرومان" و"مسيشة الأفارقة" (الدوناتية) أثبت أن الظروف المحلية (الاحتلال، التراتبية الاجتماعية) شكّلت ديناً هجيناً يختلف عن النصوص التأسيسية. .

# قائمة المصادر و المراجع

---

أولاً - المصادر:

### 1. المصادر العربية:

1. ابن الأثير، علي بن محمد الجزري، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، دون تاريخ.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، 2001م.
3. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1977م.
4. ابن منظور، محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1955م.
5. الحميري، عبد المنعم بن عبد الرحمن، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1975م.

### 2. المصادر الأجنبية: (Sources)

- Tertullien, Apologétique, trad. par J. P. Waltzing, 2<sup>e</sup> éd., Librairie Bloud et Gay, Paris, 1914.
- Optatus de Milev, De Schismate Donatistarum, éd. Paris, 1912.
- Saint Augustin, Confessions, Contra Litteras Petiliani, Contra Cresconium, Epistolae.
- Victor de Vita, Historia Persecutionis Africae Provinciae, trad. S. Lancel, Les Belles Lettres, Paris, 2002.
- Eusèbe de Césarée, Histoire Ecclésiastique, trad. M. Cousin, Paris, 1686.
- Tacite, Annales, trad. J. L. Burnouf, Librairie Hachette, Paris, 1859.

## قائمة المصادر و المراجع

- Suétone, Vie des douze Césars, trad. M. Baudement, J. J. Dubochet, Paris, 1845.
- Strabon, Géographie, trad. Amédée Tardieu, Hachette, Paris, 1867.
- Théodoret, Histoire de l'Église, trad. Damien Foucault, Paris, 1686.
- The New Testament, The University Press, Cambridge, England.
- Tite Live, Histoire Romaine, trad. M. Nisard, Paris, 1869.

ثانيا - المراجع :

-المراجع العربية:

- أحمد علي عجيبة، تأثر المسيحية بالأديان الوضعية، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2005م.
- أتوج سوسة، ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، مطبعة أسعد، بغداد، 1978م.
- ياسر جبر، البيان الصحيح لدين المسيح، دار الخلفاء الراشدين، الإسكندرية، 2007م.
- إريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية بين التوحيد والتعددية، ترجمة حمود ماهر، مطبعة مدبولي، القاهرة،

د.ت

- المراجع الأجنبية:

- Monceaux (P.), Histoire Littéraire de l'Afrique chrétienne depuis les origines jusqu'à l'invasion Vandale, 7 tomes, Paris, Ernest Leroux, 1901-1923.
- Mesnage (J.P.), L'Afrique chrétienne, Évêchés et ruines antiques, Paris, Ernest Leroux, 1912.
- Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme dans l'Afrique Romaine, Paris, E. de Boccard, 1958.
- Martroye (F.), « Une tentative de révolution sociale en Afrique : Donatistes et Circoncillions », Revue des Questions Historiques, T. 32, 1904.

- Morizot (P.) & Nasraoui (A.), « A propos des ruines de la vallée de Mellagou », C.R.A.I., 145<sup>e</sup> année, n°2, 2001

ثالثاً - المجالات:

-الأجنبية:

- Revue Africaine (Rev. Afri.), Publiée par la Société Historique Algérienne, Alger.Fondée en 1856.
- Revue des Études Anciennes (R.E.A.), Publiée par l'Université Michel de Montaigne-Bordeaux III, France, Fondée en 1899
- .Revue de l'Histoire des Religions (R.H.R.), Publiée par les Éditions Armand Colin pour le Collège de France, Paris.Fondée en 1880.
- Revue des Questions Historiques (R.Q.H.), Publiée à Paris, depuis 1866.
- Comptes Rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres (C.R.A.I.), Publiés par l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Institut de France, Paris,1857.
- Mélanges de l'École Française de Rome (M.E.F.R.),Publiés par l'École Française de Rome, Rome, Italie.1881.

خامساً - المعاجم والقواميس والموسوعات:

1. باللغة العربية:

1. ابن منظور، محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي المصري ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1955م.

## قائمة المصادر و المراجع

---

2. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، 2005م.
3. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس ، دار الهداية، القاهرة، 1965م .
4. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1979م.

### 2. باللغة الفرنسية:

- Bouillet, Marie-Nicolas & Chassang, Alexis ,Dictionnaire Universel d'Histoire et de Géographie , Librairie Hachette, Paris, 1878